

روايات نجيب الكيلاني

www.racebok.blogspot.com

٩

عواكب الاحرار



RAJOL

عواكب الاحرار

٩

تطلب جميع منشوراتنا من
الشركة المتحدة للتوزيع
بيروت - شارع سوريا، ستارة صفاي وصفاة
هاتف: ٨١٥١١٢ - ٢٦١.٢٩٠، فاكس: ٧٤٦، رفقة بوشرا

نَجِيْبُ الْكِلَانِي

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الخامسة

١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م

مَوَاقِفُ الْأَحْزَانِ

« روليت »

مؤسسة الرسالة

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريّا - بناية صمّدي وصالحة
هاتف ٢١٩٠٣٩٠ - ٨١٥١١٢ - ص.ب. ٧٤٦٠، برفيتا، بيروت





بولاق في أواخر القرن الثامن عشر . .
والسفن ترسو بالميناء الشهير حاملة شتى أنواع البضائع من
أنحاء الأرض . . وقصور الكبار من رجالات القاهرة تقف شامخة،
كقلاع صغيرة، وأغلب هذه القصور يسكنها المماليك والأتراك،
وعدد قليل من المصريين الأثرياء كالتجار وأصحاب
المناصب . . وخلف تلك القصور الشامخة وحدائقها الشائقة،
تقع البيوت الصغيرة الكثيرة، حيث يعيش أبناء الطبقة الدنيا،
وفيهم أصحاب الحرف الصغيرة، والباعة المتجولون، وصغار
تجار التجزئة، وفقهاء «الكتاتيب»، والخدم والخفراء
وغيرهم . . .

والحركة في بولاق دائبة لا تكلّ، وأصوات الباعة تملأ
الطرق، والنسوة يسرنّ متشحات بالملابس السوداء، على
وجوههنّ خمر شفافة، تزيدهنّ جاذبية ورقة، وعدد من الأطفال
الحفاة يتخبطون ويسرعون هنا وهناك، ومن آن لآخر تظهر عربة

كان الوقت مساءً بعد صلاة العشاء ، وقنديل زيتي ضخمة يتدلى من وسط السقف معلقاً من سلسلة معدنية مزدوجة . . . الجميع ينحني عليهم الصمت ، وتوهج القنديل ينعكس على وجه الحاج مصطفى البشتيلي ، فيشي بما يعمل غي نفسه من انفعالات شتى . . .

إنه لا يعرف كيف يتلقى الأمر، ولا كيف يزنه الوزن السليم . . كل شيء في هذا العالم من حوله مضطرب متناقض، والحياة تمضي على نسق غريب يثير التقزز والغثيان، أشياء كثيرة تؤرقه وتؤلمه، ولطالما حلم بالتغيير، لكن كيف؟؟ إن العجز يحاصره من كل مكان، لكأنما قد قيدت يديه ورجلاه بقيود لا فكاك منها، لا . . . بل إن روحه هي الأخرى يشعر وكأنها سجينه مقهورة لا تستطيع التحليق والإنطلاق، لطالما فكر في أن يثور . . أن يحمل سلاحه وينطلق في شوارع القاهرة وميادينها ومسامرها ليسحق الرؤوس العفنة، ويحطم كل القيم السخيفة التي تشعره دائماً بالذل والهوان . . لكنه وحده . . . والوحدة هي العجز . . . لكن لماذا يشعر دائماً أنه وحده؟؟ آه . . التجربة . . الناس كثيرون، والسخط يملأ القلوب، والألسنة الشائرة تعبر عما يجيش في القلب من تمرد مكبوت . . لكن عندما يجد الجد يحدث الشلل . . ذلك المرض الخبيث . . يقف الناس مطرقين عاجزين، الخوف يقيدهم، والرغبة تخرس ألسنتهم، فقد أيقنت غالبيتهم أنه لا جدوى من أية تضحية . . الناس نائمون مخدرون . . لا . . لا . . إنهم ميتون . . هو لا ينسى يوم أن دهم بعض المماليك متجره،

مزرکشة محللة بالمعادن الثمينة، تجرّها الجياد المطهمة، يسبقها إثنان أو ثلاثة من العبيد المهرولين، وبدخلها مملوك كبير المقام، أو تركي من عليّة القوم، ترتسم على وجوههم سيماء الكبرياء والثقة التي لا حد لها . . . وقد يخترق الشارع فارس من رجال مراد بك أو إبراهيم - قادة المماليك وحكام مصر - في رعونة وطيش، دون أن يخشى زجراً أو عقاباً . . .

وفي مكان لا يبعد كثيراً عن ترسانة بولاق الشهيرة، كان يوجد منزل الحاج مصطفى البشتيلي، أحد كبار التجار. لم يكن منزله قصرًا منيفًا كباقي القصور، ولم يكن متواضعًا كبيوت الطبقة الكادحة، وإنما كان في مكانة بين الإثنتين، يتكوّن من طابقين، يملئ واجهته عدد من المشربيات البسيطة الجميلة، وعلى مقربة من الباب الضخم تسمق النخيل ذات العقود الحمراء. وبيت الحاج مصطفى ينقسم إلى قسمين: القسم الأمامي حيث حجرات إستقبال الضيوف، وحجرات الطعام، وبعض حجرات النوم المخصصة للغرباء والزوار، أما القسم الخلفي فهي المأوى الحقيقي لأهل البيت: النساء والأطفال والخدم.

وفي حجرة الإستقبال الرئيسية جلس الحاج مصطفى، وحوله عدد من الأصدقاء فيهم الشيخ «علي الجنجي» مقرأ القرآن الكفيف وصاحب الصوت الرخيم، وفيهم العالم المتبحر «الشيخ إبراهيم سلامة»، و«أحمد المدبولي» صاحب الخبرة في صناعة البارود والسلاح، والحاج غمري التاجر الصديق، وغيرهم من الشيوخ والشبان . .

ونهبوا قدراً كبيراً من تجارته وأمواله تحت سمع الناس وبصرهم ،
 بل أمام عينيه هو . . ماذا حدث؟؟ الناس الذين طالما أحسن
 إليهم ، ويسرّ لهم سُبُل العيش ، جمدوا في أماكنهم ، وقد أفزعهم
 بريق السيوف ، وأصدقاؤه الخُلصّ تواروا عن الأنظار مخافة أن
 يحقق بهم الضرر ، وأهل الحي كانوا يرمقون ما يجري من خلف
 النوافذ والأبواب المغلقة والمشربات ، وهم يتمتمون « يا ساتر
 أستر » . ولم يطق الحاج مصطفى آنذاك أن يصمت ، بل صرخ
 لاعناً المماليك والأتراك والزمن الأغبر الذي كتب عليه فيه الذلّ
 والهوان ، وحاول أن يحضر سيفه ويخوض معركة يائسة ، لكن
 ابنته « زينب » تشبّت برقبتة وكانت تقول له : « لتذهب التجارة
 إلى جهنّم . . ليذهب المال . . . ليذهب كل شيء إلى
 الجحيم . . . ولتبق أنت لنا » . أما زوجه فقد اعترضت طريقه في
 إصرار وحزم لم يالفهما فيها من قبل وهمست : « لن تخرج من هنا
 إلا على جثتي » . وابنه الحسين أطرق برأسه شاحب الوجه ، ولم
 يعبر بغير الدموع التي تنسكب على خدّه . عند ذاك تطلّع الحاج
 مصطفى حوله وتنهد . . آه . . يا له من عجز رهيب ! . . إنها
 لحظات مؤلمة لحظات العجز تلك ، مليئة بكل الحقد البشري الذي
 لا حدّ له ، مكتظة بالسخط المكبوت الذي لو تفجّر لحطّم العالم
 بأسره ، لا شيء أبشع من العجز ، إنه رذيلة الرذائل .

طافت كل هذه الخواطر برأس الحاج مصطفى وهو يتوسط
 حلقة الأصدقاء بمنزله ، وشعر بعد فترة بيد المقرئ المرح تزحف
 على كتفه وتربّت في حنان ، وقال الشيخ علي الجنجيهي متصنعاً

البهجة :

- لا أسكت الله لك حسّاً . . .

هزّ الحاج مصطفى رأسه في حسرة :

- الحس تبلى يا جنجيهي . . أو قل إنه مات .

تظاهر جنجيهي بالضيق وقال :

- أتتوي إقامة ماتم من أجل إشاعة كاذبة؟

- كاذبة؟ أفق يا مولانا . . إنك لا تقلّ غباءً عن مراد بك وإبراهيم
 بك .

تدخل الحاج غمري التاجر وقال :

- ليكن . . لو فرضنا جدلاً أن حملة فرنسية في طريقها إلينا فما
 يزعجنا؟ لن يكونوا أسوأ من المماليك ، ولا ألعن من
 العثماني . . لن يتغير الحال كثيراً ، وقد تروج تجارتك يا حاج
 مصطفى .

إحتقن وجه الحاج مصطفى ، وبدرت نذر الغضب على وجهه
 المستطيل النحيل ، وبرقت عيناه في حدة ، وقال مهتاجاً :

- كلهم ملعونون . . لكن نحن ! . . ما مصيرنا؟ . . وإلى متى
 نظل ألعوبة في يد الغرباء والغزاة؟ . . هل خلقنا الله لنكون مطيّة
 يركبها كل قادم من وراء البحر؟ . . هل كتب علينا أن تبقى حياتنا
 سلسلة متصلة الحلقات من الإذلال والضياع؟ . .

ثم التفت إلى الشيخ إبراهيم سلامه ، وكان يجلّه ويحترمه ،
 وقال :

- تكلم يا مولانا .

هز الشيخ رأسه وتمتم :

إن ما تقوله يا بشتيلي هو الصواب، لكن لا تنس أن الأتراك والمماليك مسلمون مثلنا، لكن الفرنسيين شيء آخر.
- هذا لا يهم يا شيخ إبراهيم . . أين نحن من هذا كله؟ وإلى متى نظل ألعوبة؟

- هذا قضاء الله يا بشتيلي، نسينا الله فوكلنا إلى أنفسنا، ونحن تقاعسنا، فلا حول ولا قوة إلا بالله . . .

ومرّت لحظة صمت قال الشيخ إبراهيم بعدها :

- ومع ذلك فأنا أشك في المراكب الإنجليزية التي رست بشط الإسكندرية ثم رحلت بعد أن أطلقت تلك الشائعة، لعلهم كانوا ينوون إلتهاмна، وأعتقد أن قوة الحكام العسكرية - على أسوأ الفروض - تستطيع أن تصمد أمام عدوان فرنسا المحتمل، وقد أكد إبراهيم بك ومراد بك ثقتهم الكاملة بالنصر.

ابتسم البشتيلي في غيظ وقال :

- إنه الغرور . ألم تسمعوا عن نابليون وتدويخه لأوروبا؟ ألم تسمعوا عن أسلحتهم الحديثة؟ . .

قال الحاج غمري التاجر :

- نحن وراءنا تركيا بأسرها، والسلطان لن يفرط في شبر من مملكته.

ردّ البشتيلي :

- السلطان في حالة لا تسرّ، إنه يعاني سكرات الموت من الضربات التي يكيلها له أعداؤه في روسيا وغيرها . . ومع ذلك

فأنا أفكر في اتجاه آخر . . نحن! نحن! كيف نتصرف؟!

لقد ظلّ أحمد المدبولي صامتاً طوال الوقت يستمع للحوار المحتدم، ثم نطق أخيراً :

- أما أنا ففي الانتظار، وما عليّ إلا أن أضعاف الإنتاج من السلاح والبارود، وسأبيع لمن يشتري ما عدا الفرنسيين . . . وأظن يكفيها نقاشاً، ولنستمع إلى الشيخ الجنجيبي .

تربّع الشيخ، ووضع يمينه على يمين وجهه، وتنحنح، ثم استعاذ وبسمل وأخذ يقرأ: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدّكم بألف من الملائكة مسوّمين، وما جعله الله لكم إلا بشرى ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم» . . .

٧

يا بنت «فرط الرمان» يا حلوة . . .

همسات كانت تدور كلما خطرت «هيلدا» الجميلة ابنة برتلمي الرومي، ويطلق عليه العامة «فرط الرمان» أما الطبقة العالية فتسميه برطلمين. وكان برطلمين يحبّ ابنته الوحيدة البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً حباً ملكاً عليه فؤاده، ومن ثم كان لها أطوع من بناتها، لكنّما هو عاشق متيمّ يأسره عنفوان الحب وسطوته التي لا تقهر. ولشدة تمكّنها منه وإستثارها بلبه، لم يكن ليرفض لها طلباً، أو يوجه إليها عتاباً يחדش من كبريائها، أو ينال من تدللها. ومن ثم وجدت نفسها حرة طليقة تفعل ما يحلو لها،

فلم يكن أبوها بمستطيع أن يعترض على سيرها في شوارع القاهرة في حارة النصارى أو الأزبكية، حاسرة الوجه، محبوكة الثياب، ولم يكن يجد حرجاً يذكر عندما يراها تجالس سماره، وتجادب أصدقاءه أطراف الأحاديث، بل كان يطرب عندما يرى أحداً من رؤسائه المماليك أو الأتراك أو أحد فرسانهم يبش لها، ويحني رأسه إجلالاً لجمالها، أو يحاول جاهداً أن يختار الكلمات المناسبة ليطري حسنهما الفتان، ولم لا وهو يرى أن ابتسامتها في وجه رؤسائه تبدد غيوم المشاكل والشكوك التي تخيم على أفق حياته العملية بين السادة الحاكمين.

وهيلدا عاقلة، أوتيت حذراً ولباقة وذكاءً تفوق الكثيرات من بنات طائفتها في القاهرة، فلم تتورط في عبث مشين، ولم تسر في طريق التبذل الفاضح حتى نهايته الشائكة الكثيبة. كانت مريحة لعوباً، تملأ أفق البيت بهجة وسعادة، وتضفي على الزائرين متعة خالصة مؤثرة، لا يستطيعون نسيانها.

ولبرطلمين دكان يبيع فيه القارورات الزجاجية وبعض المساحيق الكيماوية والنباتات والبذور المطحونة، وله عدد كبير من الزبائن، هؤلاء الذين يتكاثرون في الأيام التي تأتي هيلدا فيها للدكان. وما أكثر ما كان يتجراً بعض الشبان الجسورين، ويقتربون من المحل ثم يهمسون وعيونهم تذوب رقةً وخجلاً: «يا بنت فرط الرمان يا حلوة». لم تكن تغضب أو تشور، بل كانت تبسم لهم إبتسامة بريئة لا تخلو من وقار، فيهرولون وقد غمرتهم نشوة رائعة المذاق، حتى أبوها لم يكن ليتضايق كثيراً - برغم

غيرته - عندما تتناهى إلى أذنيه الحادثتين تلك الهمسات المعجبة. وقد يكون تصرف «فرط الرمان» إبتته أمراً مستغرباً بالنسبة لما يسود القاهرة من تقاليد آنذاك، لكن نفس تلك التقاليد لم تكن لتتطبق كاملة على الأجانب من أرمن وإنجليز وغيرهم، لأن شيئاً من هذا لم يكن ليحدث في بيت الشيخ السادات أو الشرقاوي أو المهدي أو عمر مكرم - أكابر علماء ذلك العصر - ولا في بيوت غيرهم من المحافظين الذين يمثلون الطبقة الوسطى.

وكان واضحاً أن «هيلدا» تحب أباهما وتحقق عليه في نفس الوقت، ولم يكن حنقها يحتاج إلى دليل يؤكد، فهي تراه - برغم عاطفته العارمة نحوها - يسلك سُبلاً ملتوية في حياته الخاصة والعامة، مغرماً بتتبع عورات الناس، والبحث عن خباياهم. والأغرب من هذا كله أن لديه كراسة ضخمة يطلق عليها «الكتاب الأسود» يسجل فيها كل شيء لمجرد الرغبة في ذلك كما يزعم. ولم يكن تصرفه هذا رغبة مجردة كما يدعي، لأنه كثيراً ما يلجأ إليها عندما تثور فتنة من الفتن سواء بين زملاء العمل الحكومي، أو في مجالات التجارة، لأنه لا يفتأ يخطط ويدبر ليقضي على منافسيه في المجالين، حتى ولو كانوا من أعز أصدقائه. لم يكن إذن خبثه ومكره وقسوته البالغة لتخفى على ابنته وإن خفيت على كل من يعرفونه.

الوقت صيف . . أوائل يونيو . . وهيلدا تقف أمام المرأة كزهرة مفتوحة، تحاول أن تنسق شعرها، وتسوي هندامها، ثم تتحرك أمام المرأة يميناً وشمالاً وكأنها راقصة باليه، والسعادة تكاد تنطق في عينيها. ومن آنٍ لآخر تنشر أمام عينيها ورقة صغيرة معطرة وتقرأ وهي في غاية النشوة: «لسوف آتي إليك في المساء يا حبيبتي . . إن اللحظات التي أقضيها إلى جوارك تفوق العمر كله . . لست أدري كيف تكون الحياة بدونك يا بنت فرط الرمان يا حلوة؟ . . المخلص إلى الأبد: إبراهيم آغا . . .»

ودخل برطلمين فجأة، ثم سعل، أفاقت من حلمها الجميل وغمغمت: أبي؟ فلم ينطق، ظلّ صامتاً بعض الوقت، شملته بنظرتها، فاستطاعت على الفور أن تقرأ على سحنته الشقاء أموراً جديدة، وتمتت: ماذا؟ . . فخطا نحوها بثبات، ووضع يده المرتجفة على كتفها المستدير وقال:

- لن تقابليه الليلة . .

أدارت رأسها مستغربة:

- ماذا؟! هل بدر منه ما نفرك؟

- إنه وغد . . سافل . .

- أمرك عجيب يا أبي! . . إنه إنسان طيب لم يُقدم على ما

يسوؤك طوال علاقته معنا، ثم إنك تبش في وجهه، وتثني عليه دائماً، وكنت راضياً تمام الرضى عن علاقته بنا، وما أكثر ما وقف إلى جوارك وحماك من بطش الأعداء، لقد كنت تفخر بمنزلة إبراهيم آغا لدى الحاكم مراد بك، وتقول دائماً إنه شاب

ممتاز . . ترى هل جدّ جديد؟!

ألقي بجسده على أقرب مقعد، بينما أعطته هيلدا ظهرها واتجهت إلى المرأة، كان كل منهما يرى وجه الآخر في المرأة . . وتمتت: ما أكثر ما تصدر منك تصرفات يا أبي لا أستطيع تفسيرها .

قال برطلمين:

- لا تنسي أنه يدين بدين يخالف عقيدتك يا هيلدا، ومن ثم فزواجك منه مستحيل إلا إذا ترك دينه، وهذا إفتراض لا يقوم على برهان .

- نبراتك غريبة الليلة، ألم تكن تعلم ذلك من قبل؟ . . كل ما أعرفه هو أنني أحبه لدرجة العبادة .

- تضعين أهواءك ونزواتك فوق عقيدتك، ما هكذا يجب أن تكون بنت برطلمين . .

قالت في حدة تشوبها الحيرة:

- إن منع إختلاف العقيدة مراسيم الزواج، فأظن أنه لا يمنع أن يقع الحب الطاهر بين مخلوقين لا ينويان شراً . . .

صاح مهتاجاً:

- إنه عبث .

- ماذا تعني؟

- إن نابليون قادم . . .

- وما شأننا به؟

قال وقد امتزجت نبرات صوته بالرقّة:

أذهب إلى عملي منذ الغد... ليكن بحجة المرض... لقد دالت دولتهم، وأنت دولتنا يا هيلدا...

لكأنما تساقطت أكداس من الصخور والرمال فوق رأس هيلدا... إن أباهما يقذف بالكلمات في صراحة أقرب ما تكون إلى الصفاقة، العالم كله تحت قدميه بما فيه من حب وعلاقات وقلوب وحيرة ووفاء... وسمعته يقول:

- لم أقف في طريقك يوماً يا هيلدا، لكنني أعرف عن يقين ماذا يجب أن أفعل الآن، إن علاقتك اليوم بإبراهيم آغا، ذلك الفارس المملوكي، علاقة حب، لكنها ستكون غداً خيانة كبرى لا يغتفرها الفرنسيون... إفهميني يا هيلدا... هذه هي الفرصة التي نستطيع فيها أن ننتقم من عجزنا وذلنا وحياتنا المتواضعة السمجة.

قالت وقد ترقرت الدموع في عينيها:

- تتكلم يا أبي وكأنك تقرأ سطور الغيب، ألا يصح أن ينهزم الفرنسيون؟ وحتى لو انتصروا، هل أنت واثق أنك ستال المنزلة التي تحلم بها؟

إبتسم برطلمين، ثم قال:

- هذه بداية طيبة، لقد بدأت تناقشين الأمور بروية وتعقل، وستدركينها أكثر عندما تطردن نهائياً ذلك الشبح الذي يقف بيني وبينك - شبح إبراهيم آغا - حسناً... إن من حطم إيطاليا، ودوخ النمسا، وأرعى أوربا لا يمكن أن يتقهقر أمام طائفة من الفوضويين والمغرورين من المماليك والأتراك وأذئابهما... أما

- سيتغير وجه مصر... سيتنصر نابليون يا هيلدا... وسيمزق الأتراك والمماليك شر ممزق، سترينهم بين قتيل وأسير وجريح وهارب في فجاج الأرض... وأنا يجب أن أستعد... لقد جاء اليوم الذي كنت أنتظره، لقد عشت دائماً في هذه الديار كغريب... لم أنل ما أستحق من مناصب... لطالما عذبني العجز، أترضين لأبيك أن يكون بائع قارورات؟... إن عقلي يزن ألف عقل تسكن رأس مراد بك وإبراهيم بك والوالي التركي... ومع ذلك فأنا أعيش في الذيل... يجب أن تطأطأ رأسي وأخدع وأكذب وأنافق وأتأمر لأصل إلى ما أريد... إن القوى التي تتناحر هنا قوى فاسدة تالفة، صراع من أجل الكسب الشخصي حيث لا مثل ولا وطنية... وأنا تلميذ هذا الصراع الدامي في مدرسة المماليك والأتراك...

كانت تستمع إلى أبيها وجسدها يرتجف، وتمتمت:

- إذن هي الحرب على الأبواب؟

- هذا لا يهميني يا هيلدا... إن بنت برطلمين يجب أن تعيش في قصر منيف، ويجب أن يجري حولها الوصيفات والخدم والعبيد، وأن ينثر تحت أقدامها الدنانير الذهبية... وأبوها... أبوك يا هيلدا يجب أن يقف على قمة شاهقة حتى يُشار إليه بالبنان، ويقول الناس هذا برطلمين الرومي العظيم صاحب الكلمة المسموعة... إنها فرصة العمر يا هيلدا... وإبراهيم آغا يجب أن يطرد من هنا طرداً... لا يصح أن تكون له علاقة بنا، فنحن لا نحب المماليك أو الأتراك، أو هذا ما يجب أن يعرف... وأنا لن

بالنسبة لمستقبلي مع الفرنسيين ، فهذا أمر قد تمّ تدبيره مع
قنصلهم هنا في القاهرة . . .

- تعني أنك . . .

فقاطعها قائلاً :

- أجل قابلته . . ألم أقل لك أن وجه الأرض سيتغير؟ .

وشردت بنظراتها إلى بعيد ، كانت تحلم بفتى أحلامها الفارس
الممشوق القوام ، القوي البنية ، كانت تستعذب غروره
وسذاجته ، وتنتشي بركوعه أمامها كطفل وديع ، ولم يكن
يستعصي عليها أن تشكله كيف شاءت ، كان يرضي طموحها
وكبرياءها كأنثى ، لم تكن لتجد فيه شيئاً ينفرها منه ، لقد روى لها
ذات مرة إحدى مغامراته الطائشة في الهجوم على حيّ من الأحياء
بالقاهرة ، والإستيلاء على كثير من المجوهرات والمقتنيات ، كم
كانت دهشته عندما سمعها تقول : « حبيبي لا يصح أن يكون
قاطع طريق . . و . . لص . . إن فارس أحلامي شيء آخر . . »
لشدّ ما ندم يومها ، ولشدّ ما تكرر أسفه وإعتذاراته ، كان يظن أنه
يأتي عملاً عادياً من أعمال البطولة التي يفخر بها زملاؤه ، ولم يكن
يظن أن ذلك سيغضب هيلدا ، ثم وعدّها وعداً قاطعاً ألا يعود
لمثل ذلك مرة أخرى . . آه . . لسوف يعود الليلة ، وسأسمع
صدى حوافر الجواد الأبلج ، وسأقف عاجزة خلف النافذة لا
أستطيع أن أفعل شيئاً ، وسيخرج إليه أبي بابتسامته المصطنعة
ليقول له إن هيلدا ليست هنا الليلة . . وسيرجع من حيث أتى ،

وقد تدهمه الحرب فلا أراه مرة ثانية . . . وارتمت هيلدا على أرض
الحجرة الخشبية وهي تجهش بالبكاء . . وعندما اقترب أبوها منها ،
صاحت في ثورة عارمة ، وهي تشيح بيدها العارية البضة :
- دعني . . دعني . . أخرج من هنا .

- هيلدا . . ماذا جرى لك؟

أخذت تجفف دموعها ، ثم استردّت قليلاً من هدوئها ،
وتمتمت :

- معذرة يا أبي . . لقد كان الأمر مفاجأة لي . . لم أكن أتصور
أنني سأفترق عنه .

- هدّئي من روعك يا ابنتي . . تلك هي الحقيقة المُرّة ، إن
طرّد جميع المماليك أو قتلهم هو الخطوة الأولى للفرنسيين ،
وأنت لا يمكن أن ترتبني برجلٍ مصيره بين إثنين كلاهما مُرّ . .
إنني أقدر مشاعرك تمام التقدير ، لكن أباك له من الخبرة والحدب
عليك ما يجعلك تثقين في كلامه وتصرفاته . . أنا أبوك يا
هيلدا . . .



لم يأتِ الفارس المنتظر في موعده ، لكنه أتى في الصباح
الباكر . . وحينما وقف بالباب كانت هيلدا تتوسط باحة البيت ،
وعندما رآته جمدت في مكانها ، وساد وجهها شحوب ظاهر .
وخطا نحوها في قلق ، وهو يتمتم : « ماذا بك يا هيلدا؟ » فألقت

بنفسها بين ذراعيه وهي تردّد: «لا تتركني .. لا تتركني .. أتوسل إليك». وخرج برطلمين عندما سمع صوتها، فتسّمّر في مكانه محنقاً، لكن سرعان ما عادت الابتسامة الشاحبة المصطنعة إلى ثغره الواسع، ثم قال:

- حسناً .. لا داعي لكل هذا يا هيلدا.

قال إبراهيم آغا محرّجاً:

- لا شك أنك علمت بنياً الإستعدادات للحرب .. لا تقلقي يا عزيزتي، فالفرنسيون لن يجرأوا على مهاجمتنا، ولو فعلوها فلن يكون هناك سوى جولات قليلة لا تستغرق بضعة أيام يعودون بعدها مدحورين .. أنت تعرفين من نحن.

وكزّ برطلمين على أسنانه في غيظٍ وأخذ يحدث نفسه: «هذا المغرور لم يزل يعيش في الوهم الذي صنعه له غباؤه وغباء أمثاله .. جولات قليلة! بضعة أيام! مدحورين! إنه لأمر مضحك».

ثم عاد يقول بصوتٍ مسموع:

- «هيا إلى الداخل لنشرب فنجاناً من القهوة، إن هيلدا تكن لك في قلبها حباً فوق طاقة البشر، أكاد أحسّك على هذه العاطفة الخالصة» ..

٣

عافت نفسه الطعام، وجلس أمام المائدة وقد أسند ذقنه على قبضته اليمنى، وجسمه يرتعد، وجلس قبالة ولده الحسين مطرقاً

لا يبدي حركة، أو ينطق بكلمة. والحسين لم يعد صغيراً، فقد تخطى التاسعة عشرة من عمره، وتلقّى كثيراً من علوم الدين، ومارس التجارة إلى جوار أبيه، وهو يعلم أن أباه لا يعاف الطعام إلا إذا تأزّم الموقف، أو أخذت بخناقه مشكلة عويصة الحل. أما اخته زينب، ذات السبعة عشر ربيعاً، فهي تتحرك في وجل، وتنقل إلى المائدة أطباق الطعام وأكواب الماء بنفسها دون معونة أحد من الخدم. أما الأم فقد جلست خلف زوجها واضعة كفين متشابكين في حجرها، لائذة هي الأخرى بالصمت، وأخيراً قالت:

- ألا تأكل يا حاج مصطفى؟

لم يرد عليها، كان إحتقان وجهه المستطيل الأسمر، وارتعاشة يديه، وبريق عينيه الحائرتين .. كلها تعطي الجواب المؤلم الحزين. مرة أخرى يستشعر الحاج مصطفى البشتيلي مذاق العجز بمرارته وعذابه، فينتابه شقاء ما بعده شقاء، لحظات عصبية، الموت أهون منها.

وعادت زوجه تقول:

- ولماذا لا نرحل؟

إلتفت إليها بوجهٍ مكفهر:

- إلى أين يا امرأة؟

- إلى أعماق الريف البعيدة، أو نتجه ناحية بر الشام، ولدينا من المال والمجوهرات ما يكفيننا طول العمر ..
لشدّ ما ضايقته هذه الكلمات، وحزّت في نفسه! الحاج

مصطفى يهرب ! يا للمهزلة ! وتمتم :

- هل أصابك مَسٌّ من الجنون؟

- وما جدوى إنتظارنا؟ إنه الإنتحار بعينه .. غداً يدهمنا هؤلاء

الغزاة الكفرة ويجردوننا من كل ما نملك، وقد يقتلوننا .. أنا لا أطيق الحرب، ولم تعد أعصابي تحتمل ذلك العنت كله ..

وأولادي، كيف نفرط فيهم ونعرضهم للمخاطر؟

ولوح بيده متوعداً، وصرخ:

- كفي عن هذا الهراء .. إذا لاذ الجميع بالفرار فلمن تكون

تلك الديار؟ وكيف نقابل الله وقد تقاعسنا عن الجهاد في سبيله؟
لسنا وحدنا يا جاهلة.

قالت ساخرة:

- كنا دائماً وحدنا .. أنسيت يوم أن نهب المماليك متاجرك،

ولم يستطع أحد أن يحرك ساكناً، حتى الشيخ الشرقاوي شيخ
الجامع الأزهر لم يستطع أن يقدم بالنسبة لك سوى احتجاج
أجوف لمراد بك، وانتزع وعداً شكلياً بعدم التعرض لك مرة
ثانية .. أنسيت؟ كنا دائماً وحدنا .. نحن في أيام شقاء ودماء،
والسعيد من نجا بنفسه .. دائماً تسفه آرائي وتسخر منها .. لست
أدري متى تغير طريقة تفكيرك.

إبتسم في مرارة وقال:

- إن طريقي واضح مستقيم، وفكري صافٍ كالشمس

المشرقة .. لسوف أبقى هنا، وأقف في وجه كل غازٍ، حتى ولو
كنت وحدي .. لكن تيقني أن الناس قد بدأوا يتغيرون. إن

المصائب الكبرى توقظ النيام، تحيي الموات .. تلك المصائب
تنتصب كالمغناطيس الضخم وتجمع وتجذب الناس من حولها،
ولا يتخلف أحد .. حتى الجبناء .. إنه تجمع قهري يا أم زينب.
ثم انتفض واقفاً، وانتعل حذاءه، وأخذ يرتدي بقية ملابسه.
والتفت إلى الحسين قائلاً: هيا معي.

قالت زوجه في يأس: إلى أين؟

- زيارة قصيرة للشيخ السادات.

- آه .. إنه رجل طاهر منسب، وإني لموقنة أن لديه الحل
الأمثل، مثل هؤلاء الرجال يتكلمون بوحى من الله .. لا تنس أن
تطلب منه الدعوات لنا ولأبنائنا، لعل الله يزيل تلك الغمة .. لكن
ألا تتناول طعام الفطور؟

- ليس لدي أدنى رغبة.

الطريق عامر بخلق الله، وأحاديث شتى تطرق أذنيه وهو
يخترق الشوارع، وعبارات قصيرة تخترق صدره كالخناجر: «لقد
سقطت الإسكندرية .. الفرنسيون قادمون إلى القاهرة ..
مدافعهم تحصد الناس حصداً، وتهدم القلاع والطواهي والبيوت
على رؤوس من فيها .. لقد قامت القيامة .. هذا العقاب قد ساقه
الله إلى العصاة والمذنبين».

ويمضي الحاج مصطفى في طريقه شارداً، والناس يصخبون،
ويتحركون في توتر، لكنهم يأكلون ويشربون .. والباعة يصيحون
ويعرضون سلعهم .. وفرسان المماليك يجوبون الشوارع، وقد
امتشقوا سيوفهم ورماحهم، لم تفارقهم عنجهية الكبرياء

والغرور، وإن ظهروا أكثر رقة وأدباً مع الناس، بغية حشد العامة ضمن الجيش المحارب «حسنة وأنا سيدك».

وفي ساحة واسعة، رأى الحاج مصطفى البشتيلي حشداً ضخماً من رجال الطرق الصوفية وال دراويش والعامة، وقد نصبوا محضر ذكر كبير، وأخذوا يجأرون إلى الله: «يا لطيف الطف بنا.. نحن عبيدك كلنا». وغير ذلك من عبارات الإبتهال والدعوات، يرددونها ألف مرة، وهذا - كما يقول البعض - كفيل بأن يردّ كيد الأعداء إلى نحورهم، ويشتت شملهم. وقال الحاج مصطفى لولده:

- أنظر.. إنهم يتخبطون.. الدعاء وحده لا يُجدي يا ولدي، لا بد أن يحملوا السيف ويهرولوا إلى ميدان القتال، تلك هي العبادة الحقّة.

وأشار بيده إلى ناحية أخرى قد تجمّع فيها بضع مئات من الشبان حول مدفعين قديمين يتعلمون كيف يطلقونهما. ثم قال: - هذا هو الأسلوب الذي يُجدي في الحروب.

وعندما إقترّب من حي الأزهر الشريف سمع منادياً ينادي: «حي على الكفاح.. حي على الفلاح..» ما أروعه من نداء، والتفت إلى ولده:

- ألا تسمع يا ولدي؟ إنه نداء الحياة. أنظر.. الناس يتجمعون بالألوف، لم يعد هناك مجال للحزازات والخلافات، طوفان الثورة يجتاح الجميع، ويصهرهم في بوتقة واحدة، ويخلق منهم كائناً جديداً.. هذا ما كنت أتوقعه.. لم نعد وحدنا

يا حسين.

وفوجيء الحسين بأبيه يهرول مسرعاً، ويصعد مصطبة عالية ويصيح:

«أيها الناس.. حيّ على الكفاح.. حيّ على الفلاح.. أيها الناس تذكروا ما قاله خالد بن الوليد وهو على فراش الموت: (لقد شاهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني شبر إلا وفيه طعنة سيف أو رمح، فلا نامت أعين الجبناء..) أيها الناس.. هذا يومكم الأكبر..»

وهبط منبره، وزحف نحو باب الأزهر، ودخل إلى المسجد بين التكبير والتهليل.. كان بالداخل الشيخ الشرقاوي، والشيخ المهدي، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف، والشيخ السادات شيخ طائفة السادات، والشيخ الفيومي والصاوي وقاضي مصر، وغيرهم من جلة العلماء وشاهبندر التجار السيد المحروقي، والشيخ البكري شيخ السادة البكرية.. ومراد بك وإبراهيم بك والوالي التركي.

كانوا يتحدثون، وهدير كالرعد يصم الآذان ينبعث من حول المسجد التاريخي الكبير. لقد تبدّد كل خوف، وانقشع كل تردّد، أثار فيهم حماس الجماهير الصاخبة الثقة والحرارة، فانبهروا يتحدثون ويرتبون خطوات المعركة القادمة.. لقد بات الإستسلام بدون مقاومة أمراً مستبعداً، لا بد من الجهاد حتى آخر رمق، وعلى السادة المشايخ ورؤساء الطوائف أن يعبثوا الجماهير، ويؤكدوا لهم أن العمل وحده هو المطلوب، وأن الهتافات

بمفردها لا تجدي فتيلاً.

ويهمس إبراهيم بك قائلاً: «ما أشدَّ الحرَّ!»
فيردُّ الشيخ السادات باسمًا وهو يترنم بآية من القرآن:
«قل نار جهنم أشدُّ حرًّا لو كانوا يعلمون».
وعقب البشتيلي: «صدق الله العظيم».



في ذلك الزحام والفوران الشعبي المهول، كانت هناك عينان ترقبان كل ما يحدث في دقةٍ وحذر، عينا برطلمين «فرط الرمان».
فعلى الرغم مما عرف عنه من سفالةٍ ونذالة، إلا أن الناس يعلمون أنه من عسكر محمد بك الألفي ضمن طائفة الطوبجية..
واليوم يجتمع الجميع على قلب رجل واحد، لا فرق بين تركي ومملوك ومصري، ولا مسيحي أو مسلم، ولا أرمني أو مصري..
إنهم أبناء وطن واحد يدعوهم للذود عنه. ولم يخفَ عليه بالطبع ما يجري من تعبئة وإستعداد للمقاومة، لكن قنصل فرنسا أمره أن يحاول تضليل القادة والجماهير، وأن يوهمهم بأن الفرنسيين قادمون من ناحية دمياط. وحاول برطلمين أن يجند ابنته هيلدا لهذه المهمة، فهي قادرة على أن تقنع حبيبها إبراهيم آغا بصحة هذه الأنباء، وعندما فاتحها في الأمر أشاحت بوجهها قائلة:

- دعني يا أبي، لقد مللت كل شيء.

- أتعصين أباك يا هيلدا؟

- ألم تأمرني بالإبتعاد عن إبراهيم؟.. ثم ألا يكفي أنك سحقت قلبي، وتريدني أن أضع إبراهيم المسكين ورفاقه في فخٍ

ولم يغب عن الحاج مصطفى البشتيلي، وهو يجلس إلى جوار الشيخ السادات صديقه القديم، ما اعتري مراد بك من حيرة وقلق، والغريب أن مراد بك كان منكس الرأس مشئت الذهن، يطأطئ رأسه لقوارع العتاب والملام التي تنصبُّ عليه من أفواه الجالسين، وهل يستطيع أن ينكر أنه استنفد طاقاته المادية والمعنوية في صراعات طائفية، ونزاع على السلطة، لا مبرر لها؟ وهل في إمكانه أن يتنكر لِمَا بذَّر منه من غرور وإهمال في إعداد العدة، وتزويد الجيش بما يحتاج إليه؟ أم تراه نسي ما شربه الناس على يديه من صنوف الإيذاء والإذلال والإستغلال؟..
وتكلم مراد:

- أنا منكم ولكم، وبدونكم لا أساوي شيئاً.. إنني اليوم أقدم حياتي وحياة جنودي من أجل الحفاظ على حرية شعبنا العظيم... لنذع العتاب، فهذا أوان الوحدة والضراب، أيها السادة الأحاب.

وابتسم الحاج مصطفى البشتيلي، ومال على أذن الشيخ السادات هامساً:

- ترى من كتب له هذه الخطبة المسجوعة التي يحفظها عن ظهر قلب؟

الجو شديد الحرارة، وشدة الإزدحام تُسيل العرق، وتكاد تزهق الأنفاس، لكننا تحوّل شهر يونيو إلى أتون كبير ينضج على لهيبه عشرات الألوف من البشر!..

قاتل حتى يطعنهم الفرنسيون من الخلف؟

إقترب منها في تودد، وأخذ يلاطفها ويربّت على شعرها في حنان، ثم قال:

- لنكن صرحاء، إن هذا الأمر يتعلق بمصيرنا ومستقبلنا، لو لم نقدم للفرنسيين ما يثبت تعاوننا معهم وحسن نوايانا نحوهم، لطاردونا كما تطارد الذئاب الجائعة، ولخسرنا كل شيء... أنسيت أنني من رجال محمد بك الألفي؟..

كل شيء في أبيها يدعوها إلى النفور منه، والإحتقار له. لعل لقسوته السابقة كجندي من جنود الأمراء ما يبررها في الماضي، لكنه اليوم يغرق نفسه في مستنقع آسن من الخيانة البشعة، إنه يخون سادته المماليك، ويخون الأرض التي شبّ عليها، ورضع من خيراتها، ويتنكر للمشاعر الإنسانية التي لم يختلف عليها دين من الأديان... لو لم يكن أباه لبصقت في وجهه، ولطخت جبينه بالأقذار... آه... لم يعد لهذه الحياة معنى بدون إبراهيم، وبعد أبيها هو الآخر... إن أباه حي يُرزق، لكنها قد افتقدته... لقد تحول إلى ثعلب مأكّر جائع يتلهف حرقاً لدماء الضحايا الأبرياء... أين أحلامها الوردية الجميلة؟

وفجأة سمعها تقول:

- لماذا تكره الناس هنا يا أبي؟

- الكره لا يأتي وحده يا هيلدا... لا بد أن هناك أسباباً أصيلة.

- أريد أن أعرفها لعلّي أؤمن بها.

- لو لم تشكي في أبيك لآمنت بما يقول دون حاجة إلى

أسباب... حسناً، أنت لا تحبينهم مثلي تماماً، لكن حبك لإبراهيم إتسع في بلاهة فشمل كل شيء... وإبراهيم ضابط صغير لا ينتظر لنجمه بزوغ... لن أروي لك الأسباب، فأنت على غير استعداد لفهمها، لكنني واثق أنك ستدركينها بعد أن تطردي إبراهيم من قلبك...

كانت تشرب كلمات أبيها في تقزّز كما تشرب ذلك المحلول المرّ الذي يقدمه لها وهي مريضة، وكانت تدرك أكثر من أي وقت مضى أنه والد بلا قلب، بل أخذت تشكّ في كل ما أغدقه عليها من حذب وحنان وحب في سالف الأيام.

هزّت رأسها في عصبية، ثم تمتمت:

- لسوف أذهب إلى إبراهيم كما أمرت.

- أنا لا أمرك يا مليكتي، بل أرجو...



في الطريق إلى إبراهيم كانت تتساءل: لماذا لم يخلقها الله على شاكلة أبيها من المكر والدهاء؟ ترى هل يرجع ذلك إلى أمها الطيبة المريضة التي كثيراً ما تحدثها عن جدّها الكبير الثري الذي كان يغدق الخير على الفقراء، ويأوي الضائعين، وينفق على الأديرة؟ وهل معنى ذلك أن جذورها تمتد إلى الأرض المصرية الخصبة التي أنبتت أمها وجدّها؟... إن ذلك التناقض بينها وبين أبيها، ثم بين أمها وأبيها تناقض معذب محير... لقد قضت طفولتها في شوارع القاهرة وأزقتها وبيوتها، كانت تدخل بيوت

سحرية تشدّها إلى تلك الجماهير، برغم رثاءة منظرها، وحفاء أقدامها، وهديرها الصاخب الذي يصمُّ الآذان. لكم تمنى أن تنسى كل شيء وتندمج وسط تلك الجماهير، وتشاركهم ما هم فيه من صخب وهتاف !! لكنها تسمع خلفها صوتاً ندياً لا تعرفه، صوتاً مجهولاً يقول: «يا بنت فرط الرمان يا حلوة» فتندى عيناها بالدموع، وتهزّها فرحة مباغطة تنسيها الكثير من آلامها وأحزانها، ومن خلال ستار الدموع الشفافة تنظر إليه في ودّ، لكنه سرعان ما يتوارى في خجل... إنه واحد من فتيان الموسكي حيث يوجد دكان أبيها...

وعندما تبلغ القلعة، وتسال عن إبراهيم آغا، يخبرونها أنه قد رحل إلى إمبابة ضمن القوة الأمامية التي ستواجه الفرنسيين هناك، وتكون المفاجأة الكبرى عندما تعود إلى البيت، فيصرّ أبوها أن يركبها عربة لكي تذهب إلى إمبابة لتؤدي المهمة القذرة التي كلفها بها...

§

أدركت هيلدا عندما وصلت إلى معسكر إمبابة والشمس مائلة للغروب أية طعنة قاسية يريد أن يوجهها أبوها إلى تلك القوات المرابطة التي لا همّ لها إلا الدفاع عن شرفها وأرضها وقيمها الخالدة، وأيقنت تماماً بالسفالة المزقة التي تكمن وراء لعبة أبيها وهو يناصر الأعداء ويضع المدافعين في كمينٍ ساحق. يا لها من لعبة! إنه يلهو بأرواح الآلاف... فأية أسباب وجيهة - مهما كانت

النصارى والمسلمين على السواء، وتأكل وتشرب وتلعب... لم يحدث خلال سني الطفولة والمراهقة ما يحوّل قلبها عن أهل مدينتها الحبيبة، أحبّت كل شيء في وطنها: الأرض والماء والسماء والمباني والشوارع والناس... وكانت تحفظ سورة الفاتحة والصمد والمعوذتين كما يحفظها أبناء المسلمين. لم تستشعر في حياتها شيئاً من المقت والكراهية نحو أولئك الذين كانوا يطاردونها بعبارة الغزل الرقيقة المحببة إلى نفسها: «يا بنت فرط الرمان يا حلوة». قلّ ما كانوا ينادونها باسم هيلدا، بل إن بعض المشايخ الكبار عندما سمع اسمها الحقيقي، تربّع وقال فيما يشبه الثقة: «أعتقد أن كلمة هيلدا كلمة محرّفة، وأظنها مأخوذة عن كلمة «خالدة» العربية الصميّة، تماماً كما حدث لاسم قصر «الحمراء» بالأندلس حينما أطلقوا عليه «الهمبرا». ما زالت هيلدا تبحث عن الأسباب التي تدفع أباهما لارتكاب تلك التصرفات الشائنة، وكلما أمعنت في التفكير خيل إليها أنها تضرب في متاهات من الظلام والأوهام والشكوك القائلة، ثم تنتهي خطواتها المجفلة في تلك المتاهات إلى حقيقة مرّة مفاجئة تُدين أباهما.

وما فتئت تشقّ طريقها وسط حشود صاخبة من الناس المتجمهرين هنا وهناك، وهي تقصد القلعة حيث معسكر إبراهيم ورفاقه. كانت هتافات الجماهير تتسلل إلى أذنيها ثم تمرق إلى قلبها فتسرع بنبضاته. لم تشعر بغربة أو تقزّز من تلك الأجساد التي ترتطم بها مصادفة في الطريق العام، خيل إليها أن وشائج

وجاقتها - يستطيع أبوها أن يقنعها بها؟ وحينما سألت عن إبراهيم واستدعوه لها، رآته قادماً من بعيد... كان مغبر السحنة، مشوش الشعر، تسيل قطرات العرق على جبينه الذي لوحتته الشمس... ولم تتمالك نفسها وهي ترمق نظراته البريئة الوالهة أن تلقي بنفسها بين ذراعيه... وتمتم إبراهيم:

- لقد جئت في وقتك.

- كيف؟

- كنت أشعر بمسيس الحاجة لرؤياك... يا لها من أيام!... لم أجرب ذلك طول حياتي، إنني أدرك الآن ماذا ينقص رجل الحرب المقبل على معركة ضارية.

- أي شيء تقصد؟

- قبيل المعركة الحاسمة أدرك أنني في نهم شيء للحياة... أريد أن أعب منها بشراة وبأكثر مما أستطيع. إن ما كنت أفكر فيه الآن ليس المعركة وحدها، كنت أقول لنفسي: « ترى هل أعود إليك يا هيلدا مرة ثانية؟ » وأشعر بالندم في كثير من الأحيان، لماذا؟ لماذا لم نستمتع بحياتنا كأقوى ما يكن الإستمتاع؟ أعني لماذا لم نتزوج قبل ذلك؟ لكأنما الأيام التي قضيناها معاً كانت مجرد لحظات قصار.

تبليت عيناها بالدموع وهي تستمع إلى حديثه، وازداد تشبثها به. وقالت في نبراتٍ بخالطها البكاء:

- تتكلم وكأنك تودعني!

- لا أدري بالضبط... لكنني سعيد بلقائك.

وشعرت بمقتٍ هائل يجتاح قلبها لكل سخافات الحياة... لماذا الحرب؟ وما الذي يجعل هؤلاء القادمين من الغرب يتركون بلادهم وذويهم ويأتون إلى هنا ليريقوا الدماء، ويقلبوا هناء البشر إلى شقاء، وإطمئنانهم إلى قلق؟؟ كان بداخلها بركان ثائر، واضطراب فكري لا مثيل له، وخيلٌ إليها آنذاك أنها لو خُيرت بين الدنيا كلها وبين حبيبها لاختارته مرتاحة الضمير، قد تكون هذه أنانية، لكنها لم تعد توقن بجدوى ذلك الشقاء البشري وإشعال الحروب دون سبب، وبدا لها العالم كله فساداً في فساد، فلم لا تختطف حبيبها وتهرب به، وتنغزل عن الدنيا وما فيها، بعد أن اجتاح الفساد كل القيم النبيلة؟...

ونظرت إلى حبيبها قائلة له:

- لست أدري لماذا تعرّض نفسك للموت؟!

إبتسم إبراهيم وهو يقول:

- إنني أوّدي الواجب.

- بل أنت تدافع عن سلطة سادتك المماليك والأتراك ومجدهم.

- بالطبع، لكنني أدافع عن الوطن الذي يحكمونه في نفس الوقت، وعن شرفي العسكري كجندي، وعنك أيضاً يا هيلدا... إنها معركة مقبلة جاءت في وقتٍ غير مناسب، لكن لا تنسي أنني بريء من تبعاتها، فأنا لم أطلب من الفرنسيين أن يأتوا إلى هنا...

اللوم كله ينصب على هؤلاء المعتدين يا عزيزتي، ومع ذلك فغداً تنجلي الغمة، ويعود الصفاء. كثيراً ما يقع الإنسان في أزمات خانقة يخيّل إليه أثناءها أن ظلامها لن ينكشف، لكن لكل شيء أجل.. لن تستمر المعركة طول العمر، لا بد أن يكون لها نهاية. قالت وهي تجفف دموعها:

- معذرة، لكم أتمنى أن تسحقوا العدوان، وأن تبقى هذه البلاد بخير، لكنني أخاف أن يصيبك مكروه. قال وهو يشرد ببصره بعيداً:

- وأنت؟ أهنأك ضمان ألا يصيبك مكروه وأنت في عقر دارك؟ إنه قدر الإنسان، وقدر الإنسان لا تقف في طريقه عقبات.

وتذكرت أباهما على الفور الذي نال الضمان لحمايته، بل نال الوعد بأن ينال الثمن، ويبلغ ما يريد من آمال على يد الفرنسيين، واقتنعت وهي تستمع إلى كلمات إبراهيم، أنه لا ضمان إزاء إرادة القدر، وبدا إبراهيم أمامها عملاقاً بإيمانه وصبره وشجاعته، وبدا لها أبوها فأراً صغيراً يوهم نفسه أنه قد ملأ مصير كل شيء. وعلى الفور تذكرت المهمة التي كلفها بها أبوها، ثم فكرت.. ألا يمكن أن يستطيع أبوها حماية حبيبها؟ لا... لشدة ما تناقض نفسها، وتتخبط بين أفكارها! وأبوها قاسٍ لا يرحم، ولن يعرض نفسه لأدنى شبهة من جرّاء نزوات ابنته.. قالت هيلدا:

- ومتى تبدأ المعركة؟

- لا أعرف، لكنني علمت أن العربان والفلاحين بالبحيرة قد

بدّدوا شمل كتيبة فرنسية، وهذا يعني الأمل.. زعموا أن الفرنسيين لا يهزمون، لكننا نسمع الآن عكس ذلك، وأعتقد أن المعركة على الأبواب، ولسنا ندري هل سيقدمون من ناحية الشرق أم من الغرب؟

سرت الرجفة في جسدها، وأدركت أن مثل تلك الحيرة قد تبدّد نصف طاقة الجنود والقادة. ولم تستطع أن تتصوّر إبراهيم وهو يتجه ناحية الشرق، ثم تفاجئه ضربات من الخلف فيختر صريعاً.. وتصوّرت أباهما، وهو يقهقه في شماته، ويربت على كتفها في شكرٍ وامتنان، ونظراته القاسية تلمع ببريق الشيطان، فلم تتمالك نفسها أن أجهشت باكية، مما أذهل إبراهيم، ثم أخذت تقول:

- أنا على يقين أنهم قادمون إلى هنا.. تأكد من ذلك يا إبراهيم، يجب أن تخبر الجند والقادة بذلك.

- أهذا كل ما يزعجك؟ على أية حال هذه مسألة بسيطة، وستوافينا الرسل بالأخبار من كل مكان. إن ما يفعله الفرنسيون في الإسكندرية وما حولها تأتينا أنبأؤه أولاً بأول، ولا أظن أن هناك ما يزعجك لهذه الدرجة.

شعرت بارتياح عميق، وانجاب عن روحها أثقال كبيرة. لقد انتصرت للمعاني الكبيرة التي تؤمن بها عن فطرة، واستطاعت أن تخرس صوت الشيطان الذي حاول أبوها أن يلبس به روحها وجسدها، ولسوف تعود إلى أبيها، وستخبره أنها قد أدّت مهمتها على أتم وجه، وسيبش لها بشاشة من نوع غريب تكرهه ولا

تتمنى أن تراه، وسيهرول أبوها إلى سادته الجدد، ويخبرهم أن كل شيء على ما يرام، وأن الأمور تسير سيرها الحسن، وبالطبع سيتلقى الأوامر الجديدة، ويقضي ليله ونهاره كادحاً من أجل تنفيذها. . وتمت:

إبراهيم. . إنني أدعوك بالنصر.

- وإذا انتصرنا يا هيلدا فسنحيا كأسعد زوجين في الوجود إن لم يكن لدى أبيك مانع، أعرف أن لديه حساسية غريبة بالنسبة لاختلاف العقيدة بيننا، وحساسيته قد تبلغ درجة التعصب الشديد. . معذرة، فأنا لا أتصور أن أي شيء يمكنه أن يفرق بين قلوبنا.

وتذكرت ما انطوت عليه تصرفات أبيها من وحشية، فقالت:

- شيء واحد. . الكراهية.

قال في إنزعاج:

- أنت تكرهين؟! لا أظن مطلقاً أنك تعرفين هذه الصفة المقيمة.

- بل أعرفها جيداً. . لقد رأيتها كثيراً على وجوه بعض الناس،

وفي تصرفاتهم.

- وأنا وأنت؟

فاخذت تقبله في نهم وهي تقول:

- نحن خلق آخر. . إننا نعيش في عالم رائع جميل خالص

لنا. . وحبنا أقوى من أي شيء في الوجود.

- ولهذا فانا أثق في المستقبل وأؤمن بالله. . لشدة ما أشعر

بأنني أغير وأتغير كل يوم. . الإنسان في المعركة يشعر أنه قريب من الله. . دعيني أعترف لك، لقد ارتكبت كثيراً من الحماقات، كآلاف غيري من عساكر الممالك وضباطهم، كنت أعتقد أنه من الضروري أن أحترق الفلاحين والعامّة، بدا لي الأمر كأنه سلوك إجتماعي لا مناص منه، إتخذ سمة العرف السائد، لكن هذه الأيام كشفت لي الكثير. . كلنا بشر، والناس هنا طيبون، ويقفون إلى جوارنا في المعركة، في وقت الشدة وحدهم ينسون الإساءات. . لا أدري لماذا أتطرق لمثل تلك الأحاديث، لكنني أريد أن أتكلم. . إن الثواني والدقائق التي تمر من العمر لا تعود، والحرب عمياء يا هيلدا.

قالت في إنفعال:

- لكنك تؤمن بالله وبالمستقبل.

- أجل.

- وكل شيء له أجل كما تقول.

- أجل. . إلا حبنا، فهو خالد خلود الشمس.

- ولسوف ننعم بحياتنا المقبلة.

- أجل. . .

وعادت من نفس الطريق، كل شيء حولها يوحى بالحركة والحياة، الناس يستيقظون، وهدير الحياة أقوى من كل غباء الإنسان وجشعه، والخديعة رذيلة ليس لها ما يبررها، والطمع وحشية. . ولدى الباب كان أبوها يقف قلقاً متلهفاً، وصاح في صبر نافذ:

- هيه . . هل وجدت إبراهيم؟
قالت في اقتضاب، وهي لا ترفع رأسها:
- أجل.

- وهل استطعت إقناعه بوجهة نظرك؟
- بالطبع، إبراهيم يثق في ثقة عمياء.
وبدت على وجهه فرحة الطفل الخبيث، ثم تمتم:
- لقد قبض المماليك على الفرنسيين هنا، وعندما يدخل
نابليون القاهرة منتصراً فسأقدمك له شخصياً، وستالين صداقة
القنصل وأشراف الضباط العظام، وستعلمين عندئذ أن أباك كان
على حق يا هيلدا يا معبودتي . .
وانحنى على وجنتيها يقبلهما في شغف . . كانت هيلدا تشعر
بقبلاته وكأنها أشواك تدمي الوجنتين، فأغمضت عينيها مستسلمة
وهي تتمنى من صميم قلبها أن تنتهي هذه التمثيلية الرخيصة.
وعندما توارت داخل حجرتها، تنهّدت في ارتياح، وشعرت برغبة
جارفة في البكاء، لكن صوتاً جاءها من الخلف:
- بارك الله فيك يا هيلدا . . لكم أحبكم . . كنت واثقاً أنك أكبر
من سخافات الحب الطائش وتهويماته الفارغة.
قالت في امتعاض:
- لندع هذا الأمر فلا نتكلم فيه مرة ثانية يا أبي.
- ليكن . . أمرك يا حبيبتى . . هذا عين الصواب . . لكن
كيف استقبلك إبراهيم؟ وماذا وجدت هناك؟ . .
زفرت بملل:

٥
جلس الحاج مصطفى البشتيلي وحيداً إلا من أساء وعذابه . .
لقد وقعت الواقعة، ليس لوقعتها كاذبة . . وانهارت مقاومة
المماليك والأتراك في الإسكندرية وضواحيها، وإن بقيت مقاومة
أهاليها مستمرة في موجات قد تضعف وقد تقوى ولكنها لا
تموت، ورسائل حاكمها «السيد محمد كريم» تأتي من يومٍ لآخر
حاملة من الأنباء كل غريب وجديد. ومن أغرب رسائله ذلك
المنشور المطبوع الذي أمر «السر عسكر الكبير أمير الجيوش
الفرنساوية بونابرت» بتوزيعه على عامة الشعب.
وتحسّس الحاج مصطفى جيبه، وأخذ يبحث عن المنشور،
ثم أخرجه ونشره وشرع يقرأ صامتاً: « . . بسم الله الرحمن
الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له، ولا شريك له في ملكه . . »

وابتسم الحاج في أسى، ثم تابع القراءة بصوت خفيض: «... يا أيها المصريون، قد قيل لكم أنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح لا تصدقوه، وقولوا للمفترين أنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين...»

وهزّ الحاج رأسه، إنها اللعبة المكشوفة التي يلعبها الغزاة الجدد. يا له من رجل طيّب ذلك المدعونا بليون!.. لقد تأثر قلبه الرقيق لما يعانيه المصريون من ظلم وهوان، فتكبد المشاق، وساق جنوده وأسطوله، وحمل سلاحه ليضحي من أجل البؤساء... نظر إلى العالم كله، فلم يجد أحق بالرعاية والعطف منا... نفس القصة القديمة، التاريخ يُعيد نفسه، كل طامع يحاول أن يخفي أطماعه وراء معسول الكلام، والادعاءات الزائفة... لعل البشرية، في فجر حياتها، كانت أكثر صراحة منها الآن... كانوا يشنون الحروب الضارية، لكنهم - على الأقل - كانوا لا يكذبون. وكلما تقدمت الحضارة والعلم، ازداد الطغاة تفنناً في إخفاء مراميهم الخبيثة. والغريب أنهم قبل غيرهم يعرفون تمام المعرفة مدى ما تنطوي عليه دعاويهم من بهتان!..

وعاد يقرأ المنشور من جديد: «... أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد، قولوا لأمتكم أن الفرنسيين هم أيضاً مسلمون مخلصون...» أهكذا دفعة واحدة؟ أيصل الخداع لهذه الدرجة الصارخة من الصفاقة؟!

واستمر في القراءة: «... طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير، فيصلح حالهم، وتعلو مراتبهم». ها هو «المسلم نابليون» يلوح لمن يوالون بالفائدة العظمى، ويمنيهم بأعلى المراتب... يفتح مدرسة جديدة للخيانة والغدر، ويبث فيها مبادئه المدمرة!..

ويستمر المنشور: «... طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد الفريقين المتحاربين، فإذا عرفونا بالأكثر، تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا، فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص، ولا يبقى منهم أثر...»

هكذا يكشف الذئب عن نواياه!.. إنه يقسم البلد إلى طوائف، سيحارب طائفة ويهادن أخرى. أما من يعرف واجبه الوطني، وينفذ ما يمليه عليه ضميره ودينه، فلسوف تحلّ به لعنة الرجل المؤمن، الموحد بالله، المسلم العريق نابليون بونابرت!..

وتبلغ لحظة الكشف والوضوح مداها، حينما يقرأ الحاج مصطفى المادة الثانية التي تقول: «كل قرية تقوم على العسكر الفرنسي تُحرق بالنار... أجل، هكذا يكون الدين، وهكذا تكون المدنية، وهكذا يكون تخليص المظلومين والتعساء...»

وطوى الحاج مصطفى البشتيلي الورقة، ثم أعادها إلى جيبه، لقد قرأها مراراً وتكراراً حتى كاد يحفظها عن ظهر قلب، برغم ركاكة أسلوبها، وكذب مراميها. والحاج مصطفى يعلم علم

اليقين أنه ليس في مصر كلها مَنْ يصدّق الفرنسيين، بما فيهم المتعلم والجاهل، والمشايخ أو التجار أو الفلاحين وأصحاب الحرف الصغيرة... بل إن الشيخ السادات، عندما قرأ المنشور، قال: لعل المعركة القادمة من أخبث المعارك التي سنخوضها. لم يكن الصليبيون في حملاتهم السبع، التي استمرت قرنين أو أكثر من الزمان، لم يكونوا يلجأون إلى مثل تلك الحيل، والبلاغات الكاذبة. ولو فرضنا أن نابليون مسلم وموحد بالله، فهل يعني ذلك أن نفتح له أبواب مدينتنا، ونسلمه قياد أمرنا؟! إنها ألعاب مكشوفة لا تخفى على أعين الخلق... إن تهديده بحرق القرى التي تبدر منها أدنى مقاومة له، دلالة عميقة... مثل هذا الرجل لا تعرف الرحمة ولا العواطف الإنسانية إلى قلبه سبيلاً. وعلى أية حال، فلن تكون هذه الحرب آخر ولا أول معركة نخوضها. إنه ابتلاء من الله، ولعل ذلك يكون فاتحة خير. لكم طال نومنا، حتى خيل إلينا أن اليقظة في هذه الأيام معجزة عسيرة التحقيق. وصدق الله العظيم إذ يقول: «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين».

والحاج مصطفى يذكر أن الشيخ السادات شن حملة عنيفة على أولئك الذين يهجرون الديار المصرية، ويفرون إلى بر الشام أو الصعيد أو أقاليم مصر النائية، واعتبر ذلك جبناً يتنافى مع المروءة والشرف، وإن الواجب في تلك الأيام أن يقف كل إنسان على ثغرة من ثغرات الوطن، يدافع فيها عن حريته وكرامته حتى

الموت. ورأى الشيخ السادات أن يتنازل الأغنياء عن جزء من ثرواتهم ومقتنياتهم للمجاهدين في هذه المعركة المقدسة، والتأخر عن تأدية الواجب لا يمكن أن يسمى سوى جريمة شنعاء في حق الدين والوطن...
وصاح الحاج مصطفى بولده الحسين، فأتى مسرعاً، فقال الحاج:

- ما تنوي أن تفعل؟

- فيم يا أبي؟

- لم تعد صغيراً يا ولدي.

- أعلم ذلك.

- والمعركة على الأبواب... أتفهمني؟ إن أمك رقيقة القلب لدرجة مخزية. هزّ الحسين رأسه، واحتقن وجهه الغض، وتمتم:

- «أدرك ما ترمي إليه، وأنا طوع أمرك في أي ميدان تضعني فيه. ليس هناك أعظم من أن يضحي الإنسان في سبيل أمته ودينه... كثيراً يا أبي ما كنت أقرأ التاريخ، وأسمع الوعظ، وأعيش بخيالي مع الأيام الكبيرة في تاريخنا، ولا أكتمك الأمر حينما أؤكد لك أنني كنت أحلم بمثل تلك الأيام، برغم ما سيدور فيها من قسوة وتضحيات».

ابتسم الحاج في ارتياح، واستعاذ بالله وبسمل ثم قرأ: «كُتِبَ عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم

وانتم لا تعلمون».

وسادت فترة صمت، استطرد الحاج بعدها قائلاً:

- ما أعظم أن يعيش البشر في هدوء وسلام، يسعون من أجل مصالحهم والبرّ بأبنائهم ومجتمعهم، لكن وجود الشرّ في هذه الحياة هو الذي يثير قوى الخير ضده.. تلك سنّة الحياة.. ليس الفرنسيون هم الشقاء وحدهم، إن هذا الشقاء الجديد يسبقه تاريخ طويل من العذاب والأسى على أيدي الأتراك والمماليك، لكننا لطول الأمد أوشكنا أن نهمل شقاءنا القديم ونسائه، وإن كنا نعيشه معاشة أليمة. يبدو لنا أن المعركة الحالية ستصوغ حياتنا صياغة جديدة على أية حال..

وتنهّد، ثم عاد يقول:

- ليس هذا وقت التحليل والشرح، إنه وقت العمل.. ولتعلم أنه منذ الغد سنبدأ عملنا الحقيقي.

وانحنى الحسين على يد والده يقبلها، بينما تناهت إلى أسماعهما قرعات على الباب الخارجي، وصوت مألوف لديهما يهتف: «يا أهل الله..»، وبعد أن فتح الباب دخل الفقيه الكفيف «علي الجنجيهي»، ولم يكد يمر وقت قصير، حتى تتابع الأصدقاء: الشيخ إبراهيم سلامة، وصانع البارود أحمد المدبولي، والتاجر الصديق الحاج غمري، وغيرهم...

وكان تقدّم الفرنسيين نحو القاهرة هو حديث الساعة. في كثير من الأحيان يبدو حديث الحرب والسياسة مملاً ثقيلاً، لكنه لا

يكون كذلك عندما يجد الناس أنفسهم غارقين في بحر من الهياج والتوقع والمصير المجهول، لأنهم يرتبطون بالأحداث ارتباطاً مباشراً. لقد توارت المشاكل اليومية خلف واجهة ضخمة من الأحداث الجديدة، لم يعد الناس يفكرون كثيراً في غلاء الأسعار، أو الحوادث الفردية، أو الصراعات العائلية، ولم يعودوا يتذكرون بالتفصيل ما فعلته كوكبة من جنود المماليك في حيّ من أحياء القاهرة، وهم ينهبون ويرتعون حيث لا يوجد من يستطيع أن يوقفهم عند حدّهم.. الخلافات المذهبية الناشئة، التي كثيراً ما تدور بين حنابلة وشافعية، لم تحتلّ المركز الهام.. إن الحرب قادمة إليهم، وسيكونون وقودها لا محالة.. ومن ثمّ كان حديث الحاج البشتيلي وأصحابه وجيرانه، الذين تجمّعوا في حجرة الضيوف الواسعة، حديثاً متشعب الأطراف عن الحرب والمستقبل والخطط الحربية، واندحار المماليك والعربان والمصريين عند شيراخيت أمام الفرنسيين..

الشيخ إبراهيم سلامه عالم متبحر، يبدو يقظاً مُلمّاً بما كان يجري من أحداث قديمة أيام علي بك الكبير وأبو الذهب وغيرهما، وعلى الرغم من أنه قد تخطى السبعين، إلا أنه يحظى بذاكرة واعية.. وعندما دار الحديث عن منشور نابليون القاهرة، تكلم الشيخ العجوز قائلاً:

- لا أصدّق مطلقاً ما يزعمه نابليون من أنه تعهّد بحماية حق تركيا والسلطان في حكم مصر، وأنه إنما جاء لتأديب المماليك والقضاء عليهم.. إنه لأمر مضحك أن يتطوّع رجل من آخر الدنيا

للدفاع عن حرمة الدولة العثمانية، والحفاظ على حق السلطان،
دون أن يتدبه السلطان لذلك..

وأخذ الشيخ علي الجنجيهي يذبُّ ذبابة تأبى إلا أن تلتصق
بأنفه، ويقول:

- السياسة بحر عميق واسع غامض.. لا يدركها إلا أولي
العزم من الرجال.

قال الحاج مصطفى:

- هوّن عليك يا جنجيهي، المسألة - كما يقول الشيخ
السادات - في غاية البساطة، طبعاً أنتم تعرفون شيئاً عن
الإسكندر ذي القرنين أمثاله، ف نابوليون واحد منهم، رجل يحلم
بالمجد والسيطرة السياسية والمالية، إنها عملية نهب أموال
الشعوب لا أكثر، ولقد سمعت من أحد الأجانب - غير
الفرنسيين - بالأمس، أن المعركة الحامية بين فرنسا وإنجلترا في
أوروبا اتخذ لها أرضاً جديدة، ونابوليون يريد أن يحتل مصر
ليتحكم في مصير العالم التجاري والسياسي، وليجعل
الإنجليز ومستعمراتهم في الهند تحت رحمته.. المعركة تتسع
بين نابليون والإنجليز، وهذا تفسير يقبله العقل، ولهذا فأنا أميل
إلى تصديق الشائعة التي تقول إن الأسطول الإنجليزي يطارد
الأسطول الفرنسي ويبحث عنه في عرض البحر الأبيض.

هز علي الجنجيهي رأسه وتمتم:

- «يا خبر أسود.. لؤم خواجات صحيح.. الحكاية كبيرة
جداً.. رحمتك يا رب.. إن مصيبتنا ثقيلة!..»

دق قلب تاجر البارود المدبولي في رعبٍ وقال:
- يبدولي يا بشتيلي أن زوجتك كانت على حق حينما اقترحت
عليك الهجرة!..

والتفت البشتيلي إلى الشيخ إبراهيم سلامه قائلاً له:
- ردّ عليه يا مولانا.

قال الشيخ العجوز:

- القرآن صريح في هذه المسألة، لكن الناس في هذه الأيام لا
يهتمون بكلمات الله، ولا يعملون على تطبيقها. ألم تسمع قول
الله: «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم
الأدبار، ومن يؤلّهم يومئذٍ ذُبره إلا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئةٍ
فقد بَاءَ بغضبٍ من الله...» هذا هو الحكم الشرعي.

قال الجنجيهي:

- أجل.. لكن الله يقول في موضعٍ آخر: «ألم تكن أرضُ الله
واسعة فتهاجروا إليها؟».

صاح الشيخ إبراهيم سلامه في غضب:

- هذا تحريف للكلم عن مواضعه، وتلاعب غريب بآيات
الله!.. أنت يا جنجيهي لا همّ لك إلا تجويد القرآن وقراءته
بصوتٍ رخيم، أما التفسير واستنباط الأحكام فهذا أمر لا
يخصّك، إن فتياك عن جهل تورّدك جهنم...

قال الجنجيهي محاولاً أن يبذد جوّ التوتر:

- ألا ترى يا مولانا أن جهنم أرحم من ذلك الكرب الذي
ينتظرنا؟..

- كل ما تراه من مظاهر القوة والبطش اليوم، شيء تافه أمام قدرة الله وجبروته... ما أكثر ما رأينا وسمعنا وقرأنا عن سلاطين زالوا، وملوك اندثروا، ودول انهارت... «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، ويبقى وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام».

وأدرك الجميع أن المدبولي على غير العهد به، ضائق النفس، ضجر الحديث، فهتف البشتيلي به قائلاً: ماذا جرى؟ قال أحمد المدبولي:

- رجال إبراهيم بك استولوا على كل ما عندي من بارود دون أن يدفعوا شيئاً... إن السلب والنهب لا يفارقانهم حتى في أوقات الحرج!...

أسرع البشتيلي قائلاً:

- وماذا في ذلك؟

- لكنك أقمت الدنيا وأقعدتها عندما نهبوا متاجرك!.

- الوضع يختلف يا مدبولي.

- وماذا أطعم أولادي يا بشتيلي في هذه الأيام السوداء؟

- الحرب تعني التضحية... نَعَمْ ما فعلوا.

- التضحية يا بشتيلي لا تكون سلباً وقهراً، والذي يضحي

ويترك أولاده خاوية بطونهم إنسان مجنون!...

إبتسم البشتيلي وقال:

- لا تتكلم عن خواء البطون، فأنا أعرف الكثر الذي ترقد

فوقه.

- بصراحة يا بشتيلي...

قاطعه قائلاً:

- تكلم... خير لنا أن نمشي حفاة عُراة جوعاً ونحن أحرار، من أن نسكن القصور ونرفل في الحرير والرغد، ونحن عبيد للفرنسيين.

قال المدبولي:

- الكارثة هو أنني لا أؤمن بجدوى المقاومة بعد كل الذي سمعته، يجب أن تفتحوا عيونكم جيداً، إن مدافع الأعداء لا يقف في طريقها شيء، وخبرتهم الحربية فوق التصور، واستعداداتهم لا مثيل لها... دعوا الأوهام والحماس جانباً، وفكروا بعقل. أعرف أن كلامي قد يضايقكم، ولعله يوصمني بالجن والخيانة، ليكن... فأنا رجل أحكم عقلي، وقد علمتني التجارة أشياء كثيرة.

كان يتوقع أن تثور عاصفة من النقاش الحاد على أثر آرائه الخطرة المؤسفة، ويبدو أن الشيخ إبراهيم سلامه كان على وشك أن ينفجر فيه غاضباً، لكن البشتيلي قال في هدوء غير متوقع:

- لك أن تفكر كيفما شئت، وتصل إلى ما يقنعك من نتائج، لكن الشيء الذي لا جدال فيه، هو أن أمة يعتدي عليها المعتدون لا بد أن تهب للدفاع عن كرامتها. لم نقرأ في التاريخ أن أمة عريقة استسلمت هكذا دون مقاومة، والفرنسيون بشر مثلنا، والبشر قد يهزمون وقد ينتصرون، ولم تنتصر أمة على طول الخط.

وبدا أن الشيخ إبراهيم قد عاوده الهدوء فقال:

- دائماً تنسى يا مدبولي حكم الله في مثل هذه الأمور
البديهية.

ردّ عليه المدبولي قائلاً:

- أتتهمني بالغباء يا مولانا؟!!

فأجابه الشيخ إبراهيم بقوله:

- لا يصحّ أن تفكر في كل شيء بطريقة التجارة، في التجارة
الربح بالطبع هو المفضل على الخسارة، لكن الجهاد شيء آخر
قد يخسر الإنسان ماله وحياته وأولاده، لكنه هو الظافر، كيف؟؟
هكذا قال الله في كتابه العزيز: «ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل
الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يُرزقون»... إلى آخره من آيات
الجهاد الكثيرة.

وشحب وجه المدبولي، وعاد يقول:

- التضحية مسألة إختيارية.

أجابه الشيخ العجوز:

- والجهاد واجب يا مدبولي.

وازداد شحوب وجه المدبولي عندما قال البشتيلي:

- أنا تاجر مثلك، وأعرف فيما تفكر.

- ماذا؟؟

- لقد كنت تظن أن الحرب سوف تنمّي تجارتك، وتزيد من
أرباحك، وخاصة أن بضاعتك هي البارود، لكن يجب أن تعلم
أن هناك أوقاتاً لا يصحّ أن يفكر فيها التاجر بعقلية المكسب
والخسارة.

- ولمّ لا تفعل أنت ذلك؟

- سترى..

وسادت فترة صمت، تلفت البشتيلي بعدها عن يمينه، ثم
قال:

- هيا يا جنجيهي، فإني ظامئ لكلمات الله الحلوة.

قال الجنجيهي:

- والآن سيعرف مولانا الشيخ سلامه، أنني لست جاهلاً
بدرجة كبيرة، لأنني أعرف على الأقل أن سورة «الأنفال» مليئة
بآيات الجهاد، ولسوف أقرأ لكم منها قسطاً كبيراً...

٦

توتر الجو في منزل الحاج مصطفى بصورة ملفتة للنظر، لقد
كانت زوجته أطوع له من بنانه، قلّ ما تسفه له رأياً، أو تعترض
على أمر من الأمور، إن زوجها هو سيدها، وهي تؤمن أنه يعرف
أكثر مما تعرف، وخبرته في الحياة أثرى من خبرتها، ثم إنه أولاً
وأخيراً رجل، وهل تستطيع أن تنسى وضعها البديهي المعروف
كأنثى في منزلة التابع المطيع؟ لكنها خرجت عن هذا الوضع
المألوف فجأة، وأقامت الدنيا وأقعدتها، وخاصة عندما أعادت
النظر في تصرفات زوجها.. لقد رفض رأيها في الهجرة قبل أن
تقترب ساعات الخطر، لم تستطع أن تلحّ عليه كثيراً، لأنها تعلم
الكثير عن صلابة تشبهه، وعدم تنازله بسهولة عن رأي ارتآه،
لكنها فوجئت به يجند ابنه الوحيد، ويدسّه ضمن القوات

المحاربة، بل في الصفوف الأولى تحت إمرة «إبراهيم بك» الذي عسكر بجيشه عند «بولاق» معنى ذلك أن فرصة النجاة لولدها أصبحت نادرة الحدوث. ولم يكتف بذلك، بل دس بنفسه هو الآخر ضمن قوات البحرية على إحدى السفن الراسية في الميناء. . . والمصيبة أنه لم يرحم ابنته زينب، فاختطف خطيبها هو الآخر، ودفعه إلى الميدان مع ولده الحسين. . . ومنذ يومين فقط، لجأ إلى عمل جنوني، فقد اشترى باروداً وسلاحاً بجزء كبير من ماله ووزعه على القوات الشعبية التي تخوض المعركة جنباً إلى جنب مع المماليك، وتخلص من كل المخزون لديه من البضائع بأبخس الأثمان، كي يساهم في تقديم القوات للمحاربين.

وعندما بدت الدهشة على وجهه وزوجه صرخ فيها محتدًا: «أيتها الجاهلة، لقد استطاع عثمان بن عفان خليفة رسول الله ﷺ، أن يجهز جيشاً كاملاً من ماله في صدر الإسلام، وما عند الله خير وأبقى، والدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة. . . لقد شغلتك الدنيا عن كل معنى نبيل، فلم تعودى تفكرين في شيء سوى بأولادك وبالمال والخنوع للحياة الدنيا، حتى اكتنز بدلك، وأصبحت كخنزير كبير! . . يا للمهزلة! . . منذ متى تعترضين مشيئتي؟ . . لا تنسي يا امرأة أنني هنا الرجل، رب البيت. . أتفهمين؟ . .»

ولم تكن زوجه - في مثل تلك الأيام - بقادرة على أن تهضم كلماته، ولم يكن في مقدورها أن تقتنع، مهما كان لهذه

الكلمات من قوة المنطق والإقناع. لقد كانت الزوجة تفكر في أولادها وزوجها ومستقبل الأسرة تفكيراً عاطفياً، فضلاً عن أن طبيعتها الخاصة - برغم عشرتها الطويلة لزوجها - لا تتعلق كثيراً بهذه المثاليات الكبرى، كالتضحية والفداء والجهاد وما إلى ذلك. . . لعلها كانت أكبر من تفكيرها واستعدادها، وخاصة أن مثالياتها لا تخرج عن العطف على المساكين، والبر بالأقرباء، والحدب على مآسي الناس، كل ذلك في حدود معقولة حيث لا إسراف ولا إفراط. . . أما أن يبلغ بها ذلك مبلغ التضحية بالولد والزوج وكل ما يملك زوجها، ومستقبل ابنتها، فهذا ما لا تحتمله، ولا يمكنها أن تقتنع به.

ولم تقف الزوجة عند حد الاعتراض الأجوف، أو البكاء الصاخب، بل قررت أن تبطل تصرفات زوجها على قدر ما تستطيع، فأخفت عنه كثيراً من المجوهرات والمال، وأخذت تفكر في طريقة لتحمي بها ولدها ثم خطيب ابنتها، وليحدث بعد ذلك ما يحدث. أما زوجها فهي عاجزة تمام العجز أن تفعل أي شيء يحد من إندفاعه، وكانت لها أفكارها الغريبة في الرد على زوجها، تلك الأفكار التي كانت تحنقه، وتشعره بأن زوجه غارقة في الجهل والحماسة.

لقد كانت تقول له: «إن صداقتك للشيخ السادات، هي التي غيرتك هذا التغير الغريب الذي يرضيني، والشيخ إبراهيم سلامه هو الآخر، لا يفتأ يملأ رأسك بالأحكام الخطرة وكلاهما لا يحمل سيفاً، ولا يخوض معركة. . . الشيخ إبراهيم سلامه عجوز

بكلمة، لم يبدُ عليها أنها تماليء أمها، أو تميل إلى رأي أبيها، سلوكها ينبي عن السلبية المطلقة، لكن لها عالمها الخاص الذي تعيش فيه والذي لا يقتحمه أحد ليعرف أسرارها، وذكراياتها ضئيلة، فهي منذ زمن بعيد لم يعد يصرح لها أبوها أو أمها بمغادرة المنزل، شأن بنات الأسر الكريمة، ولا تختلط بأحد من الزائرين سوى النساء والفتيات من أمثالها. وعندما تمت خطبتها لمصطفى الفرماوي، تناوبتها مشاعر جديدة، ثرية بالإنفعالات والأشواق والأحلام، على الرغم من أنها لم تنفرد به مرة واحدة، أو تحظى بالحديث معه، فأمر زواجها كان شيئاً يخص أباهما بالدرجة الأولى، ولم تعرف عن زوجها، في بداية الأمر، إلا بعض الأخبار الغامضة، التي تسمعها على استحياء، حينما تحدثها الخادومات، لكنها استطاعت أن تدبر مع إحداهن طريقة لرؤيته، أحاطتها بكل أنواع الحذر والكتمان، وهكذا أمكنها أن تراه يسير في الشارع من خلف النافذة المغلقة، كان قلبها يدق في رعب، ولم تستطع أن تبقى هكذا سوى لحظات قليلة، مخافة أن يفاجئها أحد متلبسة بتلك الجريمة البشعة. . . وبعدها كانت تعلم من الخدم أنه قد أتى لزيارة أبيها، فتحاول أن تسترق السمع لعلها تروي شغفها وهي تستمع إلى نبرات صوته. . . ومن آنٍ لآخر تهوّل إلى النافذة المعهودة لتراه من بعيد وهو ينطلق على شاطئ النيل إلى بيته. . .

لقد استطاع خيال مصطفى أن يؤنس وحشتها، ويروي أحلامها المتعطشة، وأن يسدّ فراغاً مخيفاً كان يخيم على

إحدى رجله في القبر لا يخاف شيئاً، والشيخ السادات، حوله العديدون من الأتباع، وله عند الكبراء والعظماء كلمة مسموعة. . . لقد خلق ليأمر وينهى، أما أنت وأولادك فوقود للنار. . . من أنت حتى تشبه نفسك بعثمان بن عفان؟؟ مهما فعلت فلن تكون نبياً ولا خليفة من الخلفاء. . . لم يعد في الدنيا خير، وأنت لن تستطيع أن تغيّر المقدور. . . وهل لنا في الدنيا غير الحسين وزينب؟. . . تريد أن تدفع الولد إلى جهنم الحمراء، وتحرم البنت من مستقبلها، وتبدّد مالك، ثم تتهمني بالجهل وقلة الدين! . . .» وكلما حاول أن يفنّد دعاويها سدّت أذنيها، لم تكن لتريد أن تقتنع بغير ما استقرّ في ذهنها، الحسين وزينب والحاج هم الحياة، وقلبها يحدثها بأن المستقبل غير مأمون، والعمر واحد ولا يمكن أن يُستعاض عنه إذا قامر به الإنسان. . . وهناك عشرات السبل لأن يُظهر الإنسان إستعداده للبذل والعطف والوطنية، هذه السبل أسلم عاقبة من الحرب المجنونة التي يشنها الكفار الفجرة كما تردّد دائماً. . .



كانت زينب إبنة الحاج مصطفى فتاة وادعة، قليلة الكلام، ذات وجه مثلث تزينه عينان واسعتان سوداوان، وفم دقيق، ولسمرة وجهها جاذبية حلوة، وميلها إلى الصمت يسبغ عليها رونقاً أخاذاً، ويزيد من شدة التعلق بها، والتفكير فيها. وكانت زينب ترمق الأحداث دون أن تُبدي رأياً، أو تعلق

روحها القلقة، وأصبح لاسمه رنين حلو، ولذكراه متعة فريدة لا يستشعرها إلا قلبها الخافق. وكلما اقترب موعد الزفاف سرّت في جسدها رعشة لذيدة المذاق، وخالطت يقظتها أحلام جميلة في غموضها وتموّجاتها، وهكذا كانت تأوي إلى فراشها وتظل لفترة طويلة مفتوحة العينين، والظلام يحيط بها، لكم تمنّت أن تبقى هكذا أبد الدهر... وتحديثها نفسها أن «مصطفى» سيأتي ويترك باب نافذتها في رقة وهدوء، ولا شك أنها ستهرع إلى النافذة وتعالجها برفق، ثم تفاجأ بوجهه المشرق، فتشبهق مذعورة، أو تبدو وكأنها مذعورة، في الوقت الذي تمنى فيه أن تظل وقفها إلى جواره طول العمر... وتظل تسمع خطوات السائرين في الطريق، تنتظر أن يأتي فتاها الحبيب لينقر على النافذة... لكنه لا يأتي... وتظل تنتظر وتسمع حتى يسلبها النوم إرادتها، فتغرق في سبات عميق، ولا تكون أحلام النوم إلا امتداداً لأحلام اليقظة... وأدركت أن دخول طيف مصطفى إلى حياتها قد أعطاها مذاقاً من نوع شهيق، فلم يكن غريباً أن تقرأ «الفاخرة» كل مساء لسيدنا الحسين وللسيدة زينب، آملة أن يساعدها أولياء الله الصالحين في الإسراع بموعد الزواج المرتقب...

لكن نفي الحرب ينطلق، وطبول المعركة تدق في أنحاء القاهرة، والأنباء تترى، وعشرات بل مئات الحكايات تروى عن الغزاة، وعن المعارك المقبلة، وأبوها يفرق في دوامة من الأعمال التي تتعلق بالحرب، وأخوها يترك البيت ولا يأتي إليه إلا لماماً، وأما لا تفتأ تثير المناوشات والمناقشات الحادة مع أبيها،

وإذا لم يكن أبوها موجوداً فأماها لا تكف عن الصخب والإحتداء مع أي إنسان في البيت، دون أن تنتظر جواباً من أحد... ومصطفى هو الآخر، ذهب إلى حيث ذهب أخوها، لكنه بقي معها... في خيالها... حتى لحظات الإنتظار لدى النافذة في المساء ظلت تشغل فكرها، لأنها لا تستبعد أن يتسلل مصطفى الفرماوي من المعسكر، ويترك النافذة في هدوء، ثم يشرق عليها بوجهه السمر الحلو، ولعله يجسر أن يلمس يديها... إنها تستشعر القشعريرة تسري في بدنها، لمجرد الفكرة... ثم تصدمها الحقيقة المرة في بعض الأحيان، وهي أن مصطفى يتخذ مكانه في الطليعة، وأنه قد يعود وقد لا يعود!... وشعرت بحرق بالغ مكتوم، وهي تتصور أنه قد لا يعود، واجتاحها موجة عارمة من السخط الذي لا يجد له منفذاً... ما هذا الذي يحدث؟؟ ولم كل ذلك؟؟ يبدو أن أمها كانت على صواب، حينما اقترحت الهجرة بعيداً عن القاهرة وكوارثها...



عاد الحاج في المساء مرهقاً مكدوداً يرافقه الحسين، وتنهّد وهو يلقي بجسده فوق حشية طرية... وبعد أن تناول عشاءه، ابتسم دون أن يفارقه قلقه، وقال:

- لتهديني بالاً يا زوجتي، فالله أرحم من أن يفجعنا في أماننا... لكن الأمر بسيط كما سبق وأوضح لك... أيمن أن نستسلم هكذا ونترككم سبايا لهؤلاء الكفرة، أو ندعكم تهيمون على وجوهكم في الشوارع يلاحقكم الفرنسيون من كل جانب،

ويعتدون على أعراضكم؟؟ الموت أرحم من ذلك، والموت والحياة أمرهما بيد الله سبحانه.. أتستطيعين أن تفعلي شيئاً إذا فاجأتك السكته القلبية وودّعت الحياة؟؟ قال تعالى: «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة».

أومات برأسها غاضبة:

- الأمر لله.. ما شاء يفعل.

ثم التفت إلى زينب يضاحكها:

- وبعد المعركة يا زينب، سأقيم لك عرساً لم ترَ القاهرة له

مثيلاً.. إن مصطفى شاب فاضل، وأبوه من خيرة الرجال.

كان قلبها يدق في عنف، وتلون وجهها بحمرة الخجل، وسادها إرتباك ظاهر، فطأطأت رأسها، وكأنها تهتف بالأرض من تحتها أن تنشق وتبلعها.

ولم يغب عن فطنته ما يحدث، فحاول أن يدير دفة الحديث فقال:

- وأنت يا حسين، ما هي أخبارك؟

- لا بأس يا أبي.. لو كانت استعداداتنا المادية على نفس

مستوى استعداداتنا المعنوية، لآمنت بالنصر الأكيد.. تصور

الحصون مهدمة قديمة لم تتناولها يد الإصلاح، والمدافع يعلوها

الصدأ، على الرغم من قلة عددها، والتنظيمات والتخطيطات

العسكرية يعوزها الكثير من التنسيق والخبرة.. إن جريمة

المماليك والأتراك لا تغتفر، والسلطان كان الأحرى به أن يسارع

بإرسال نجدة للبلاد التي يحكمها منذ مئات السنين، وتدرّ عليه

خيراتها.. أترأه صدق مزاعم نابليون حينما قال إنه يؤمن بحق السلطان في مصر، وإنه إنما جاء لطرد المماليك وتأديبهم وتخليص مصر من قبضتهم؟..

قال الحاج مصطفى البشتيلي:

- نحن في حاجة إلى معجزة..

- أجل.

- وما ذلك على الله بعزيز يا ولدي..

وقاطعتهما الأم قائلة:

- هل علمتم بالنبأ الجديد؟

قال الحاج: ماذا؟!

- أخبرتني إحدى الخادومات أن أحمد المدبولي وأسرته قد رحلوا.

- إلى أين؟

- ناحية الشرقية.

ردّ الحاج دون اكتراث:

- في ستين داهية.. أحرق طول حياته.. بش ما فعل!.. إن

حبه لنفسه يجعله يخسر الدنيا والآخرة.

- أهذا كل ما تقوله بالنسبة لصديق عزيز عاقل؟..

- الوطن أعزّ يا امرأة..

- عندما تحدث الطامة الكبرى فلسوف تقول: ليتني سمعت

كلام زوجتي.

- ليس من المكتوب هروب.

وحاولت الأم جاهدة أن تحرّض ولدها على الهروب لدى أخواله، كما بذلت جهداً كبيراً في أن تقنع خطيب ابنتها أن يرحل عن هذا المكان الخطر كي ينجو بحياته ومستقبله، ومع ذلك فلم تجد إستجابة من أيهما. . كانت الأحداث أقوى منها، وكانت فورة الحماسة تلفح الجميع بنيرانها، ولم يكن في الإمكان أن تجد مكاناً في رؤوس الشباب لنصائحها المشبّطة، ومن ثم آوت إلى مكان منعزل واجمة النفس، مضطربة القلب، ومن آنٍ لآخر تنهمر دموعها الغزيرة، وخاصة عندما يشرد بها الخيال، فتتخيل أن وحيدها قد لا يرجع إليها، وأن زوجها قد تقضي عليه رمية طائشة. . .



الملك لله وحده. . .

يا للكارثة! . . . يمكن أن يحدث هذا وبهذه البساطة والسرعة المذهلة؟ . . . من كان يتصوّر؟ . . . هكذا كان يفكر الحاج مصطفى البشتيلي في اليوم التالي لمعركة إمبابة الشهيرة. . . كانت صورة ما حدث لا تفارق خياله مطلقاً. . . نابوليون يتقدم. . . جموع المماليك تذوب أمام نيرانه الحامية. . . أسلحتهم الصدئة البطيئة لا تستطيع الصمود أمام معدّاته الحديثة. . . أفكارهم المتخلفة، وخططهم البالية البدائية، وغرورهم الأحمق، سرعان ما تهاوى أمام أفكار نابليون الجريئة، ورسمه البارع. . . جنة مصر الخضراء، وأهرامها السامقة تجذبه إليها، فيندفع هو وجنوده في

جنون. . .

الملك لله وحده. . .

مراد بك يفرّ مذعوراً، مع البقية الباقية من رجاله نحو الصعيد، وبكوات المماليك - الذين طالما تجبّروا وبطشوا - يسرعون في رعبٍ فيختطفون أموالهم ومجوهراتهم، وما خفّ من أمتعتهم، ويحملون أطفالهم ونساءهم، ويولّون الأدبار، تاركين المجد والقصور الفخمة والحدائق الغناء، ثم يبدأون رحلة التشرد والضياع في صحراء المجهول! . . .

الملك لله وحده. . .

ولم يبقَ في المعركة غير جماهير الشعب تقاوم في استماتة يائسة. . . والمماليك يعتبرون هذه المقاومة الشعبية الشريفة تغطية لانسحابهم وهروبهم. . . والمصريون والعربان ورجال البدو يرمون بأنفسهم وسط لهيب المعركة، لا يفكرون في عدم جدوى المقاومة. . . إن عليهم أن يواصلوا المعركة حتى الموت. . . أجل. . . حتى الموت. . . وتمتلئ الطرقات بالضحايا، ويمتزج الدم الحر بالتراب الغالي. . .

سبحان الله. . . الحاج مصطفى ينظر إلى المماليك المطاردين الذين يعبرون النيل في هلعٍ شديد، منهم من يصل إلى برّ الأمان، ومنهم من يقصر جهده فتتلقفه الأمواج فيهوي إلى قاع النيل، ومنهم من يدركه الفرنسيون فيخزّ صريع رصاصهم. . . والغبار يملأ الجو الحار الخانق، والصراع محتدم مرير. . . وكأنه يوم القيامة. . . يوم الهول. . .

الملك لله وحده . . .

إبراهيم بك وجنوده المعسكرون في بولاق، يغذون السير ناحية الشرق فراراً من مصير مراد بك . . لم يبق في أرض المعركة إلا أهل القاهرة الحقيقيين . . حتى هؤلاء أيضاً، عندما رأوا مراكب المماليك في النيل وقد اشتعلت فيها النيران إثر انفجار في سفن الذخيرة، وارتفع لهيبها ودخانها إلى عنان السماء، ظنوا أن الفرنسيين ينوون حرق القاهرة عن آخرها . . فحاول بعض المصريين القادرين من ذوي المكانة والثراء، الهروب بجلدهم . . .

وبكى الحاج مصطفى، وتلك الصور التعسة تتوالى على ذهنه المكدود . . بكى كما لم يبك من قبل . . لم يكن مرتاح الضمير، على الرغم من أنه بذل أقصى ما يستطيع في المعركة . . كان يجري ويجمع الناس، وينفخ فيهم روح المقاومة، ويطلق النيران من مدفع قديم . . ويجازف بنفسه . . لم يكثرث عندما أصابته بعض الشظايا . . لم يكن يفكر في ولده الذي لم يره في جحيم المعركة، ولا وردت على ذهنه صورة أسرته الصغيرة وبيته المتواضع . . لقد نسي كل شيء إلا الصراع المرير الذي يخوضه .

«آه! . . كان الفرنسيون يضحكون في غلظة، ويتحركون في عنف، ويقتلون ببساطة . . يقسمون أنفسهم على هيئة مربعات، ويطبّقون في نظام محكم . . وأنا أقف متحسراً . . آه لو كنت أملك مثلما يملكون من سلاح . . إذن لما دنست أقدامهم أرض

بولاق والقاهرة . . إن الموجة الكاسحة التي اجتاحت القاهرة أمس، لا يمكن أن أنساها . . والفرنسيون، وهم يختالون على جثث الضحايا بخيولهم وفضاظتهم، ظلّت أمام عيني طوال ليلة أمس . . لم أستطع النوم . . إن هدير الألوف، وهم يهرولون بأطفالهم ونسائهم أمام العاصفة التي لا ترحم، قد مزّق نياط قلبي . . الجموع التعسة الهائمة على وجهها خارج القاهرة، لم تكن تفهم معنى مقنعاً لكل ما يحدث . . الشيء الوحيد الذي يفهمونه هو أن الأقوياء لا يرحمون . . والأقوياء يفعلون ما يحلو لهم . . الكوارث تقع دائماً تبعثها على رؤوس هؤلاء التعساء الذين لا ذنب لهم . . آه . . إنه شيء فظيع أن تدوس حوافر الخيل جسد إنسان، سواء أكان حياً أو ميتاً . . إن الصورة لا تدعني أنام . . تملاً قلبي بالضياع والألم، وبالحقد أيضاً . . مستحيل أن أنسى ذلك . . فلتسقط مدينتهم . . فلتسقط الخوف . . فلتسقط كل المعاني السافلة . . برغم كل ما حدث، فأنا أتحرق شوقاً إلى معركة جديدة، ولو يائسة . . معركة ومعركة ومعركة . . صراع مستمر حتى ولو انتصر الأوغاد الكفرة . . لا بد أن تستمر المعارك حتى يتعبوا . . حتى ينفد رصيدهم من الجهد والحماسة . . إنهم بشر، وتجري عليهم سنن الهزيمة والنصر، والخوف والشجاعة، واليأس والأمل . . إنهم لا يفترقون عنا كثيراً سوى في المظهر المادي للحرب والحياة . . عندما تتحول حياتهم إلى قلق دائم، وتوجّس، فسيفقدون حلاوة النصر، وستتحول اللجنة التي حلموا بها إلى جحيم لا يُطاق . . هذا ما يجب أن يكون . . .

وأسرته . . حتى السيد عمر مكرم، ألم تسمع؟ . . لقد هرب وهو
العالم المنسب . . فمن أنت بالنسبة لهؤلاء جميعاً؟ . .

هز رأسه في أسى وقال:

- كل إنسان حُرّ في اختيار الطريق الذي يسير فيه، وأنا اخترت
فلا آسف على شيء يحدث . . وعمر مكرم لا أظنه يهرب، لا بد
وأنه ينوي شيئاً، ويبدو لي أنه سيقوم في برّ الشام كي يتصل
بإخواننا العرب، ويحاول مناشدة السلطان التركي كي يرسل
نجدة لهذه الأرض الجريحة. إنني لا أشك لحظة في نوايا هذا
الرجل العظيم الشريف . . أما أحمد المدبولي فهو شيء آخر،
كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني لو أُتيحت لي الفرصة للرحيل عن
هنا فلن أفعل . . مستحيل أن أفعلها.

أخذت تجفف دموعها وتقول:

لو لم تبحث لي عن ولدي، فسأخرج بنفسى . .

ودق الباب . . وصاح الحاج متوتراً:

- من؟ . .

لقد حانت لحظة التنكيل بالبيوت والحريم . . وهل يفعل
الجيش الغازي سوى ذلك؟! ووقف شعر رأسه، ونظر إلى سيفه
المعلق . . وهبت زوجته واقفة . . وتمتم:

- «ومن مات دون عرضه فهو شهيد» . . صدق رسول الله .

وصرخ مرة ثانية:

- من؟ . .

وسمع صرير الباب . . ودخل ولده الحسين مغبر الوجه ملطخاً

أجل . . الملك لله وحده . . .

عندما عاد الحاج مصطفى بالأمس إلى منزله، كانت زوجته
تري ملابسه السوداء والخوف يغطي وجهها بشحوب جلي،
وينشق في نظراتها التائهة القلقة، وصرخت بصوتٍ مبحوح:

- أين ولدي؟!!

قال في مرارة:

- كان الناس يسقطون بالآلاف . .

- ما شأنى بهم . . أسأل عن ولدي .

واستطرد شارداً:

- وداست الأقدام وسنابك الخيل شيخاً عجوزاً . . كانت لحيته
مضرجة بالدم . . ورأيت صبيّاً يجلس في الطريق مكسور الساق
ينزف دماً، ووجهه كوجه الموتى . . ورأيت . . ورأيت . . رأيت
البشاعة في حقل الموت . . .

قالت في صبرٍ نافذ:

- والحسين؟ .

- كانت ملامح الحسين تبدو على هذه الوجوه كلها.

فانفجرت باكياً.

قال لها زوجها:

- لماذا تبكين؟

- ولدي . . ولدي يا سي مصطفى .

- أنا لا أعرف . . .

- ماذا لو سمعت كلامي؟ . . أحمد المدبولي نجا بنفسه

بالدم والأحوال والخدوش . . .

وصاحت الأم : ولدي . . ولدي .

وقال الحاج في هدوء :

- هل أتيت؟ . .

وقال الحسين :

- ليتني ما أتيت . . .

وانفجر باكياً . . ومن بين دموعه أخذ يقول :

- لقد مات خلق كثير . . وهاقت بنا الهزيمة .
ثم شهق ملثاعاً :

- ومات مصطفى الفرماوي . .

وسمع في داخل البيت صرخة عالية ، وأنين خافت محزن .
هزَّ الحاج رأسه وأخذ يقول والدموع تنسكب على خدّه في
سكون :

- زينب تبكي . . والقلب يبكي .

وأخذت الزوجة تضرب على صدرها ، وتدقُّ رأسها في الحائط
وتقول :

- يا مصيبي . . يا مصيبي ! . . يا قلة حظك يا زينب . .

وتمادت في البكاء والنحيب ، حتى أصبح من العسير التمييز
بين نشيجها ونشيج ابنتها الكسيرة القلب .

ومضى الحاج يقول :

- لقد لقي الله على أنبل صورة يتعشقها مؤمن . . كم ألفاً من
الشرفاء على غرار مصطفى ودّعوا الحياة بالأمس !؟

الذين يموتون قد يكونون أعظم ممن يبقون على قيد الحياة . .

الذين يستحقون أن يوضع غار النصر فوق رؤوسهم يموتون

مبكراً . . ما أشد حزني عليك يا مصطفى ! . .

بينما كانت الأم تقاطعه متحبة : يا بنتي . . يا بنتي يا

مسكينة . . لم كل هذا؟ !

ويهمس الحسين :

- عندما دارت الدائرة على عسكرينا كاد أن يطيش عقل

مصطفى ، بل بدا وكأنه قد جنَّ بالفعل . . كان يشب ويضرب

بسرعة مذهلة . . كان يبذل جهداً فوق طاقة البشر . . ولكم

أُتيحت له الفرصة كي ينجو ، لكنه أبى ، كان كمن يحاول أن

يوقف سيلاً جارفاً بيدين واهنتين . . وكادت تقضي عليّ ضربة من

أحد فرسان الأعداء ، لكنه دفعني بعيداً في آخر لحظة ، وهكذا

نجّاني من موت محقق . . أما هو فقد قضى عليه على الأثر . .

تصوروا ، لم أستطع أن أحمل جثمان البطل الذي أبعد عني

شبح الموت . . مستحيل أن أنسى ما حدث . . .

وأخذ جسده يرتجف من شدة الإنفعال دون بكاء ، ثم تمتم :

- ومع ذلك فقد أدّى واجبه واستراح . . وبقي على الأحياء أن

يواصلوا خطى نضالهم حتى النهاية . . حتى الموت أو النصر . .

لم أعد أخاف شيئاً حتى الموت نفسه ، وإذا كان الغزاة الكفرة

يموتون من أجل مطاعم دنيوية تافهة ، أيلق بنا أن ننكص على

أعقابنا من أجل الدفاع عن شرف الوطن والدين؟ . .

وهجمت عليه أمه ، واحتوته بين ذراعيها ، ودموعها لا تكف

عن الإنهمار، وأخذت تقول:

- لن أدعك ترمي بنفسك في ذلك الشقاء مرة ثانية.

هزَّ الحاج رأسه قائلاً وقد شرد بنظراته:

- لقد فات الأوان، ولم يعد في استطاعتك يا امرأة أن تعترضي الطوفان:

أجابته قائلة:

- لم يُفَت الأوان بعد، وفي إمكاننا أن نترك المدينة الليلة ونرحل بعيداً.

همس الحاج:

- لقد مات مصطفى الفرماوي...

وقالت الزوجة:

- لشدَّ ما حزنت عليه، لكن الموت لا يمكن التحايل عليه...

إنتهى الأمر.

قال الحاج:

- لم ينتهِ بعد... موته بداية حياة... الذي مات فعلاً هو أحمد المدبولي.

- بل يحيا في أمان على أرض بعيدة...

- إن حياته بداية موت أبدي... ومصطفى لن يموت.

وأخذ الحاج يدق الأرض بقبضته ويصرخ بأعلى صوته:

- ومصطفى لن يموت... لن يموت... لأنه أنا وأنت وكل الشرفاء المؤمنين... لأنه هذا الشعب... إنه فوق كل عوامل الموت والفناء... أفهمين؟؟

وأنت زينب مهرولة، وعلى وجهها الشاحب الحزين إبتسامة بلهاء تبللها الدموع، وأخذت تقول:

- أحقاً لم يمت يا أبي؟... كيف؟... إنني لا أفهم.

وأمسك الحاج بيد فتاته، وأجلسها إلى جواره، وضمَّها إليه في حنان... بينما عادت الدموع تملأ عينيه، وأخذ يتمتم:

- لا تحزني يا زينب، لقد ذهب إلى الله طاهراً نبيلًا...

قالت ساهمة:

- ولن يعود...

- إنه معنا دائماً...

- إذن فقد مات... لكن لماذا لا يكون له قبر كباقي الناس

حتى يُزار؟...

- لو استطعنا لدفناه بين حنايا الضلوع.

- لكن لا بد أن يُدفن في قبر يا أبي.

- إنه خلق كثير... ماتوا معاً، وسيُدفنون معاً... يا لها من

صحبة رائعة في العالم الآخر...

وأدرك الأب أن ابنته تعاني أزمة نفسية حادة قد تذهب بعقلها،

فتمتم في توجُّس:

- هوني عليك يا ابنتي... كل شيء إلى زوال.

لسوف تنتظره زينب في المساء، والأحلام توشي عالمها الخصب الحزين... وستظل إلى الأبد تتوقع خطوات فارسها المحبوب، وهو يضرب الأرض بأقدامه القوية... وستنتظر طرقاته الساحرة على النافذة، لكنها هذه المرة تتعذب في عالم اليأس

شواطئ الإسكندرية، وبعض قطعته تجوب النيل، ونابليون
الذي دوّخ أعداءه في أوروبا على رأس الجيش الغازي... هنيئاً
لك يا برطلمين!...

ودخل البيت كالديك الرومي، وصاح بصوتٍ أمر لم يخلُ من
رنة حنان:

- هيلدا... صغیرتي الفاتنة... لسوف نرحل عن هنا بعد غد.
أت هيلدا مهرولة، وعلى وجهها أمارات ذبول ظاهرة، ولم
يكن شعرها على العهد به منسقاً، وبدا عليها وكأنها لم تنم منذ
ثلاث ليالٍ... وقالت دون حماس:
- إلى أين؟

- أوه يا قطتي المشاكسة... أنت تعلمين أن قصور أوغاد
الممالك خاوية على عروشها، ولنا أن نختار... الأمر أمرنا يا
هيلدا.

لم ينتظر منها جواباً، لأنه كان في حالة من التوتر وعدم التركيز
لا تسمح له بالمتابعة الكاملة... لقد وجد نفسه فجأة إنساناً ذا
شأن... النجاح السريع أربكه، والآمال المتزاحمة تكاد تورثه
الدوار، العالم الجديد - عالم الجيش القادم من أوروبا بما له من
نظم وتقاليد وسلوك - قد بهره بشدة. إن برطلمين في حالة
وجدانية زاخرة بشتى الإنفعالات... تارة يتذكر ماضيه... الدكان
الحقير في الموسكي الذي يبيع فيه الزجاجات... حثالة البشر في
شوارع القاهرة لا يتورعون أن يهتفوا بابنته «يا بنت فرط الرمان يا
حلوة»... ورؤساؤه من الممالك كانوا يأمرّون وينهون، ويفسدون

والذهول، لأن الموتى لا يطرقون نوافذ الأحياء... وستصفر
الريح، ويصمت الكون، ويمتد الشقاء، وترتطم الأحلام الجميلة
بصخرة الواقع المرير... آه... لقد مات مصطفى...

٨

عاد برطلمين منتفخ الأوداج، والعرق يتصبب على جبينه
الأشقر المحتقن، وحوله كوكبة من الجنود الأروام - حرسه
الخاص - يحيطون به وقد شهروا سيوفهم، وقد بدا من هذا المشهد
لأول وهلة أن الرجل يمتُّ بصلبة كبيرة للحكام الجدد، وأنه ذو
حظوة عظيمة لديهم. وعلى الرغم مما يشعر به برطلمين من تعب
إلا أنه يستمتع بقسطٍ وافرٍ من السعادة والرضى، ويدرك عن يقين
أن خطته قد نجحت، وأنه قد خطا الخطوات الأولى الهامة
والحاسمة على سلم المجد الذي طالما حلم به. إن الأمور على
وشك أن تستتب بعد أن احتل الفرنسيون القاهرة - عاصمة
البلاد - وبعد أن استولوا على قلاعها وحصونها ونقاط الارتكاز
الهامة فيها. وقصور الممالك الخاوية، قد تحولت إلى سكنٍ
خاص لنابليون المنتصر وأركان حربه والضباط الفرنسيين
العظام... لقد تمَّ كل شيء بأسرع مما كان يتصور برطلمين،
وابتسم في شماته، وهو يتذكر فلول الممالك الهاربين إلى
الجنوب والشرق، ومن قبل عشرات الضحايا وهم يسقطون
صرعى الرصاص الفرنسي... يا لها من لحظة رائعة... كل شيء
على ما يرام... أسطول الفرنسيين في البحر الأبيض لدى

دعائم الغزو الفرنسي . . لستُ «فرط الرمان» ولا «برطلمين» كما
يرطن العامة . . أنا اليوم «برتلمي» . . إن إسمي الحقيقي يتناسب
جداً مع الأسماء الطنانة التي وفدت إلى مصر، أمثال نابليون . .
ديبوي . . كليبر . . مينو . . إلخ . . .

وانتقل فجأة إلى موضوع آخر:

- لقد هرب الجبناء . . المماليك . . تركوا أهل البلد في حيص
بيص . . لكن الشيء الذي أحنقني هو أن هؤلاء السفلة والرعاع
يقاومون، ماذا يظنون؟؟ أيمن أن تقف عصيهم، وسيوفهم
الصدئة، ومدافعهم القليلة القديمة، أمام نيران فرنسا
العظيمة؟! . . والمصيبة الكبرى أنهم كانوا ينتظرون العون من
تركيا . .

ثم توجه إلى ابنته قائلاً:

- وبهذه المناسبة، لم تسأليني عن «إبراهيم آغا» .
لم تفارق صورته مخيلتها منذ أن رآته في إمبابة . . كانت تجد
نفسها تفكر فيه على الرغم منها، وكلما حاولت نسيانه، عاد خياله
يداعبها في اليقظة وال المنام، وعندما سمعت عبارة أبيها الأخيرة
هتفت في توجس:

- ماذا جرى له؟؟

قال في هدوء بارد وعينه ترمقها دون رحمة:

- مات . . .

لم تستقبل الأمر في انهيار كما كان أبوها يتوقع، إحساس
داخلي يدعوها إلى الشك في كلام أبيها . . إن أباه يكذب، هذا

عليه طموحه، وحرية في الحركة وفي السلب والنهب . . . وذلك
الوغد السافل إبراهيم آغا، الذي استطاع أن يلج قلب ابنته ويؤثر
عليها . . وأيام الضنك التي كان يمرُّ بها . . ورغبته العارمة - التي
يغذيها التعصب الأعمى - في أن يدمر ويسحق بل ويقتل . . . كان
دائماً يشعر بأنه مغبون، في حاجة ملحة مستمرة إلى المال،
والمنصب الكبير، والخدم . . لقد كان جبينه يتقطب غيظاً وهو
يستعرض تلك الذكريات الماضية، لكن سرعان ما انفرجت
أسارير وجهه وقد وثب بخياله إلى الحاضر الرائع الجميل . . إنه
وسط الحرب والدماء والأشلاء وصرخات الإستغاثة والقلق
يستشعر سعادة من نوع غريب! . . لكم يتمنى أن يزيد هذا
الإضطراب، إن مثل هذا الجوي بهجه، ويشفي من جراح نفسه
وكبريائه، ويرضي غروره وطموحه . . .

وصاح من جديد:

- هيلدا . .

- نعم . . .

- لا شك أنك أعددت طعاماً شهياً، وبضعة كؤوس من الخمر
المعتقة .

- أمي متعبة .

قال في ضجر:

- أوه . . إن أمك لا يحلو لها المرض إلا في الأوقات
الجميلة . . ثم هل يعني مرضها ألا نتناول طعامنا، ونروي
ظمأننا؟؟ أنت تعلمين ما أكابده هذه الأيام من مشاق حتى نثبت

ما تعتقده عن يقين .

وقهقه مبهجاً ، فقد سرَّ لما لاحظته عليها من ثباتٍ ، لكنه أردف :

- كنتُ واثقاً أنك لن تعبئي كثيراً بمصيره ، بعد أن شرحتُ لك الأمر باستفاضة مقنعة .

فردت قائلة :

- هل رأيته بنفسك ؟ !

- ولمَ لا ؟ . . لقد كنت أرقب الأحداث عن كثب .

- لكنك لم تشارك في معركة إمبابة .

- رجالي في كل مكان . . أتفهمين؟؟ رجالي . . ولو أردت أن أستحضر لك جثته لفعلت .

وازدادت يقيناً أنه يكذب فتمتمت :

- كثيرون هربوا إلى الصعيد . .

- لسوف يطاردهم نابليون حتى الشلال . . لم يأت الرجل

للنزهة أو للعب ، إنه يفهم ما يريد تماماً . . لقد رأيته يا هيلدا ،

إنه نمط غريب من القادة . . يتصرف في ثقة ، ويتحرك في سرعة

ودقة ، حاسم في قراراته ، رجاله يعبدونه ، إنه رجل رائع حقاً . . .

قالت ببساطة :

- لكنه يقتل . .

- المحاربون في أي مكان وفي أي عصر يفعلون ذلك .

- وأنا أكره ذلك .

- لأنك رقيقة القلب . . بلهاء مثل أمك وجدك .

وضحك من جديد ، ثم طلب الطعام على عجل ، وما أن امتلأت بطنه حتى تجشأ ، وأخذ يتناول كؤوس الخمر في شراهة ، وفجأة قال لها :

- لتشربي كأساً .

- إن مذاقها لا يروق لي .

- إنها تمحو الكثير من القلق ، وتشفي جراح النفس والقلب .

- لكن إلى حين .

- إني آمرك أن تشربي .

رأت الإصرار في عينيه ، لشدة ما تكرهه اليوم ، وهي تشعر بحملٍ ثقيل يحطُّ على قلبها أثقل من جبل المقطم ، ولقد تحطم حلمها الجميل ، كل شيء أمام عينيها ثقيل سمج يبعث على الضيق والنفور ، والفراغ قاتل محزن ، والضياح كالموت تماماً ، إلى متى تتعذب ؟ . . لا بد من فترة راحة .

وقالت في سخرية مُرة :

- أمرك . . لسوف أشرب .

وتناولت كأساً ، ثم أردفته بثانية وثالثة ورابعة ، وأخذت تترنح

وتهذي :

- يا بنت فرط الرمان يا حلوة . . ها . . ها . . ها . . لقد كان

شيئاً طبيعياً أن يطري الناس جمالي . . وكان تعبيرهم عن

الإعجاب يتخذ أشكالاً متعددة ، أقواها كلها هي النظرات التي

يسددها أصحابها إليّ ، فأفهم منها ألف معنى . . كانت تلك

الكلمات أبلغ من أي مقال ، وكان جسدي وروحي يترنحان

حيالها أقوى مما أترنح الآن . . وإبراهيم آغا كان . . أجل . . كان واحداً ممن يحسنون الحديث بنظراتهم، لكنه كان أعمقهم أثراً في نفسي . . إن قصة حبنا الصامت في البداية كانت قصة رائعة . يا إلهي . . كان شهماً نبيلًا وعلى استعداد تام لأن يضحي بأي شيء من أجلي . . لم يحيرني أي شيء من تصرفاته، على العكس منك يا أبي، ولهذا أحببته . . . قال وهو يتناول كأساً أخرى:

- لا وجه للمقارنة بيني وبين ذلك الصعلوك الآن . . أتعلمين شيئاً عن مناصبي الجديد؟ . . لقد أصبحت وكيل المحافظة . . القاهرة الكبيرة بكل من فيها وما فيها . . ها ها ها . . لست مثلك أدمن التفكير الكثير في الأمس، أنا ابن اليوم يا هيلدا الساذجة . . ولسوف يكون بيتنا الجديد مقراً لكبار الشخصيات الفرنسية من القواد والعلماء، ولن نكف عن إقامة حفلات الرقص والسمر، وستكونين يا هيلدا نجمة كل حفل، وستجدين الرتب الكبيرة تنحني لتقبل يدك اللدنة يا مثال الجمال الفاتن . . سيكون بيتي وكأنه جزء من المجتمع الفرنسي في باريس . .

قالت هيلدا وقد شردت بنظراتها:

- ألا يزعج هذا أمي المريضة؟

- أوه . . أمك . . أمك . . وماذا سنفعل لها؟ . .

وأخذت تتخبط:

- لكنني لن أتزوج واحداً من هؤلاء الأوغاد الذين تتحدث

عنهم .

- لو حدث وطلب أحدهم يدك، فسيكون ذلك غاية المنى .

- إنهم لا يجيدون سوى القتل .

- إنهم فرسان حب قبل أن يكونوا رجال ميدان .

- المحارب في الميدان، عندما ينتهي من إحدى الغزوات،

يفكر في غزوة أخرى . .

- تنطقين بما يشبه الحكمة يا ابنة برتلمي، ومع ذلك فثقي أن

المحارب يملّ الكرّ والفرّ، ويبحث دائماً عن ثغر حنون يجد لديه

الحب والسلام .

ألقت برأسها إلى الخلف وهي تغالب النوم، وأخذت تقول:

- ليكن ما يكون، فأنا على استعداد تام للتحدي والعيب، ألا

تريد ذلك؟ حسناً، إن بي شغفاً زائداً لألهو بهؤلاء الذين يلهون

ب حياة البشر . . ثم إنهم لا شك نوع جديد من الرجال . . آه . .

هذه الحياة لا معنى لها . . الكل باطل، باطل الأباطيل . . ليذهب

كل شيء إلى الجحيم . . وأقسى ما فيها أن يضل الإنسان في

طريق البحث عن الحقيقة، وألا يعثر على السعادة . . ترى ما هي

السعادة في رأيك يا أبي؟

ضحك من أعماقه، وقد ازداد إحترقان وجهه:

- يا فيلسوفتي الصغيرة، السعادة هي أن أبلغ ما أريد .

- إذن فأنا تعسة .

- تعاسة مدهومة .

- لماذا؟

- لأنك في الحقيقة لا تعرفين ما تريدين . . إن أحلامك البلهاء

يحتاج إلى روح جديدة.. لنعتبر أنفسنا الآن ضمن جيش الغزاة.. ومن يتجرأ ويقول لك في الطريق العام «يا بنت فرط الرمان يا حلوة» فلسوف أقطع لسانه.. إن أباك سيتمتع بسلطة سياسية وقضائية لا حد لها.. فما رأيك؟؟
لم تستطع هيلدا أن تجيب على تساؤله، فقد راحت في سبات عميق...

٩

وقف «برتلمي» مشدود القامة، صارم الملامح، خافق القلب، وكأنه في حضرة إله.. لم لا، وهو يجد نفسه قبالة «نابليون» العظيم، القائد المنتصر الذي تردّد اسمه في أنحاء الأرض.. لقد خيل إلى برتلمي أنه في حالة ذوبان وامتزاج كلي مع القائد الكبير، وكان نابليون يتفحصه بنظرات نافذة قلما تخطيء في الحكم على الرجال.. وبعد فترة فال نابليون:
- حدثني القنصل عن إخلاصك وتحمسك البالغ لنا.
- وأعتقد يا سيدي القائد أن أعمالي ستثبت ما سمعته عني.
- هذا مفروغ منه.. ولا شك أن الأعوام الطويلة التي قضيتها في مصر، تجعلك ذا خبرة لا بأس بها.
- أجل.. أجل يا سيدي.

ووضع نابليون يديه في جيبي سترته، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثم قال دون أن يبدو على وجهه أدنى انفعال:
- إن الغزو عملية سهلة، هذا ما قدرته في البداية، وقد صدق

في الحب والمجتمع، لا تتساوى مع الأفكار الواعية التي يديرها العقلاء في رؤوسهم... عندما تعرفين حقاً ما تريدان - كما حدث لي - فلسوف تصلين إليه وأنت إلى جواربي.
إبتسمت في أسي وقالت:
- إنك تفكر في نفسك فحسب، وتريد أن تتخذ من نفسك «وحدة قياس» وأنت تتكلم عن سعادة الآخرين.. أي أبي.. إن قلبي يحدثني أن لكل سعادته.
- تلك أناانية.

- بل إتهام توجهه إلى نفسك.
- يا صغيرتي الوقحة!.. للسعادة مقاييس عامة.
- لكن مقاييسك يا أبي لا تروق لي...
وتشاءبت وهي تقول:
- كنت أرى في عينيه الحب، فيتدفق في قلبي نبع للسعادة فيأض بالمعاني الحلوة.. وكنت إلى جواره أشعر أن الدنيا كلها ملك يميني.. لطالما أشعرتني أنني الأمرة الناهية.. أنني مليكته المتوجة.
قال في سخرية:

- كان صعلوكاً لا أكثر ولا أقل.. وستؤجبن نفسك ملكة على العشرات من الضباط والعلماء العظام، وستدركين آنذاك أنك كنت تعيشين في وهمٍ سخيف... أي هيلدا العزيزة.. يجب أن تتطهري من كل أدران الماضي الحقيق الذي عشناه في عجز وفقرٍ وذل.. إن حياتنا الحقيقية تبدأ منذ اليوم، وعهدنا الجديد

ظني . . إن رجالي لا يخذلونني في أي موقف . . لكن الأهم من الغزو هو استمراره وتثبيت دعائمه . . واحتلالنا لمصر عملية كبرى، ستثير العالم علينا، وخاصة إنجلترا . . لكن كيد الأعداء لن ينال منا أي منال، إذا استطعنا أن نجعل الشعب المصري يرضخ لإرادتنا، وسوف نلجأ لشتى السبل مهما كانت، حتى نحقق هدفنا.

وسادت فترة صمت قال نابليون بعدها :

- إنني أعفو ببساطة تجعل الخصوم يتأكدون من تمكني الكامل من الموقف . . وأنا أيضاً أقسو ببساطة، تجعلهم يرتعدون عند الضرورة.

كان برتلمي يتلقف كلماته في وعي، ويتابعها بدقة، ولعله لم يبدُ عليه الإرتياح بالنسبة لمسألة العفو، ومع ذلك فهو هنا لتلقي الأوامر، لا لمناقشتها أو الاعتراض عليها . . إنه يتلمذ على يد داهية من أكبر دهاة العصر، رجل تسلح بعديد من التجارب في شتى الميادين، وصارع أكبر القوى السياسية والعسكرية في أوروبا وآسيا.

واستطرد نابليون يقول :

ولكي تعفو أو تقسو، لا بد أن يكون ذلك لغاية، وهي غاية ليست إنسانية على أية حال، فليست هناك رحمة لمجرد الرحمة، وإنما بقدر ما تجلبه لنا من منفعة . . أفهمني؟؟

- طبعاً . . طبعاً سيدي .

- وأنت يا برتلمي ستكون رئيساً للعسس . . وستمسك زمام

جهاز المخابرات .

وطرب برتلمي عند ورود إسمه على لسان القائد الكبير، وكان لاسمه - وهو يخرج من بين شفتي نابليون - رنة محببة إلى سمعه، لعله لم يشغف بكلمة «برتلمي» كما شغف بها في تلك اللحظات . . وتمتم برتلمي :

- نعم سيدي . .

- بالإضافة إلى عملك كوكيل للمحافظ .

- نعم سيدي . .

- معنى ذلك أن لك من السلطات، وتحت يدك من الإمكانات، أكثر مما تريد . . بالإضافة إلى مركز الأدبي الذي ستدركه بنفسك . . ولا تنس أن تهتم بمصادر التمرد في هذا البلد . . وأعتقد أن المشايخ بالأزهر لهم نفوذ روحي بعيد المدى، من أمثال الشيخ السادات، والشرقاوي، وغيرهما . .

وهز برتلمي رأسه، لشدة ما يكره الشيخ السادات . . إن هذا الرجل يستمتع بسلطة خارقة . . ترى لماذا يطيع الناس مثل هذا الإنسان؟؟ القوة وحدها يجب أن تُحترم، أعني مظاهر القوة المادية . . وغداً أعرف كيف أمسك مصيره بيدي، وكيف أمرغ جبينه «الطاهر» في التراب! . . وهل أنسى أنه كان دائماً يؤازر العامة، ويعترض على غزواتنا الموفقة في شوارع القاهرة، واستيلائنا على ما في دكاكينها ووكايلها من ثروات؟؟ بل كان يصيح في وجه كل من مراد بك وإبراهيم بك متوعداً . . لقد جاء يومه .

وأفاق برتلمي من أحلامه على صوت نابليون :
- يجب أن نناقش هؤلاء المشايخ ونثق فيهم . قد يبدو الأمر غريباً ، لكن يجب أن نظل أعيننا مفتوحة . .
ثم استطرد بعد فترة :
- برتلمي . .
- نعم سيدي .

- يجب أن نقطع بعض الرؤوس ، ونطوف بها في الشوارع من آنٍ لآخر .
- أجل . . أجل .

- والمال يا برتلمي . . لا مانع أن نعفو عن بعض المحكوم عليهم بالإعدام نظير مبلغ كبير من المال ، ومن ثم لا بد من مراقبة الأثرياء ، واصطياد الأخطاء لهم .
وتوقف نابليون عن المسير برهة ، ثم قال :

- أعتقد يا برتلمي أن المشايخ والكبراء هم كل شيء؟؟ لا أظن ذلك . . إن جماهير الشعب هي التي تلعب الدور الأخطر دائماً ، هذا لا يفوتني ، على الرغم من ضعف مستوى الشعب هنا ، ومآسيه الاجتماعية والاقتصادية . . لكن شقاً كبيراً يجب أن يفصل القادة عن جماهيرهم ، ولهذا قررت أن أنشئ «ديواناً» يضم ذوي الرأي من العلماء والتجار والفلاحين والأعيان ، ليكون مجلس شورى مصغر ، وفي حقيقته تنظيمًا مساعدًا لنا . سوف يتكلم هذا الديوان ، لكن بالسنتنا ، وسنخلق صراعاً دائماً بينه وبين الناس ، وقد نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نلبي بعض رغبات

الديوان ، ونجعله يساهم في حلّ مشاكل الجماهير عندما نرى أن المصلحة تقتضي ذلك .

وشرّد نابليون برهة ، ثم عاد يقول :
- هذا بعض ما أفكر فيه . . وأنت يجب ألا تنام ، وسألتقي بك من آنٍ لآخر . . حسناً ، تستطيع أن تنصرف . . .



وخشعت القاهرة العظيمة في عذاب . . لم يكن خشوعها نومة أبدية ، أو نكسة في كبريائها ، أو رضوخاً للذل . . كانت تبكي شهداءها ، وتداوي جراحها ، وتسترجسدها الممزق ، بل وتلتقط أنفاسها لتنهض ، وتعيد النظر إلى ما حولها . وعاد الناس يسرون في الشوارع ، يتحدثون ويشترون ويبيعون ، ويؤذنون للصلاة ، ويتوافدون على الأزهر الشريف ، ويتهايمسون عن الغزاة ، وينظرون إلى وجوههم وملابسهم ولغتهم ، ويتابعون سلوكهم في الحياة ، واهتماماتهم الغربية في شتى المجالات . . . لشدّ ما تغيرت المدينة بين حكامها الأقدمين الذين ذهبوا ، وحكامها الجدد الذين أتوا ، الشيء الذي لم يتغير في المدينة هو الروح الكامنة العنيدة ، تقرأها على العيون ، والأفواه المغلقة ، والجباه السمرء التي لوحتها الشمس الحارقة ، والعبارات القصيرة . . . وبرطلمين يجري هنا وهناك ، باحثاً عن رؤوس يقطعها ، وقضايا يلفقها ، وأجساد يلهبها بالسوط حتى يدميها ، ورهائن يقذف بها في سجن القلعة ، لكنه كان أعجز من أن يمسك «بالروح

الخالدة» الصامدة التي لا يمكن أن يصيبها بخدش، السر الذي لم يعرفه، ولم يحاول أن يعرفه، في قلب المدينة الكبيرة التي خشعت تحت الظلام تلم شعنها.

المدينة الكبيرة تختلج بالكثير من العواطف والذكريات.. وترى الغزاة يتواكبون في مساربها، يجهدون أنفسهم في البحث عن المال والحب والمجد، بعد النصر المبدئي الذي حققوه على شعب شبه أعزل.. وتمتد طرق المدينة أمام أحذيتهم الثقيلة، ونظراتهم النهمه، يريدون أن يشتروا كل شيء.. لقد استطاعوا الحصول على المال، وتنوعت ألوان الضرائب، وأساليب النهب والمصادرات والفديات.. والمدينة الصامدة الخاشعة تحت وطأة الظلام تنتظر بصيصاً من النور، كي تستأنف المسير على هداه.. وبرتلمي لا يحسُّ بشيء حقيقي أصيل يربطه بالمدينة، سوى أنها مجال غزوات، وأرض أحلام في تحقيق المجد الذي يتغنى به، حتى ولو قام ذلك المجد على أشلاء الضحايا!.. لم يجرب ذلك الوحش - ولو مرة واحدة في حياته - ذلك الحنين الذي يربط الناس بالناس، والبشر بالأرض والسماء، وذلك العشق المذهل الذي يستولي على ابن البلاد، فيحيله إلى عابد متصوِّف، قد غمر قلبه حب الكائنات في كل الأنحاء.



كان المخطط الذي رسمه نابليون يمضي حسبما رأى، وتألف «الديوان»، وشرح لهم نابليون مهمتهم، التي ظاهرها خدمة

الجمهور، والتعبير عن آماله، وباطنها الخداع والتضليل، وتحقيق رغبات الغزاة، وهدم الثقة بين الجماهير وفئة من رجالها المرموقين.

غير أن برتلمي كان يفكر في أمر الشيخ السادات، ذلك الرجل الذي ترفع عن أن يكون عضواً في الديوان.. لقد تضايق برتلمي بادىء الأمر، وهو يرى رجلاً يرفع رأسه في إباء، ويتصرف في حرية، محاولاً الحفاظ على كرامته، دون أن يعبأ بقوة الحديد والنار.. لكن برتلمي رأى - في نفس الوقت - أن تصرف الشيخ السادات على هذه الصورة، قد كشف عن نواياه، وأبرز تمرده على النظام الجديد، ومن ثم فقد كشف نفسه، وحكم على مستقبله أسوأ حكم.

ورأى برتلمي أن الفرصة سانحة للقضاء على الرجل الذي يكرهه، لكن نابليون علّق على ذلك قائلاً:

- إن نوايا الشيخ السادات في غاية الوضوح، وأرى أن القضاء عليه قد يكون ضرراً أكثر من نفعه، ورأيت أن نتركه حراً، وأظنه سيفكر ألف مرة قبل أن يُقدم على أي تصرف طائش.. وهل تظن يا برتلمي أن المشايخ سيستجيبون لخطتنا مائة في المائة؟؟ إن كل شيء يوضع في الحسبان.. هناك رجال نشترهم بالمنصب، وآخرون ندفع لهم المال، ونوع ثالث يجرهم التهديد والوعيد على وجوههم، أما النوع الرابع فهو يستعصي على أي شيء، ولا يعبأ حتى بالموت.. أنا أدرك ذلك.. هل نسيت السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية؟ ذلك الذي لم يتوان عن

طيبة .. إنه يسكن الآن في قصر إبراهيم بك ببركة الفيل ، وأعتقد أن زيارتنا له بعد ذلك ستكون متكررة ، وسنكون من أصدقائه المخلصين .. لا وجه للمقارنة يا حبيبتى بينه وبين الصعلوك الصريع «إبراهيم آغا» ، أنت لا شك تدركين ذلك .

وبدا على وجهها الضيق ، حينما عاد أبوها لذكر إبراهيم آغا ، وهمّت أن تصفع ذلك الوجه الذي تكرهه - وجه أبيها - لكن كيف؟؟ إنها في هذه الأيام تشعر برغبة جارفة في التحطيم والتدمير والعبث .. إن في داخلها طاقة مكبوتة تريد أن تنفجر وتحطم أي شيء .. المثل العليا أصبحت تحت نظراتها اليائسة حماقة ، وإرادة الإنسان الحرّة أكذوبة كبرى ، ولم يكن هناك بد من أن تلجّ في طلب كأس من الخمر ، فابتسم أبوها قائلاً :

- لقد عرفت يا عزيزتي كيف تبدئين .

أقبل ديبوي ، وتنسم ريحاً طيبة حينما وقعت عيناه الزرقاوان على وجه هيلدا الجميلة ، وعندما واجهها ابتسم ، وانحنى يقبل ظهر كفها في وداعة ورقة : «لشد ما أنت رائعة الجمال يا هيلدا» قالها هكذا دون حياء ، وأمام أبيها الذي غمرته الفرحة في أول إمتحان لفتاته ، وتضرّجت وجنتاها بالحمرة الشهية ، وأخذ ديبوي يفكر : «الطريق موحش مقفر ، والمشاكل عديدة ، والنساء كأحلام وردية تراود منامي القلق المجدب ، وأنا لا أكاد أفرغ من الأعمال .. تلك الدوامة القاتلة التي تعصف بي ، وتقذفني من ميلان إلى الإسكندرية ، ومن الإسكندرية إلى القاهرة ، وحياتي تحولت إلى صراع وحشي لا هوادة فيه ولا رحمة .. لا شك أن

محاربتنا ، ومراسلة الثائرين والمماليك وغيرهم .. لم يردعه عن ذلك تشييته حاكماً للإسكندرية .. ماذا قال عندما طلبنا منه أن يدفع فدية كبيرة أو ينفذ فيه حكم الإعدام؟؟ لقد قال يا برتلمي : « إذا كان مقدوراً عليّ أن أموت ، فلا يعصمني من الموت أن أدفع هذا المبلغ ، وإذا كان مقدراً لي الحياة فعلاً أدفعه؟ » .. مثل هذا النوع من الرجال يحيرني إلى حدّ كبير ، فحياته تهديد متصل ، ومماته تثير علينا الكراهية ، وتجبرّ علينا أحقاداً لا نهاية لها .. وأراني مضطراً في بعض الأحيان إلى وضع حد لحياة أمثاله ..

ولم تغمض عينا برتلمي عن الشيخ السادات ، كان يرصد حوله العيون في الأزهر ، وفي مجالسه الخاصة ، ويتابع حركاته ، ويحصي عليه كلماته واتصالاته ، حتى جاءت اللحظة التي استطاع برتلمي أن يدينه تمام الإدانة .. ولكن هيهات ! ..

١٥

إنه ضيف كبير يا هيلدا ، ومن المقربين إلى نابليون ، وهو في نفس الوقت حاكم المدينة - القاهرة - وأنا أعمل تحت إمرته ، إنه جاف بعض الشيء ، لكنني واثق أن زيارته لنا هذه الليلة ستكون بعيدة الأثر في علاقته بنا .. إنه الجنرال «ديبوي» حاكم ميلان سابقاً بعد إحتلال إيطاليا ، وينتمي لأسرة عريقة شريفة .. أرجو أن يجد الراحة التامة في منزلنا الليلة ، ولا شك أنك على علم تام بما يجب عمله . لو نجحت يا هيلدا الليلة ، فسيكون ذلك بداية

هيلدا رائعة، تجمع بين جاذبية الشرق الفاتنة وبشرة الغرب الشفافة البديعة، لكنها صغيرة... كالوردة الغضة... آه... وابتسامتها تزيل الكثير مما أحسُّ به من آلام وإرهاق... إليّ... إليّ يا واحتي الخضراء...»

لم يكن ديبوي من السذاجة بحيث يندفع إليها كالغريق يتشبث بغصن رقيق، إنه رجل حرب يعرف كيف يتسلل إلى قلوب العذارى، وهو في نفس الوقت فرنسي - وإن كان بولوني الأصل - يلتزم بالكثير من آداب اللياقة مع النساء، خاصة وهو الليلة أمام فتاة مرافقة عاشت حياتها في القاهرة ذات الطابع المميز.

وبعد أن أثنى على جمالها، وأحاطها بغير قليل من العطف والإطراء، انصرف إلى أبيها وإلى بضعة كؤوس من الخمر... وكان بمنزل «برتلمي» في تلك الليلة عدد من الضباط الفرنسيين وبعض الأروام نساءً ورجالاً، ودار الحديث هنا وهناك، وتواترت أطايب الأطعمة، وتبدلت بعض المِلح والطرائف، في جو ودّي منطلق، وأُتيحت الفرصة لعدد من هواة الرقص، فقصوا وقتاً ممتعاً... والغريب أن بعض الضباط الصغار قد قاموا بإجراء مسرحية صغيرة كوميدية أمام الجنرال ديبوي وباقي الضيوف، فأضفت على السهرة جواً جذاباً من المرح والحرارة... وكانت هيلدا تنظر إلى هذه الأفاعيل في غاية الدهشة، وسرعان ما اندمجت في الجو، وحاولت أن تشارك فيه بقدرٍ محدود، وكان أبوها سعيداً غاية السعادة، وهو يراها تخرج عن كآبتها

وصمتها، ويكتسحها جو البهجة الجديد... وفي آخر السهرة وقف الجنرال ديبوي، وقد بدت على وجهه إشراقات الإنشراح وقال:

- يسعدني يا هيلدا أن تتكرمي وتشرفي بي في أي وقت تشائين، سأكون في منتهى السرور والسعادة... قالها وهو ينحني في احترام ويقبل يد «الأميرة» الصغيرة للمرة الثانية، بينما هتف برتلمي:

- إنه لشرف عظيم يا سيدي الجنرال.

بينما هزّت هيلدا رأسها في امتنان دون أن تنطق بكلمة.

وعاد برتلمي للحديث مرة ثانية:

- لقد آن الأوان أن نبدأ حياة الاستقرار والراحة يا سيدي الجنرال، إن سقوط العاصمة في أيدينا يعني إنتهاء الحرب، ومن ثم لا بد أن نمرح ونبتهج.

قال ديبوي:

- إنك حسن النية يا عزيزي... لقد حاربت في أوروبا في ميادين عدة، وسقطت في أيدينا العواصم، لكن هذا لم يكن يعني إنتهاء المقاومة... إن تصفية جيوب المقاومة يكبدنا الكثير يا برتلمي، بل إننا نفقد في ذلك من الرجال أكثر مما نفقد في المعارك الرئيسية... ثم هل نسيت أن فلول الممالك يجمعون شتاتهم في الصعيد والشرقية؟؟

قال برتلمي باسمًا:

أوه سيدي... أية مقاومة تقصد؟؟ إنني أعرف هؤلاء الناس

جيداً، إن تفوقنا في القوة قد أعطى نتائج المعارك الباقية مقدماً،
أنتظر مقاومة تُذكر من فلول المماليك الجبناء، أو الفلاحين
العزل من السلاح؟!!

ولوح ديبوي بيده معترضاً في دعاة:

- كفى يا برتلمي.. يبدو أن حديث الحرب لا يروق
«لهيلدا».. دَعْ حديث الحرب والسياسة الآن، فالوقت متسع
لذلك في الغد أثناء النهار.

لعل هيلدا - بعد أن انصرف الضيوف - كانت أكثر هدوءاً، إن
كؤوس الخمر التي شربتها، وجو المرح الذي عايشته، قد أضفيا
عليها شيئاً من الأمن والاستسلام، لكن الشيء الذي غدّى
كبرياءها، وأرضى أنوثتها، هو أن الجنرال ديبوي بنفسه كان
يعاملها بمتهى الاحترام والرقّة.. لقد خيل إليها أنها في مركز
أعلى من مركزه.. أيمن أن يعامل ديبوي رئيسه نابليون بأكثر
من هذه الرقة والاحترام؟.. بل إن احترام ديبوي لها كان أكثر
بكثير من أبيها، إنها لا شك مخلوق آخر يستحق كل تلك
العناية، على الرغم من أنها لا تحتلّ منصباً مرموقاً، أو تحوز رتبة
من رتب الجيش الكبرى.

وأدركت «هيلدا» في الأيام التالية أن الطريق إلى قلب
«الجنرال ديبوي» أصبح سهلاً ممهداً.. لم يكن ليرفض لها
طلباً، أو يؤجل لها رغبة من الرغبات التي تسنح، أصبحت فتاته
المفضلة المدللة، حتى صغار الضباط الذين يقفون في خدمة
الجنرال وتحت إمرته، كانوا يؤدّون لها واجب التوقير والرعاية،

مثلما يفعلون مع الجنرال. ولقد أثلجت هذه العلاقة الوليدة صدر
أبيها، فازداد حذبه عليها، واعتناؤه بها، لكأنما الجنرال ديبوي قد
انتقل إلى منزل برتلمي، وأصبح الأمر الناهي فيه، وهل هيلدا إلا
ممثلة لسلطة الجنرال ومركزه الكبير؟؟



أتت هيلدا ذات مساء إلى منزل الجنرال ببركة الفيل، وأدخلها
الضابط البوتجي «مالوس» إلى حجرة الإستقبال، وتمتم
مالوس:

- «معذرة يا آنستي.. الجنرال في اجتماع بالقيادة العامة، وقد
يعود بعد ساعة..»

وشعرت بشيء من الضيق، وحينما رفعت بصرها وجدت
الكابتن «مالوس» ينسحب خارجاً، كان في الخامسة والعشرين
من عمره، فارع الطول، قوي النظرات بدرجة ملحوظة، يتحرك
في رشاقة وخفة.. ووجدت «هيلدا» نفسها تصيح:

- إلى أين؟؟

- إلى مكاني في الحراسة..

- هل يليق بك أن تتركني وحدي؟

لم تكن من قبل على هذه الصورة من الجرأة، لقد أتت أول
مرة إلى منزل الجنرال مع أبيها، وكانت تشعر بالخجل الشديد
حتى أوشكت أن تنفجر باكية، لكن تكرار الزيارة أنساها ما
وقعت فيه من خجلٍ أو حرج في البداية، لكنها ظلت تشعر بارتباك

مؤسف كلما أتت وحدها إلى زيارة الجنرال على الرغم من أنها لم تفرط في شرفها وكبريائها، لكن هذا الارتباك هو الآخر أخذ يذوي رويداً رويداً حتى اكتسب صفة العادة ففقد حقيقته.

وعادت هيلدا تقول:

- ما اسمك؟

- مالوس.. كابتن مالوس.

- أنت لطيف للغاية يا مالوس.

ورفع إليها عينين حائرتين لم تفقدا قوة بريقهما:

- أشكرك يا آنستي.

- لماذا لا تزورنا؟

- إنني أحضر دائماً مع الجنرال.

- أعني.. وحدك..

- معذرة يا آنستي، إن والدك سيد برتلمي صديق الجنرال،

وهو يحتل مركزاً كبيراً.

- حسناً.. لا بد أن تأتي في وقت فراغك لزيارتي.. إنني

أدعوك، ولا دخل لأبي في الأمر.

قال مالوس متلعثماً:

- آسف يا سيدتي.. إنك صديقة الجنرال.

- ليست صداقته حكراً.. لي أن أختار أصدقائي كما أشاء.

- آسف يا سيدتي.

- إنني أمرك.

- تريدن ضياعي.

قالت في ثورة:

- أنتم تعيشون حياة رهيبة مزعجة لا حرية لكم فيها.. هل

كلكم هكذا؟

- في الجيش يا آنستي تكون الحياة مغايرة تماماً وإلا..

قاطعته قائلة:

- كفى.. لماذا تتحدثون إذن عن الحرية والإخاء والمساواة

في ثورتكم الفرنسية الكبرى؟

- سيدتي..

- لا تقاطعني.. أنتم تكذبون، وتخافون، ويستعبد الكبار

منكم الصغار، وتبررون تعاستكم وعبوديتكم باسم القانون..

وصمتت برهة، ثم قالت:

- كابتن مالوس.. إنني أحبك منذ أن رأيتك لأول مرة في

منزلنا.

- لكن..

- لكنك جبان!..

- أنت تحبين الجنرال، وتزورينه من آنٍ لآخر.. الكل يعلم

ذلك.

- مجرد صداقة.. إنها لا تختلف - في نظري - عن صداقته

لوالدي.

- حسناً.. ليكن هذا سرّاً بيننا، وإلا ضعتُ وضاع أبوك..

واقتربت منه بخطواتٍ وانية.. كان يبدو شاحب الوجه

جَمِلاً، يرعشه الخوف والحب..
عنقه تناهى إلى أسماعهما صوت النفير، فانتفض الكابتن
مالوس، وصرخ في خوف:

- إنه الجنرال.. . . يا للكارثة!!

وجرى دون كلمة تحية عابرة، وتركها واقفة تكرر على أسنانها
من الغيظ، وعادت إلى مقعدها منفعة، صدرها يعلو ويهبط.. .
وعلى الرغم من أن رائحة الخمر كانت تنبعث من فمها، إلا أنها
كانت تشعر بظماً شديداً لمزيد من الكؤوس المترعة، لشد ما
تحب الخمر في هذه الأيام!!

وعندما وقع بصر الجنرال عليها صاح في مرح:

- حبيبتي هيلدا.. . إن تشوقني إليك أكبر مما تتصورين.

قالت دون أدنى حماس:

- أريد كأساً من الخمر.

- حسناً.. . في لحظات سيكون كل شيء تحت تصرفك.. .

مسكين أنا أسكر بالخمر وبثغرك الشهى يا هيلدا يا أميرتي
الفاطنة.

ترنحت ومالت، بعد أن أثقلت في الشرب، وهمست: «أريد
أن أنام».

قال الجنرال اليقظ: «هنا على صدري يا حبيبتي».

قالت في شبه غيبوبة:

- إن كثرة النياشين على صدرك تؤلم رأسي.

- لسوف أخلع تلك السترة اللعينة.. .

وطواها بين ذراعيه، وأخذ يلتهم شفيتها في نهم.. . كانت
كمن تعيش في حلم غامض، ونظراتها الغائمة تتبين ملامح
مالوس وإبراهيم آغا، وأحلام قديمة تتمازج وتتصادم، وهي
غارقة في موجة من الإثم لا تدرك أبعادها في غمار السحب
والدخان والنشوة التي تنشرها الخمرة.. . وتمتم الجنرال بعد أن
انتهى كل شيء:

- سيدتي.. . أنت أمتع امرأة في الوجود كله.

لكنها لم تكن في حالة تسمح لها بأن تسمع شيئاً، أو تدرك
حقيقة ما حدث، ولم تستطع أن تغالب النوم الذي دهمها،
فارتمت على أريكة حريرية ناعمة.. . .

عادت هيلدا في وقت متأخر من الليل، وصحبها الكابتن
مالوس إلى بيتها.. . كانت صامته شاردة، لم تحاول أن تجاذبه
أطراف الحديث.. . ما أوسع البون بين لقائهما آخر النهار،
وصمتها الآن، مما جعل مالوس في حيرة لا يجد منها مخرجاً.. .
ماذا أصابها؟ إنها فتاة غريبة الطباع لا يمكن فهمها بسهولة.. .
ولاذ هو الآخر بالصمت.. . .

وحينما بلغت بيتها قرأ أبوها في عينيها الكثير من المعاني
الحزينة، لم يكن الرجل من الغباء بحيث يخفى عليه شيء،
وتمتم في ندالة:

- حسناً.. . لقد تأخرت كثيراً يا هيلدا، وعليك الآن أن تأوي

إلى فراشك .

ورمته بنظراتٍ نارية ، وقالت في صوتٍ تفوح من نبراته رائحة الإحتقار :

- ألم تكن تريد ذلك؟؟

قال متباليهاً :

- لا أفهمك .

- أنت تفهم كل شيء . . وماذا يكون مصير الحمل بين فكي

الذئب؟؟ لا . . لا بين ذئبين جسورين لا يرحمان .

وطأ رأسه في أسى حقيقي هذه المرة وقال :

- مستحيل أن يفعلها ديبوي . . إنه رجل محترم .

وانفجرت صائحة :

- هذا النوع من الرجال «المحترمين» لا مثيل له في الإنحطاط ،

إنهم يعبثون بأرواح البشر ، ألا يمكن بعد ذلك أن يعبثوا بشرف

فتاة ضعيفة؟ . . على أية حال إنها صورة فريدة من الإحترام

المتبادل بينك وبينه .

لم يرحمها ، لم يحترم أساها الدامي وأنوثتها الجريحة ، ومن

ثم همس :

- ولماذا لم تقاومي دفاعاً عن شرفك يا هيلدا؟؟

- ألا تعرف أنهم يسحقون أية مقاومة في أي ميدان ، وأنت

تفخر بذلك؟! ثم إنني لم أكن أشعر بشيء ، فقد أكثرت من

شرب الخمر الذي جعلتني أعبد .

وانفجرت باكية لبضع دقائق ، وأبوها واقف لا يتحرك أو

يتكلم ، ثم رفعت رأسها ، كانت عيناها محقتين كالدم ،

والدموع تغرق وجهها الغض ، وصاحت :

- لشد ما أحتقر نفسي ، لم أعد أصلح لشيء ، اللهم إلا تدعيم

مركزك لدى السادة المنتصرين .

لكأنما سدّدت إلى قلبه خنجراً مسموماً ، ولم تنتظر ردّه على

ذلك ، بل جرت إلى حجرة أمها المريضة المنعزلة ، التي لا

تكاد - لعجزها - تشارك في شيء من الأحداث الجارية ، كانت

تندفع إليها وهي موقنة أنها الصدر الحنون الوحيد الذي يستطيع

أن يسع أساها ، ويخفف من ألمها البليغ . . . وضمتها الأم

بذراعيها الواهنتين إلى صدرها الناحل ، وتمتمت الأم في صوتٍ

ضعيف خائر :

- أعرف أن أباك قاسٍ لا يرحم ، ولا يفتأ يجرّ علينا الوبال

بتصرفاته الطائشة ، ترى ماذا حدث ؟ إن قلبي يا هيلدا يتنفض

من الخوف .

وتشبّثت هيلدا بأمها المريضة ، لكأنما أصبحت من جديد

طفلة صغيرة حائرة لا ملجأ إليها من الخوف والقلق إلا صدر أمها

التي تحبها وتؤمن بها أعمق الإيمان . . ثم قالت :

- لا تتركيني يا أمي . . إنني تائهة . . أشعر بالضياع . . لا

تتركيني بحق الله .

- لا تجزعي يا حبيبي .

- إن الحياة أصبحت جحيماً لا يُطاق.

ودهمهما صوت أجش، كان أبوها بالباب يقول:

- هيلدا.. تعالي هنا.

ردّت كقطة شرسة:

- ماذا تريد بعد ذلك؟؟

- قلت أقبلي.. إنني أريدك في أمرٍ خاص، ودعي أمك الآن.

قالت الأم والدموع الحائرة تبلبل وجنتيها الشاحبتين:

- إذهبي إليه يا ابنتي.

كان عليه أن يدبر الأمر حتى تهدأ عاصفة ابنته، ويعود الهدوء إلى بيته من جديد، وشعر الرجل بإحساس المذنب العتيد، أتصل به الحفارة لهذه الدرجة؟ أيقدم ابنته لقمة سائغة في فم الوحش المفترس؟ إنها ابنته.. مستحيل!! وحاول أن يهرب من نفسه فيزعم أنه لم يكن يتوقع أن يتمادى ديبوي في فجوره، ويقطع أمل فتاته في حياة شريفة نبيلة، وأدرك أنه - على الرغم من تعلله السخيف - قواد من نوع مردول.. وثارت في رأسه الزوابع، واجتاحته موجة عاتية من التمرد، لكنه كان أعجز من أن يتحرك أمام سادته الجدد.. وأخذ جسده ينتفض أمام ابنته، ثم غمره عرق غزير، وساد وجهه شحوب ظاهر، وتنهد في حزن، وقال:

- لا شك أنه عمل شائن من ديبوي يستحق عليه قطع رقبته، وأعرف أنني أشاركه هذا الوزر، لم أكن لأتصور أن يبلغ به الحمق - وهو جنرال شهير - فيعتدي عليك ذلك الإعتداء

المشين.

وعلى الرغم مما كانت تشعر به هيلدا من حنقٍ زائد، إلا أنها أدركت الوضع الحرج الذي يقاسي منه أبوها، إن المعاناة الحادة ترسم على وجهه، وفي عينيه، وبدا محطماً كئيباً حزيناً، فأدركتها الشفقة عليه، فتمتمت وقد أطرقت برأسها حزينة:

- أعرف أنك تتعذب.

- لو استطعت أن أسفك دمه لما توانيت.

- ليس هذا هو الحل يا أبي.

- تقصدين.. إنني أدرك ما ترمين إليه، حسناً، عليه أن يصحح خطأه.. لا حل سوى الزواج.. إن برتلمي لا يصح أن يكون أضحوكة الضباط والجنود الفرنسيين.. وأنت يا هيلدا لا تستحقين هذا المصير.. لقد كنت أعدك لشيء أعظم من هذا بكثير، ومن ثم فإني أتحمّل المسؤولية كاملة.. إن ديبوي لا بدّ أن يتزوجك.. إذا كان من المقبول أن يحطموا أعداءهم في المعركة، فليس من المعقول أن يحطموا قلوب أصدقائهم.. لسوف أصل معه إلى حلٍ حاسمٍ سريع.. أي هيلدا.. إن دموعك تمزق أعصابي وتؤرقني.. كفى يا عزيزتي، إنني أضحي بكل شيء إلا أنت يا هيلدا.. ربما خيل إليك أنني أضحي بك من أجل مطامعي.. لا يا هيلدا.. إن كل شيء كان من أجلك، ولم يدرُ بخلدي مطلقاً أن أضحي بك أنت.. مستحيل أن أقصد ذلك.

وأخذ برتلمي يعضُّ على شفته السفلى محاولاً أن يكظم

دموعه - وهو العصي الدمع - ولم ينجح إلا بعد جهد جهيد، ثم وقف وأعطاه ظهره، كان يبحث عن شيء يداري به فشله، ويخفي أساه، وهل له ملجأ سوى الخمر؟؟

وحاولت هيلدا جاهدة أن ترفه عنه، وتبسط له الأمر، ومن ثم أخذت تتحدث عن ديوي وأخلاقه، وأنه لا يمكن أن يغدر بها، أو يتنكر لصلاته بأبيها، ولا شك أن الأمور ستسوى بينهما، وتنتهي إلى نتيجة يرضى منها الجميع. كانت تعلم أنها تخفف من حزنه، وكان هو الآخر يدرك أنه يحاول أن يحيل المأساة البشعة المهولة إلى مجرد صدع في مستقبلها في الإمكان إصلاحه، إنها لحظات أشبه بالمشاعر الأسرية العميقة التي كانا ينعمان في ظلالها في الماضي القريب، وبدا أن الاثنين يستطيعان جو الوهم والخداع الذي هو من صنع أيديهما، وماذا في استطاعتهما أن يفعلوا غير ذلك؟..

وقال برتلمي وهو يعبئ كأسه الثانية:

- يجب أن تذهبي لتستريح، الآن، وسندبر الأمر غداً.. سأواجه ديوي بالأمر، وإذا لم نصل إلى حل جذري، فسأرفع شكواي إلى ساوي عسكري نابليون نفسه مهما كانت النتيجة، وأنت تعرفين الدور الخطير الذي ألعبه في خدمة هؤلاء الفرنسيين، وستثبت لهم الأيام أنهم سيظلون في حاجة ماسة إليّ.

لم يكن في مقدورها أن تنام، ما أسرع ما انزلت قدمها فهوت في عالم الرذيلة والشقاء.. لقد ذابت مقاومتها، وانمحت

إرادتها، إنها أتعس حالاً ممن كن يُبعن في سوق الرقيق الأبيض، إن الأرقاء لهم شريعة، والملاك يقبضون الثمن، أما هي فقد سقطت دون مبرر من قانون قائم، ودون ثمن قبضته في يدها، حتى أبوها هو الآخر بدا تعساً شقيماً، لقد ظن لأول وهلة أنه سوف يدعم مركزه بتوثيق الصلة بينه وبين الجنرال ديوي، لكنه يدرك الآن أكثر من أي وقت مضى أنه كان ضحية خطأ فاحش وإدراك للأمور سقيم، لقد كان يتخبط ويغامر دون روية حقيقية، وأفاق في النهاية على الكارثة التي لا يعلم كيف يخفف من وقعها على نفسه وعلى وحيدته الضحية المسكينة.

لكن أيمكنه أن يطلب من الجنرال إتمام الزواج من ابنته؟؟ وهل لديه المقدرة كي يواجه الأمر بما يتطلبه من شجاعة؟؟ لقد تكلم كثيراً، ووعد ابنته بأنه سيتخذ الخطوات الحاسمة لإقرار الأمر على صورة تحفظ له كرامته، وتحمي لابنته مستقبلها، كان يتحدث آنذاك وهو في حالة من التوتر الشديد، لكنه الآن يفكر في هدوء، ويبحث الأمر من كل جوانبه دون انفعال، والمستقبل أمامه مظلم حالك السواد، وإلى جانب هذا كله الجو حار شديد التزمّت، وهو يشعر برغبة جارفة في أن يركب جواده، وينطلق في الشوارع مسرعاً كي يتنفس، إن أنفاسه تكاد تحتبس، ومأساة العجز الأبدي تعاوده من جديد، لقد كان يظن أن حالة العجز النفسي التي كان يعانيها قبل مجيء الحملة قد انتهت إلى غير رجعة، لكنه الآن برغم السلطة المطلقة، والمنصب الضخم الذي يشغله، وكلمته المسموعة لدى الكبار، برغم كل هذا

يستشعر الليلة مزيداً من العجز الذي يسحق كبرياءه، ويسخر من أوهامه.. فإذا بقي على هذه الصورة من العجز الفاضح فلسوف يُصاب بلوثة من الجنون، إنه يمارس سلطاته، وينفذ إرادته بالنسبة للمواطنين التعساء، يلهب ظهورهم بالسياط، ويسوق بعضهم إلى السجن، ويأمر بقطع رقاب البعض الآخر، ويشير الإرهاب والرعب في شوارع القاهرة وأزقتها، لكنه - مع كل ذلك - يقف أمام ديوي كالفار المذعور، يرتعد ولا يستطيع أن يدفع نفسه دفعاً كي يواجه الجنرال الكبير بالحقيقة.

وشعر برغبة جارفة في البكاء..

لكن أيمن أن يبكي برتلمي كما يبكي باقي الناس؟..

وكانت الكأس أسبق إليه من دموعه، فأخذ يترع من الخمر دون هوادة، وعندما بلغ قمة النشوة، أخذ يبكي ويضحك في نفس الوقت، ويتكلم بصوت مسموع، ولم يكن بقادر على أن يستمع إلى أنين زوجه المريضة واستغاثتها المتكررة..

وبعد فترة من الزمن لا يدري أطالت أم قصرت، رفع عينيه ليرى هيلدا واقفة أمامه، والدموع تنهمر من عينيها، ومن بين دموعها كانت تقول:

- إن أُمِّي تحتضر يا أبي..

وجهد في مكانه، وكسا الشحوب وجهه، وتمتم:

- ماذا؟؟

قالت وهي ترتجف:

- إنها هناك.. تلفظ أنفاسها الأخيرة، وليس إلى جوارها سوى

المرأة العجوز.. الخادمة.

هرول إلى الداخل كالمجنون، رأى زوجه على صدر المرأة العجوز، عيناها واسعتان زائغتان، العرق الغزير يبلل جبينها الشاحب، وصدرها يعلو ويهبط، كمن تجتاز سباقاً مجهداً عنيفاً، وهمست الأم دون أن تُعير زوجها أدنى اهتمام:

- هيلدا.. تعالي.. هنا.. إلى.. جوارِي.. أريد أن.. أقبلك.. يا حبيبتِي.. إن.. قلقي.. عليك.. يعذبني.. لكن الله كبير..

وأخذ برتلمي يهتف باسمها، لكنها كانت تنظر إليه عاتبة دون أن تتكلم، وطبعت على جبين هيلدا قبلة مرتجفة، وحاولت أن ترفع ذراعيها لتضمها إليها فلم تستطع، ثم أغمضت الأم عينيها لآخر مرة، بينما انقضَّ عليها برتلمي مهتاجاً:

- أي زوجتي.. رُدِّي عليّ.. تكلمي.. مستحيل أن يحدث هذا.. ما معنى أن تموتي هكذا تحت سمعي وبصري دون أن أفعل شيئاً؟.. توسلي إليها يا هيلدا أن تتكلم.. أهكذا نعجز عن فعل أي شيء من أجلها؟؟ ثم أخذ يتحبب باكياً كامراً ثكلى..

وهمست هيلدا، والدموع تغرق وجهها:

- لقد فات الأوان..

القاهرة يلفها الإنتظار الحزين المتوتر، ومع ذلك فقد عادت

إليها الحياة النشطة من جديد.. الباعة المتجولون يروحون ويجيئون ويدللون على بضائعهم بأصواتهم المرتفعة، وعباراتهم المسجوعة المنغمة، والمحلات التجارية قد فتحت أبوابها، وحاملو القرب يوزعون الماء على البيوت، والنيل العظيم يمتد عملاقاً جباراً قاتم السحنة، وبعض العامة يرددون كلمات فرنسية لا يتقنون نطقها، والمنشورات والأوامر الجديدة يتناقلها الناس، والديوان يجتمع ويتحدث باسم الغزاة ألف مرة، وباسم الجماهير الحزينة مرة واحدة، والشيخ السادات لا يفتأ ينشر آراءه تارة، ويكتمها تارة أخرى، لكن المعروف لدى الجميع أنه يتحرق شوقاً ليوم الثأر من هؤلاء الكفرة الخبثاء، والناس يتحدثون عن برطلمين أو فرط الرمان الذي طار صيته في الآفاق، ويروون الكثير عن مظالمه، وبشاعة تصرفاته، وانتقامه المستمر من مناوئيه القدامى، ويهمسون: «ليته مات بدلاً من زوجه الطيبة».. وآخرون يتكلمون عن فساد أخلاق الفرنسيين وانحلالهم، وإقدامهم على الجرائم الجنسية في بساطة غريبة، ولم يغب عنهم أن بنت فرط الرمان «الحلوة» قد اندمجت في الجو الفرنسي، حتى بدا وكأنها واحدة من بنات باريس الخليعات، وإن لم يدركوا أبعاد إنهارها الحقيقي، وآخرون ما زالوا يتحدثون عن مقاومة المماليك المتهافتة في الصعيد والشرقية، وغيرهم لا يفتأون يكررون أن السلطان في الآستانة لا بد وأن يتحرك لنجدتهم في وقت من الأوقات، وكان كثير من الحديث يدور عن الضرائب الجديدة التي يفرضها القائد المنتصر.. يا للأساة..

دائماً يطلبون المال.. سواء أيام المماليك أو أيام الفرنسيين.. وعلى الشعب أن يعتصر قواه وعمره ولياليه الجافة المظلمة كي يقدم المال.. إن نابليون وعساكره يريدون العوض عما بذلوه من نفقات، ويريدون أن يحيوا الحياة اللائقة بهم كغزاة منتصرين، وكحكام أقوياء، وبالطبع يريدون الإستعداد التام للمعارك المقبلة التي قد تطول في أطراف البلاد وعلى الحدود، ولا بد أن يكون هناك نبع دائم للإمداد بالمال والطعام، وعلى المهزوم أن يقدم كل ما يطلب منه، لسبب بسيط معروف.. إنه مهزوم وهذا يكفي..

والحاج مصطفى البشتيلي ما زال في بولاق، لم تفارق قلبه الحسرة من أجل خطيب ابنته الذي دفع حياته في لهيب المعركة عن طيب خاطر.. والشيخ علي الجنجيهي في مكانه المعتاد إلى جوار الحاج، ومعهم الشيخ إبراهيم سلامه.. أما مكان أحمد المدبولي فقد أصبح شاغراً، وكثيراً ما كان الحاج مصطفى يردد: «لقد هرب تاجر البارود عندما اشتدت الحاجة إلى باروده».. والجنجيهي لا يفتأ يقرأ القرآن، لكن نبراته في هذه الأيام تحمل إيحاءً حزيناً دامعاً، وخاصة أنه يختار الآيات التي تتحدث عن الاستشهاد واحتمال الأرزاء والنكبات في صبر وإيمان.

وقد قضى الحاج مصطفى فترة لا يغادر فيها بيته، كان يلزم داره يقرأ القرآن، أو يستقبل الأصدقاء.. وانطفاً قنديل الدعابة والمرح، وحل محلّه العبوس والتفكير العميق، والتنهدات

المؤلمة، والذكریات المختلفة، وحكايات التاريخ الكثيرة المماثلة. . . إنهم يجترُّون أحداث الزمان ليتلقوا منها العبرة، ويبلغوا من خلالها إلى بعض النتائج التي يحلمون بها. . . الشيخ إبراهيم سلامه يذكر لهم وقائع الصليبين في مصر وبلاد الشام واحتلال بيت المقدس، والحروب العنيفة التي استمرت سنين طويلة. ثم يعود ليتحدث عن المغول والتتار، وقد هدموا بغداد، وخربوا المدن وحرقوها، وأتوا من الشنائع ما لا يتصوره عقل. كان الشيخ إبراهيم يتحدث ويروي الكثير من التفاصيل، والكل له سامعون، وكان حديثه في آذانهم أشهى من الطرب والنغم. . . ويختلط الشعر بالنثر في الملاحم التي يرويها، ويخلص في النهاية إلى أن الصليبين اندحروا مهزومين أمام صلابة صلاح الدين، وشعب مصر العظيم، وأن المغول ارتدُّوا على أعقابهم خاسئين، وكثيرون منهم اعتنقوا الدين الإسلامي وذابوا في مجتمعه الكبير، وبقيت كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى - على حد تعبير الشيخ إبراهيم سلامه - . .

أجل، الشيخ يروي. . . والرجيلة تكرر، والأحلام تمتزج بالحقائق. . . وزينب المسكينة في داخل البيت تقف في مكان حرج بين العقل والجنون. . . والحسين - قد صقلته التجربة المريرة - يجلس مع رفاق أبيه صامتاً يستمع، وملامح وجهه تتحدد أكثر وأكثر، وتصرفاته تتسم بسيماء الرجولة الصامدة المترقبة. . . والأم تضع كفها على خديها شاردة بنظراتها إلى

المستقبل المجهول. . .

وذات مساء، قال الحاج مصطفى لأصحابه:

- إلى متى نظل هكذا كالأسرى في بيوتنا؟

قال الجنجيهي:

- ولماذا نخرج إلى الشارع والزيارات؟؟ لقد ساءت الحال،

وتبدلت الأمور، وأصبحنا كالغرباء في بلدنا، وعيون الفرنسيين

في كل مكان، والفتن - نجّانا الله منها - تسود أنحاء القاهرة،

وبرطلمين يتفرعن. . . في مثل هذه الأحوال يا حاج مصطفى،

على العاقل أن يلزم بيته.

وقال الشيخ إبراهيم سلامه:

- في رأيي يجب أن نمارس حياتنا العادية، لأن معنى كلمات

الجنجيهي أن نسجن أنفسنا ما دام الفرنسيون يحتلون البلاد،

وهذا مستحيل.

وأردف الحاج مصطفى:

- إن ما تقوله هو الصواب، يجب أن نخرج إلى الشارع لنرى

الناس، ونسمع شكاياتهم، ونلّم بمشاكلهم. . . في مثل هذه

الأزمات، يجب أن يقترب الناس ويتناقشوا ويتلاحموا. . . إن

ترابط الجميع يخفف الكثير من المآسي، ويخلق لها الحلول

المناسبة. . . ثم. . . أعني أن المعركة لم تنته بعد. . . ألا يجوز أن

نلتقي بالشيخ السادات ونسمع رأيه؟؟ وميألة الضرائب

الجديدة، ألا تستحق منا المناقشة والدراسة؟؟ إن الناس في

ضنك، والتجارات الخارجية توقفت أو كادت، وحالة الناس

المعيشية لا تسرّ، وإذا لم يكن في الإمكان هزيمة الفرنسيين الآن، ففي الإمكان - على الأقل - وقفهم عند حدهم، أليس كذلك؟ ..



وخرج الحاج مصطفى عن عزلته وصمته في الأيام التالية، وأخذ يمارس تجارته كالمعتاد، ويلتقي بالشيخ السادات، وبالشيخ الجبرتي المؤرخ المعروف، وبعض أعضاء الديوان.. وكان سعيداً إذ رأى الناس كالعهد بهم، لم يفقدوا الأمل، أو يستسلموا للهزيمة، ما زالوا يتحدثون عن المقاومة، وطردهم الفرنسيين، والخلاص من مظالمهم وعنجهيتهم، «المعدن الأصيل لا يأكله الصدا، أو يفنيه التراب»، هكذا كان يردّد الحاج مصطفى في ثقة وأمل، كان يقول لأصحابه :

- عندما يجد العدو أن خسائره أكثر من مكاسبه، وأنه يعيش في خوف وتوجّس، وأنه لا سلام ولا أمن، ولا ثقة بينه وبين المحكومين، فإنه - إن عاجلاً أو آجلاً - سوف يحمل عصاه ويرحل.. وعلينا أيها السادة، أن نجعل العدو يخسر دائماً.. يخاف دائماً.. يشعر أننا نكُنُّ له العدا، مهما طال الزمن، ومهما فعل...

لكن عينيّ زوجة الحاج مصطفى كانتا ترقبانه في لحظة، وترصدان حركاته وسكناته، لأنها إن غفلت هذه المرة فقد تفقد زوجها أو ولدها أو كليهما.. إن مأساة خطيب ابنتها لم تنزل

تورثها الحسرة والهموم، مأساة مستمرة ما دامت زينب تبكي وتأرق وتتصرف تصرفات توحى بالخوف والخطر المحدق.. وواجهت الزوجة زوجها بصراحة :

- يا حاج مصطفى، لقد بدأت تمارس هوايتك الخطرة من جديد.

أجابها بقوله :

- تعقّلي يا امرأة.. إن ما أفعله شيء يسري في عروقي وروحي.. قد أستطيع الإستغناء عن الطعام والشراب، لكنني لا أستغني عن حريتي وكرامتي.. أتفهمين؟؟ بغير هذه المعاني لا يكون الرجل رجلاً، يجب أن تدركي ذلك، أما الخوف فهو عار، وأما الموت فلا نجاة منه، إنه نهاية كل حيّ، ورحم الله أبا الطيب المتنبّي :

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن تموت جباناً وهمست في حزن :

- أمصر أنت عليّ ما تقول؟

- بالطبع..

- عوضني على الله.. لقد كتب علينا الشقاء، إنه قدر، ولا مفرّ من ذلك.

وتمتم في ذهول :

- رحلة العمر - مهما طالت - قصيرة.. آه من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق.. كما يقول الإمام عليّ - كرم الله وجهه - .

أجابته زوجته بقولها:

- دائماً تتحدث عن الأقدمين، لقد كانوا في زمانٍ غير زماننا، وكان الرجال غير الرجال..

- المبادئ التي عاشوا في ظلّها ما زالت حيّة، لكننا نجبن عن تحمّل المسؤولية.. قلبي يحدثني أن الفرنسيين لا بد راحلون، وأنا بعون الله منتصرون. أجل.. لكننا قد ندفع الثمن غالياً.. لا بأس، لأن تكاليف الجهاد باهظة..

وفي الليالي المسهدة الطويلة، كانت تجلس زوجة الحاج مصطفى تنتظر عودته.. ترى هل يعود؟؟ والقلق والخوف يعذبانها، وصور المستقبل الغامض تتشابك وتتلوّن بشتى الألوان والإنفعالات؟. وتأتي زينب إلى جوار أمها وتقول:

- سمعت أن خطيبي سوف يدخل الجنة.

- أجل يا حبيبتى.

- ما الذي يؤكد ذلك؟

- وعد الله...

- أي وعد يا أمي؟

- لقد وعد المجاهدين في سبيله، والذين يستشهدون في معركة الحق، بأعظم الثواب...

- تتكلمين كما يتكلم أبي.

- أبوك صادق، وعلى حق يا زينب، لكننا بشر يا حبيبتى،

وحب الدنيا متغلغل في صدورنا.. إننا أضعف من أن نؤمن مثل إيمانه، أو مثل إيمان مصطفى...

وافترّ ثغر زينب عن ابتسامة غريبة وقالت:

- إذا كان هذا الطريق هو الوسيلة المضمونة للجنة، فلماذا لا يهرع الناس جميعاً إليها يا أمي؟؟ يخيل لي أن خطيبي مصطفى قد اختار لنفسه نهاية رائعة، وإن ترك لنا الحسرة والأحزان..

وتبللت وجنتاها بالدموع وهي تقول:

- أيمكن أن ألتقي به في الجنة، إذا كتبها الله لي؟؟

قالت الأم:

- ولم لا؟؟

وعاودها الإبتهاج الغريب وقالت:

- إنها فكرة رائعة، وأمنية غالية.

وأدركت الأم أن فتاتها تتماهى في أحلامها الخطرة، وتعبّر عن اضطراب كبير.. إن الصدمة التي سقطت على رأسها تغيّر من تفكيرها وسلوكها، وتجعلها تبدو على حافة الجنون.. وبينما الأم تفكر في أمر زينب التعسة، سمعتها تقول:

- إنني أنتظره كل مساء لدى النافذة..

دقّت الأم على صدرها في خوفٍ وقالت:

- ماذا؟؟؟ تنتظرينه؟؟ لقد انتهى الأمر وودّع الدنيا، يجب أن

تدركي هذه الحقيقة، مهما كانت مرارتها وبشاعتها.

فاستطردت زينب قائلة، دون أن تلقي إهتماماً يُذكر لكلمات

أمها:

- يقولون أن الأرواح لا تعرف الحواجز والحدود.. إنها تقطع

آلاف الأميال في ثوانٍ معدودات، وتخرق الحُجب، ولا تكثر

بزمان أو مكان.. وأنا أعرف أنه كان يحبني.. وأن روحه
لا شك تحوم الآن من حولنا.. إنني أكاد أراها بوجداني..
ورفعت رأسها ثم ركزت بصرها على سقف الحجرة، وأخذت
تدور بنظراتها باحثة عن شيء غالٍ عزيز، ولهفة غريبة ترتسم
على وجهها الشاحب الوسيم.. وصرخت أمها:

- زينب..

- ماذا يا أمي؟؟

- هل جنت؟؟

- لا يا أمي.. إنني بخير..

ودوت صفعة على وجه زينب، فانتفضت كمن تفيق من حلم
رهيب، وقالت من بين دموعها:

- لم أفعل ما أستحق عليه كل هذا.

نهرتها أمها قائلة:

- خست أيتها الملعونة.. ألا يكفي ما حدث؟! تريدين أن
يضحك علينا الناس ويقولون: إبنة مصطفى البشتيلي أصابها
الجنون حزناً على فتاها.. ثم يتصورون تصورات سخيفة لا مبرر
لها؟! يجب أن تدركي أن الموت حق.. مات مصطفى كما مات
آلاف مثله، وكما سيموت الآف.. وكما ستموتين أنت في يوم
من الأيام.. ولو حزن الناس على الموتى كما تحزنين، لما
ارتسمت إبتسامة واحدة على الشفاه..

وهزت زينب رأسها في أسى وقالت:

- تعنين أنه لا بد أن أنساه..

- كل ما أعنيه هو أن تكوني فتاة عاقلة، تحزنين كما يحزن
الأسوياء من الناس، أما الإفراط والتمادي فإنه يقود إلى
الهاوية.. والحقيقة يا ابنتي الحبيبة، أن كل ما يفعله البشر من
مراسم الأحزان - مهما بالغوا فيها - لن يردّ ذاهباً إلى الحياة مرة
أخرى.

وتمتت زينب، وقد أدركت ما ترمي إليه أمها من معنى بعيد:

- أجل يا أمي.. لكنني في بعض الأحيان أشعر أن آلامي

أقوى من إرادتي.. ولهذا أنهار على الرغم مني..

- إنني أعذرك يا زينب، لكن إلى متى؟؟ إن أباك يقاسي من

أجلك، والحسين يرمقك بعين قلقة، وأظن أنه من القسوة ألا

نرحم بيتنا الصغير من الإنفعالات الشديدة.. يكفي ما تخبئه لنا

الأيام من أشياء لا يعلمها إلا الله..

فوجئت الأم بصوتٍ ينطلق من خلفها سعيداً رناناً:

- وهل تخفي لنا الأيام إلا كل عظيم؟..

- من؟.. الحاج مصطفى؟.. بسم الله الرحمن الرحيم..

- إنه أنا..

- ماذا جرى؟

كانت أسارير وجهه تعبر عن السعادة القصوى، ويتحرك في

رشاقة وسرعة كأنما قد عاد إليه الشباب من جديد.. وقال في

ثقة:

- لطالما قلت لكم، إنهم بشر مثلنا.. قد ينهزمون وقد

ينتصرون.

- الفرنسيون؟؟

- بالطبع، لقد حلت بهم كارثة مدمرة.

- يبدو من كلماتك أن السلطان قد أرسل النجدة، أو أن المماليك قد عادوا وهاجموهم...
وقف منتصب القامة وقال:

- لا هذا ولا ذاك... لقد استطاع الأسطول الإنجليزي - بإرشاد بعض البحارة من المصريين - أن يطبق على الأسطول الفرنسي في أبي قير، وأن يدمره عن آخره... لقد قُتل الأميرال برويس قائد الأسطول... يقولون أن الكارثة هزّت أعصاب نابليون، وأخرست كبار ضباطه، والرعب يسود معسكر الفرنسيين... لقد وقعوا في فخ لا يرحم... إننا نحيط بهم من كل جانب، وهم بلا أسطول يحميهم... ثم إن فداحة الهزيمة تحطم من روحهم المعنوية... وإذا كان هناك وقت مناسب للثأر منهم، وطردهم خارج بلادنا، فسيكون الآن... إن الثورة يجب أن تشتعل في كل الأرجاء.

قالت الزوجة وقلبها يدق:

- ولماذا لا يكون ما تقوله مجرد شائعة كعشرات الشائعات التي تنطلق من آنٍ لآخر من عساكر السلطان القادمين من الشرق والشمال؟؟

وانفجر الحاج مصطفى ضاحكاً، ثم قال:

- هذا عين ما قاله الفرنسيون... إنها مجرد شائعات كاذبة، وسيقطعون لسان كل من يروّجها... وفعلاً قبض برطلمين

الملعون على عددٍ من الأبرياء، وخيروهم بين دفع الفدية أو قطع ألسنتهم... وهذا، يا زوجتي، ما جعلني أفكر في التصديق، ثم جاء شهود عيان من الإسكندرية يروون ما حدث... وفي أوروبا يتحدث الناس عن كارثة البحرية الفرنسية، وفي مصر من يتحدث عنها يُقطع لسانه...

وأرادت زوجه أن تطفئ من حماسه، وفي نفس الوقت ترفه عن زينب التي شدّت لها الأنباء الجديدة، فأخذت تستمع في لهفة... قالت الأم:

- إنه نصر لا دخل لك فيه...

- تأبين إلا أن تثيري حفيظتي... ألم أقل لك أن رجالنا كانوا يرشدون السفن الإنجليزية؟... وعلى أية حال، فإن دورنا في المعركة لم يكن في صالح الفرنسيين، يكفي أننا لم نؤازرهم، والفلاحون في البحيرة والصعيد يفتكون بالغزاة المتقدمين في كل فرصة تسنح... إن عدم تعاوننا مع الأعداء لا شك كان سبباً من أسباب هزيمتهم الصارخة...

ثم استطرد بعد فترة صمت:

- وفي يوم الخلاص الأكبر ستكون نهايتهم على أيدينا... إننا نتركهم لتتخطفهم الغربان من كل صوب، ثم نجهز عليهم الإجهاز التام.

قالت الزوجة مداعبة:

- حذار أن تتحدث في هذا الموضوع ثانية... فلست في غنى عن لسانك، وليس معك ما تدفعه فدية.

قال الحاج مصطفى :

- آه يا زوجتي البلهاء .. الحقائق تصرخ بأعلى صوتها ..
الحقائق لا يمكن كتمانها، لأنها أقوى من الأسوار والسيوف
وبطش الجبابرة ..
وانتشت زينب بعض الشيء .. إن الثار من السفاكين يبرد من
حرارة وجدها المشتعل المحروم ..

١١٦

وقع برتلمي في ورطة، هكذا تؤكد الحوادث الجارية، لكنه
يبحث عن حل .. لقد استولت على تفكيره تلك المأساة الفردية،
مأساة ابنته .. لتذهب جيوش الفرنسيين إلى الجحيم، الذي
أشعله الأسطول الإنجليزي في البحر الأبيض .. إنها مجرد
معركة واحدة خسرها الفرنسيون، ولم تزل لهم القوة .. مثل
هذا الحدث - برغم ضخامته - لا يصح أن يقف عقبة في طريق
مستقبل «هيلدا».

وشق برتلمي طريقه إلى «بركة الفيل» قاصداً ديبوي .. إنه لا
يرتجف هذه المرة، إن لديه من الشجاعة ما يجعله ينسى كل
شيء - ولو للحظات - من أجل شرف وحيدته ومستقبلها، وليكن
ما يكون .. وعندما دخل القصر الكبير، قاده مالوس إلى قاعة
الإستقبال الفخمة .. كان ديبوي يجلس وحيداً وقد ركز خذه على
قبضته اليمنى، وبدأ عليه أنه غارق في تفكير عميق، ثم رفع
رأسه وكأنه يفيق من حلم، وتمتم :

١١٦

- طاب صباحك يا برتلمي ..

وتصافحا، ثم جلسا صامتين بعض الوقت، وأخيراً قال
ديبوي :
- إنني أشم رائحة الغدر من المصريين، والمصائب لا تأتي
فرادى.

وقال برتلمي :

- إن تحرك المصريين معناه القضاء عليهم، ثم إنهم أضعف
من أن يجابهوا قواتنا المنظمة الضاربة، ولعل الشيء الوحيد
الذي أربك خططنا هو نكبة أسطولنا في البحر الأبيض، ومع ذلك
فإن مثل هذه الخسارة الفادحة في الإمكان تداركها، وهي تحتاج
لبعض الوقت ..

تنهد ديبوي في حيرة :

- هذا ما يزعمه نابليون، الذي يُبدي إستخفافاً بالأمر، وإن
كنت واثقاً أنه أصيب بصدمة نفسية من جراء النكبة.
وسادت فترة صمت، قال بعدها ديبوي :

- هل عندك جديد من الأخبار؟

- لا شيء يُذكر .. مخبرائنا تؤكد أن الشيخ السادات يلعب
بذيله، إنه رجل داهية، من العسير إجتذابه إلى صفوفنا، وهو لا
يكف عن تعبئة الشعور ضدنا، ومع ذلك فإن رأي ساري عسكر
ألا نصيبه بأذى، وأن نكتفي بمراقبته، وإبطال مفعول سمومه
بشتى الطرق ..

وتوقف برتلمي برهة، ثم قال فجأة دون مقدمات :

١١٧

- سيدي .. إن ما يشغلني هو أمر آخر في غاية الأهمية.

- ماذا تعني؟؟

- جنرال ديبوي .. أنت تعلم أن هيلدا ابنتي الوحيدة ..
وتعلم أيضاً ما أقدمه لجيش فرنسا من خدمات .. وأنت كضابط
عظيم ، ومحارب مشهود له لا يمكن أن تتخلى عن نبلك وشرفك
العسكري ..

قال في دهشة:

- أكاد لا أفهمك يا برتلمي ..

قال برتلمي موضحاً:

- أنت عاشرتها معاشرة الأزواج، وهذا يعني أنها لا بد أن

تكون زوجتك ..

وذهل ديبوي، لم يكن يتوقع أن تجري الأمور على هذا النحو
السخيف .. إنها فتاة جميلة أحبته، وبادلته الهوى، ففضى معها
أويقات جميلة دون تحفظ، ودون أية شروط مسبقة .. لقد
سلمت له نفسها دون قيد أو شرط، وكذلك - على ما يظن - بدت
رغبة أبيها .. وفي باريس وإيطاليا وغيرهما كان يفعل ذلك لمجرد
المتعة .. وقال ديبوي في شيء من الضيق:

- كلامك يحمل صيغة الأمر يا برتلمي، ولهذا أرفضه.

قال برتلمي وقد سال على جبينه عرق غزير:

- عفواً سيدي الجنرال، إنني لا أمرك، ولكنني أرجو وألح في
الرجاء، أعلم أن ابنتي لا ترقى إلى مقامك السامي، وأنه زواج
قد يكون غير متكافئ، لكن تصرفك معها قد محا كل تلك

الإعتبارات الهامة ..

إبتسم ديبوي متوتراً وقال:

- لشد ما تأثرت بالشرقيين يا برتلمي، إن هذه مسألة عادية جداً
في فرنسا، ألا تعلم ذلك؟؟ ومع ذلك فإن الزواج مسألة هينة ..
قال برتلمي في مرح ظاهر:

- شكراً يا سيدي، هذا ما توقعته، لسوف أظل أحمل لك هذه
المكرمة طوال حياتي، ثم إنه شيء رائع أن تتزوج ابنتي رجلاً عظيماً
مثلك ..

وهم برتلمي بالقيام ليقبل يد ديبوي، غير أنه بقي في مكانه
حينما سمعه يقول:

- يبدو أنك لم تفهمني كما يجب يا برتلمي ..

- ماذا يعني سيدي؟؟

- أعني أن في إمكاني أن أدبر لها زواجاً من أحد ضباطي
الحديثي السن .. أنت تعلم أنني متقدم في السن، وليس هناك
تناسب حقيقي بيني وبينها، إنها مثل ابنتي، والأهم من هذا كله
هو أنني ... متزوج.

وشحب وجه برتلمي وصاح في غضب مكبوت:

- ماذا؟؟ متزوج؟؟

- أجل، وزوجتي في باريس .. والمسيحي المؤمن لا يتزوج
إلا واحدة ..

تساقطت الدموع من عيني برتلمي على الرغم منه، لقد انهار
تماماً، ولكنه عاد وأسرع بمسح دموعه، وعزَّ عليه أن يبكي ..

«لا.. لا يصح أن أبكي.. إن الجبار الذي أذل الرجال ومحق
المتمردين، من العار أن يبكي.. إن سطوتي تعرفها شوارع
القاهرة وبيوتها العريقة، وضرباتي الساحقة قد تردّد صداها في
آفاق مصر والخارج... وديبوي سأستطيع أن أسوي حسابي
معه.. إن عجزى هذه المرة عن أن أفعل شيئاً عجز مؤقت،
سوف أتبعه بضربة مأكرة تقضي على ديبوي الذي استباح كبريائي
وشرفي، وحطم قلب ابنتي.. فإن انتصرت فيها ونعمت، وإن لم
أنجح فيكفيني أنني تمرّدت على عجزى، وحاولت الثأر من ذلك
الذئب القادم من وراء البحار.. من ذلك المسيحي (المؤمن)
الذي يرعى قدسية الدين، ويرفض الزواج بأكثر من واحدة...
وأفاق من شروده على صوت ديبوي:

- أعترف أنني شاركت بعض الشيء في الخطأ، وتحمل
المسؤولية أمر لا بد منه، وسأقوم بواجبي كمواطن شريف
بالطريقة التي أراها تصلح لذلك.. إنني لم أبعث بالجند لجرّ
ابنتك إلى بيتي.. لقد أتت بمحض إرادتها... إنني أمتلك من
الجواري البيض والسود ميراثاً كبيراً تركه لي المماليك.. والنساء
كثيرات وبلا ثمن.. أنت تعلم ذلك.. إن هيلدا رائعة الجمال يا
برتلمي، ولسوف يركع ضباطي تحت أقدامها، وإنني لأعدك
بترقية أي ضابط يتقدم بطلب يدها، وأظن أن ذلك سوف يحدث
في وقت قريب، فلا تحمل همّاً...

ثم استطرد:

- الأهم من ذلك كله أن تبقى علاقتنا على خير ما يرام...

وأدرك برتلمي أن مثل هذا الحادث قد يعكر الصفو بينهما،
وبالتالي سيؤثر على وضع برتلمي كرجل ذي مكانة، وبهذا يفقد
شرف ابنته بالإضافة إلى منصبه الكبير.. ثم إنه قد بيّت في نفسه
أمراً، ولا بد أن يحاول إخفاء نواياه حتى يبلغ هدفه، ثم يبقى
على مكانته، ويعثر على الزوج المناسب لفتاته.
واصطنع برتلمي إبتسامة كبيرة، وقال:

- سيدي.. إن مصلحة فرنسا فوق كل اعتبار.. لقد نذرت
نفسي قرباناً لحكومة الدير كتوار العظيمة، وللقضاء على كل
أعداء فرنسا.. أما مشكلة «هيلدا» فهي في منتهى التفاهة، ما
دمت قد وعدت بحلّها بالطريقة التي تراها مناسبة...

وبدا الإرتياح على وجه الجنرال ديبوي وهو يستمع لكلماته..
لم يكن يأخذ كلمات برتلمي من قبل مأخذ الجد، لأن ديبوي
يعرف جيداً من هو برتلمي، ولا يخفى عليه أنه عميل رخيص
مهما كان الأمر، وإن حُسن علاقته به أمر ضروري لسير الأمور في
مجرها الطبيعي.. ففي إمكان ديبوي أن يبصق في وجهه،
ويصرخ فيه: «إذهب أنت وابنتك إلى الجحيم».. لكنه كان واثقاً
أنه لا داعي لشيء من هذا القبيل.

وسرعان ما أدار ديبوي دفة الحديث:

- كن على حذرك يا برتلمي.. إفتح عينيك جيداً.. إنني على
خبرة تامة بما يحدث عندما يُصاب جيش الإحتلال بنكسة.. إن
القوى المضادة تتجمع، وتجد فرصتها الذهبية قد حانت...
قال برتلمي، وهو يحاول أن يبعد شبح هيلدا من رأسه:

- أعرف ذلك جيداً الآن، وقد تم القبض على تسعين رجلاً من المماليك الهاربين، ولسوف أنفذ فيهم حكم الإعدام فوراً وبنفسي... إن الضربات السريعة الماحقة تبعث الرعب في قلوب الشعب، فيستكين ولا يرفع في وجهنا سلاحاً...
- حسناً... هذا ما يجب أن يكون.

تنهّد ديبوي في ملل، وأدرك برتلمي أن وقت الرحيل قد حان، فجمع أشتات نفسه المبعثرة، وخرج رافع الرأس، شامخ الأنف، وفي قلبه مراجل من الغضب تثور وتغور كبركان هائج...



وما أن توارى برتلمي عن الأنظار، حتى صاح الجنرال ديبوي طالباً الكابتن مالوس...
وسرعان ما أتى مالوس وأدى التحية العسكرية ووقف جامداً لا يتحرك.

قال ديبوي:

- لا تحاول أن تنكر شيئاً... أعرف أن هناك علاقة ما بينك وبين هيلدا.

قال مالوس في ذعر:

- سيدي...

- لا تقاطعني يا كابتن... أنا لم أتضايق أو أحزن عندما علمتُ بالنبأ من أحد رجالي... لقد سعدت أيما سعادة... وأنا لا أخدعك أو أغررك يا مالوس، ولا أحاول إستدراجك...

- لكني يا سيدي لم أقدم على شيء من هذا القبيل... لقد كنت أؤدّي عملي بشرف، ودون غرض خبيث في غيبتك، وعند إيصالها لمنزلها، وأقسم على ذلك...
سدّد إليه ديبوي نظرات حادة لا تلين، وقال:

- إفهمني... أنا لا أريدها... بل أتمنى التخلص منها على وجه السرعة، وهذا لا يتم إلا بعملية إحلال... إن الفراغ الذي سأتركه لديها يجب عليك أن تملأه فوراً من أجل المصلحة العليا... أنت تدرك أهمية أبيها بالنسبة لنا، ولهذا أمرك بأن تهرول الليلة إلى بيتها... إنه أمر واجب التنفيذ، وسأعتبرك قد نجحت في مهمتك عندما تقطع زيارتها لي... أتفهمني؟؟ ثم إنها فتاة لطيفة رائعة الجمال، وأظنك في حاجة لأن تقضي معها أوقاتاً طيبة... لا أريد مزيداً من المناقشة أو الاعتراض، والأحداث يا مالوس تتحرك بسرعة، وكارثة الأسطول لم تبرد نيرانها بعد، ولسنا في حاجة إلى مشاغل جانبية، أو جبهات داخلية تستنفذ فيها قوانا، نحن في حاجة إلى السرعة والتركيز، والقضاء على المشاكل الصغيرة...
كان قلب مالوس يدق... الفتاة رائعة وجميلة، ولكم تمنّاها لنفسه منذ أن رآها، ولكم حلم بها، وتصوّر لقاءاته معها تصوّراً دقيقاً ملحاً، لكن الذي يؤلمه ويحزّ في نفسه هو أنه يتلقف فتات المائدة العامرة التي يتناول عليها الجنرال أطيب الطعام... ومع ذلك فهو جائع، وفي حاجة ماسّة إلى الطعام... ولو كانت فتات المائدة... ثم إنه يؤدي دوره بتكليف، ومن أجل مصلحة عليا... وتمتم مالوس وهو يرتجف:

- أمر سيدي .

- إن مهمتك ستكون سهلة على ما يبدو . . لقد علمت أن الفتاة تميل إليك كل الميل ، على الرغم من تحفظك الظاهر . .
- هذه مسألة ثانوية . . إن ما يهمني هو أمر سيادتكم .
وقال ديبوي بصوت هاديء مضطرب على غير عادته :
- إنصرف . .

فأدى الكابتن مالوس التحية العسكرية ، وانصرف . . .

١١٨

كانت زوجة الحاج مصطفى البشتيلي في أشد حالات التعاسة ، إنها تتوقع دائماً كارثة من أي نوع ، هذا الإحساس هو الذي يعذبها ، ويحيل حياتها إلى جحيم . . ويبدو أن ذلك كله يُعزي إلى اليأس العنيف الذي يخالط مشاعرهما وأفكارهما ، إن هؤلاء الشياطين الفرنسيين - بآلاتهم الجهنمية - من العسير أن يُهزموا ، ذلك ما وقر في ذهنها ، وازدادت تعاستها شدة وهي ترى زوجها يغرق في جو العمل والإستعداد للمشاركة الفعلية في ثورة لتدمير قوى الشرّ والعدوان . . وكانت توقن أن عاطفة زوجها تطنى على تفكيره ، وأنه لا يقدم أمام نفسه حساباً دقيقاً للموقف . . واهتز زوجها إزاء سؤال محرّج ألقته عليه ، لقد قالت :

- ألم تفكر في العقابة إذا ما حاقت بكم الهزيمة مرة ثانية؟؟

كان سؤالاً دقيقاً خطيراً ، على جانب كبير من الأهمية ، هذا ما

تبادر إلى ذهنه ، ولم تكن خطورته نابعة من خوفه على نفسه وأسرته ، وإنما الذي جعله يفكر هو أثر الهزيمة - لو حدثت - على ملايين البشر في مصر كلها . . . وعادت الزوجة تقول :
- العقلاء يفكرون في احتمالات الهزيمة قبل احتمالات النصر .

أجابها بقوله :

- الحقيقة أنك تتفلسفين بطريقة معقولة .

- لا أعرف الفلسفة ، ولكني أقول ما يختلج في صدري .

- حسناً . . لو فكّر الفرنسيون في احتمالات الهزيمة ، لما عبروا البحار وقطعوا المسافات الشاسعة ليحتلوا أرضنا . . .
أعرف أنك على جانب من الصواب له شأنه ، غير أن المعركة يجب أن تستمر ، والسبب بسيط هو أننا لن نخسر أكثر مما خسرنا ، ثم إن كرامتنا تأبى علينا أن نستسلم على طول الخط . . سنخسر رجالاً وسيخسرون ، وستعرض لمزيد من الضغط والعسف ، هذا أقصى ما يستطيعونه . . .

قالت في شيء من السخرية :

- وهل هناك مصائب أكثر من ذلك؟

قال في حدة :

- أجل . .

- ماذا؟؟

- أن نرضى بالهوان! . . .

وتركها قاصداً الأزهر . . وقد كان المسجد الكبير في تلك

يتناثر هنا وهناك، وعديد من الأخبار تملأ رحبات المسجد،
واندحار الأسطول الفرنسي يحظى بالجانب الأكبر من التعليق
والدراسة، ويفكرون في المعنى السطحي والعميق في نفس
الوقت، وهو أن الفرنسيين تجري عليهم سنن النصر والهزيمة كما
تجري على غيرهم... ويدور الحديث عن الضرائب الكثيرة التي
أرهقت المواطنين، وتفتيش المنازل، وكسر الدكاكين،
واستخراج الخبايا والودائع، والفديات التي تؤخذ من ذوي النفوذ
والمراكز، والقروض الإجبارية من أهل الحرف...

وتذكر البشتيلي - وهو يمرق وسط هذه الحشود - كيف كان
برتلمي يقطع رؤوس الوطنيين، ويطوف بها في الشوارع لبث
الرعب في القلوب... وتذكر السجون وما فيها من رهائن
ومسجونين، وقسوة بالغة البشاعة... ثم عاد ينظر إلى ما حوله من
مظاهر حيّة، فتمتم: «ولو... إن هذا الشعب لن يموت ولن
يستسلم، ولو تحول كل الفرنسيين جميعهم إلى أنماط متشابهة
على صورة برتلمي اللعين»...

ويمضي البشتيلي في طريقه، ويشد به العجب وهو يرى ألواناً
شتى من أبناء الدول العربية: مغاربة وشوام وسودانيين
ويمنيين وحجازيين وعراقيين... إنهم جميعاً يهتمون بالأمر وكأنه
يعنيهم بالدرجة الأولى، ويلتقون مع إخوانهم المصريين في
جدلٍ صاخب، ويبدون رغبتهم بالمشاركة في البذل
والتضحية... ويتمتم البشتيلي بينه وبين نفسه: «سنضع لهم في
كل حارة متراس، ولسوف يتفجر الموت من تحت أقدامهم أينما

الأيام قلب الأمة النابض، فيه يلتقي الدين بالدنيا، وتتلور آمال
الشعب وأفكاره، بوتقة الماضي والحاضر - كما يقول
البشتيلي - ، ومجلس شورى الأمة، التنظيم الوحيد الذي يشع
بنوره الوهاج في شتى الأنحاء... وكان للشيخ السادات مكانة
طيبة، دعمها عدم اشتراكه في عضوية الديوان الذي كونه نابليون
ليحكم من خلاله، ولتجنب الكثير من المشاكل، تحت زيف
الشعارات الخادعة.

وفي داخل الأزهر الواسع الجليل، شعر
البشتيلي - كعادته - باطمئنانٍ غريب، ذلك الإطمئنان الذي
يخالج قائداً همّاماً وقد أوى إلى قلعة حصينة لا تستطيع أية قوة أن
تخطى أسوارها، أو تقتحم حماها... عشرات من الرجال
يستعدون للثورة الشاملة، ولم تكن القيادة لنوع واحد من
الرجال، فقد كان هناك التجار والأعيان وصغار أرباب الحرف
والمهّن المختلفة، ولم يكن لقب «عالم» وقفاً على رجال بعينهم
تخصصوا في دراسة الدين والعلم، بل كان العلم مشاعاً، فكثير
من التجار أو أصحاب الحرف يتناوبون خطب الجمعة في الأزهر
الشريف.

وتطلع البشتيلي إلى الوجوه الكثيرة التي تشرق بالثقة والأمل،
يقرأ في العيون رغبة أكيدة في التضحية والصبر عليها... هنا
ينسى البشتيلي أي تردد، وينسى تلك «الفلسفات» التي تثرثر بها
زوجه، ولا يذكر سوى أنه بين رجال كبار النفوس يسعد الإنسان
بالنضال معهم، ويلتقي بأي مصير مهما كان رهيباً، إن اللفظ

ساروا، سيرون شعباً بأسره وقد تحول إلى جيش كبير يمتد في كل ناحية، ومن الضروري أن يرى فينا الأعداء أمة صلبة، صعبة المراس، تدافع عن معتقداتها وشرفها وحريتها بكل ما أوتيت من قوة.. ستفجر اللعنة عليهم لأوهى الأسباب.. إنني أرى الجماهير تزمجر وتتوثب ليوم الثار، ولن تستطيع قوة في الأرض أن توقف تدفق البركان الهادر... مرحباً بالموت»...

ورأى البشتيلي أفواجا من لابسى الأردنية القروية يزحفون نحو الأزهر، ويتشرون في ردهاته الكثيرة الواسعة.. هذا النوع من التجمع التلقائي لا يعني سوى أن جماهير الشعب ترفض الإستكانة والذل وأنه يستوي في ذلك أهل الريف والحضر، والعرب في مصر وخارج مصر.. ويهمس البشتيلي لنفسه: «مستحيل أن تُخذل تلك الإرادة الجبارة.. إرادة الحق الذي ينطلق في مواجهة الشر، برغم إتساع الفارق بينهما من حيث القوة المادية»...

والتقى البشتيلي بإخوانه الثوار وعلى رأسهم الشيخ السادات، وبعد دراسة الأمر من كافة نواحيه، قال السادات:

- «سيروا على بركة الله.. ولينصرن الله من ينصره»...

وزحف الثوار خارج المسجد الكبير.. كانت الحوانيت في الشوارع مغلقة، وتجمعات الناس تلفت النظر في الميادين والشوارع، تلك التجمعات تأخذ في التلاحم لتكون كتلاً من البشر أضخم وأكبر.. وهدير كالرعد يصم الآذان، إنه الطوفان...

ويدرك أعضاء الديوان مدى الخطر الذي يلوح في الأفق، فيهرعون إلى الثائرين محاولين تهدئتهم، ومحاولين إيجاد حل سلمي لمظالم الفرنسيين، وخاصة الضرائب الجديدة، إذ كانت هي الشرارة التي أشعلت الثورة الشاملة الكامنة في النفوس، تلك الثورة التي كانت ستنتلق حتماً - حتى ولو لم تُفرض الضرائب الجديدة الجائرة -.. لكن أعضاء الديوان كانوا في موقف لا يُحسدون عليه، إن الإرادة الشعبية أقوى من منطقهم وتخوفهم، بل إنهم تعرضوا لاتهامات كثيرة تنال من وطنيتهم وإخلاصهم، كان صوت أعضاء الديوان أضعف من أن يوقع أدنى تحول في مجرى النضال الشعبي العملاق.. وصاح رجل من غمار الناس لا يعرفه أحد، وإن كان صوته قوياً واضحاً:

- يا أعضاء الديوان.. إن مكانكم ليس هنا.. إذهبوا إلى ساري عسكر وقدموا له فروض الطاعة والولاء.. إن قراراتكم واجتماعاتكم لا تلزمنا بشيء..

ورد أحد أعضاء الديوان بصوت واهن:

- يعلم الله كم نبغض هؤلاء الغزاة الأنجاس.. فلينصرنكم الله وليؤيدكم بقوته التي لا تقهر...

وسارت الحشود الهادرة تدوس تحت أقدامها أية مقاومة أو إعتراض... وأمام بيت القاضي التركي «أدهم أفندي» توقفوا، وطلبوا من القاضي أن يصحبهم إلى نابليون، ليتكلم بلسانهم ويعلن تمردهم على الضرائب الجديدة، واحتجاجهم على تصرفاته الجائرة.. ولم يكن القاضي من السذاجة بحيث يجهل

معنى تجمعهم حوله، وإجباره على الانخراط في سلك الثورة المنتظرة.. وأدرك القاضي أن الأمر أكبر من الضرائب، إنه شيء آخر يعرفه الناظر في وجوه أولئك المندفعين كالطوفان.. وحاول القاضي التركي الإفلات، فتناثرت التعليقات من حوله:
- أنت جبان رعديد..

- أنت لا تمثل الحق الذي تبناه، ولا الشريعة الغراء التي تزعم أنك تحكم بها..

- أنت تمثل السلطان في تخاذله عنا..

- أنت متخلف عن الجهاد..

- لست قاضياً، وإنما أنت أشبه ما تكون بشاهد الزور المأجور..

كلمات كثيرة كوقع السياط تنطلق من هنا وهناك، وعلى الرغم من بساطتها، إلا أنها كانت تمثل - في رأي البشتيلي - محاكمة عابرة للقاضي التركي وأمثاله.. ولم يطل الموقف بهم، إذ سرعان ما أصدرت الجماهير الشائرة حكمها، فضربوا القاضي ورجاله، وصادروا ممتلكاته وتركوه مجرداً من كل مجدٍ أو مالٍ أو كرامة.. فارتمى جانب الطريق واهن القوى، ينظر إلى الزحف الباسل في عجزٍ ويأسٍ وأسى.

ولم يكن هناك من أمل في أن يتجهوا إلى ساري عسكر.. إن المقاومة المسلحة هي الحل بالنسبة لقوة غاشمة لا تدعن لحق أعزل.. وظهرت السيوف والبنادق، وأخذ الرجال يسارعون بإتمام المتاريس، وخوض المعركة..

إندفع برتلمي في عجلةٍ إلى حجرة هيلدا وقال:

- معذرة يا عزيزتي.. لسوف أبادر بالذهاب إلى ديبوي، إن نُذر العاصفة قد بدت في الأفق..

قالت ساخرة:

- عندما تصل إلى ديبوي أبلغه تحياتي.. ثم لا تنسَ يا أبي أنني في انتظار مالوس الليلة.. لكم سعدتُ بلاقائه بالأمس، إنه كالحمل الوديع، يتحمل كل ما أرميه من نقدٍ لاذع..

ودهش أبوها لسخرياتها، كان يتوقع أن تسأله عن العاصفة، وعن الأحداث الهامة التي توشك أن تأخذ مكانها على مسرح القاهرة.. يبدو أن الإكثار من الخمر قد جعلها تهرف بكلماتٍ غير مناسبة في بعض الأحيان، ومع ذلك فقد قال محاولاً جرّها إلى ما يهّمه:

- سيظل الأزهر مصدراً للمتاعب، إن زعماء الثورة قد اتخذوه مقراً لهم، وألبوا علينا الجماهير، وهذه حماقة لا تغتفر، لسوف نهدمه على رؤوسهم إذا اقتضى الأمر..

قالت هيلدا وهي ما زالت مضطجعة على سريرها:

- أيضاً يقيم أن يثوروا؟؟

- بالطبع.. هذا عين الجهل وسخف التصرف.

تمت:

- ومن في مقدوره أن يرى تصرفات ديبوي وأمثاله ثم لا يثور؟.. لو كنت في مكانهم لما فعلت غير ما فعلوا.. دائماً يا

أبي تنظرون إلى الأمور من وجهة نظر شخصية، ولو نظرتم إليها من وجهة نظر الآخرين لوجدتم أن لهم ألف مبرر.
قال برتلمي :

- عزيزتي .. الموقف خطير، وأراني مضطراً للانصراف على عجل.

- ومالوس؟ ..

- أظنه لن يستطيع الحضور الليلة ..

- إذن فسأقضي ليلة تعسة ..

- ماذا جرى لك يا هيلدا؟؟ إنك تنسين أنني أبوك، وأن هناك أسلوباً لاثقاً لا بد وأن تخاطبيني به ... وانصرف غاضباً، بينما قالت هيلدا لنفسها: «اللعة على الجميع .. لتشتعل النار في كل مكان، وليكن ديبوي ومَن معه خطباً لها .. لم أعد أشعر بالشفقة على أحد، إلا أولئك المساكين المظلومين الذين تجرّونهم بالحبال، وتقطعون رؤوسهم، وتقذفون بهم خلف الأسوار، وتتصرفون معهم وكأنكم آلهة لا رادّ لمشيئكم .. أيها السفلة» ..



التقى برتلمي بالجنرال ديبوي، فوجده هو الآخر مضطرباً حائراً .. إن الاستسلام والصمت اللذين يسودان القاهرة، قد انقلبا فجأة إلى شرٍّ مستطير يهدّد بالأخطار الشديدة، ولم يكن برتلمي بمستطيع أن يخفي حقه على الشيخ السادات وزملائه،

فضلاً عن أن إلقاء التبعة على الشيخ يخلي برتلمي من المسؤولية ، ولا تجعل توقعاته السابقة في موضع السخرية والهزاء ، ولهذا قال :

- إن السادات سبب هذه النكبة .

قال ديبوي :

- السادات وحده ليس شيئاً، إن الذين يسرون خلفه، ويلتفون حوله، ويستمعون لأوامره من عامة الشعب هم كل شيء ...
- بالتأكيد هو العقل المدبر لكل هذا، ومع ذلك فإني واثق أن مجرد ظهورنا وسط هذه الجماهير سوف يشتتها، ويمزق الرابطة بينها، إنهم أجبن مما تتصور .. هيا بنا قبل أن يستفحل الأمر ونعجز عن تداركه .

قال ديبوي في ضيق :

- حسناً، لسوف أسير معك إليهم، هذا ما يراه نابليون هو الآخر، لكنها مغامرة قد تكلفنا الكثير ..

وخرج الجنرال وبرتلمي ومعهما عدد من الضباط والجنود راكبين جيادهم، مسلحين بالبنادق، وانطلقوا مسرعين نحو حيّ «الغورية»، وفي منتصف المسافة بين الغورية وبين «القصرين» كانت جماهير الشعب تتزاحم وتهدر هاتفة في وجوه الفرنسيين، ملوحة بالسلاح والعصي، والغضب يزار في عيونهم وعلى سحناتهم الحانقة .. ولم يفت ديبوي أن ذلك هو الوجه الحقيقي للشورة، فرأى أن يعودوا أدراجهم حتى ينجوا بأنفسهم، وحتى يكملوا استعداداتهم، غير أن برتلمي رفض ذلك بشدة، وقال :

- إنني أعرفهم منذ سنين، وهم أجبن مما تتصور... إن مجرد ظهورنا بينهم سوف يذيب شجاعتهم، ويبدد كل مقاومة لديهم.

ومضى ديبوي في طريقه متوجساً، كانت خطوات حصانه أبطأ، واندفاعه أقل... وتذكر برتلمي فجأة ما حدث لابنته المسكينة، وكيف قسا عليها ديبوي في استهتارٍ غريب، لم يرحمها ولم يأبه لكرامتها... وتمنى برتلمي في تلك اللحظات أن تنطلق رمية طائشة فتحطم رأس ذلك المغرور ديبوي... إن علاقته بها قد فترت على الرغم من محاولات برتلمي المتجددة لمحو آثار ما حدث من جراء ابنته، لكن الشوائب قد عكرت صفو اللقاء بينهما، تلك الشوائب التي لا تُرى ولكن يحس بها قلب كل منهما، مثل تلك العلاقة المتوترة المشبوهة يجب أن يوضع لها حد... ودق قلب برتلمي في عنف، ورفع غدارته صوب الجماهير المحتشدة التي تعترض الطريق، ثم أطلق الرصاص... وكانت طلقته كعود الثقاب الذي أشعل فتيل الانفجار الضخم، فأحاطت الجماهير بهم، وأحرق الخطر ديبوي حكمدار المدينة والذي يعرفه الجميع، بينما أخذ برتلمي يروغ هنا وهناك، وكان ديبوي مضطراً لأن يقاوم باستماتة، محاولاً دفع تلك الأمواج البشرية التي تحاول الفتك به، ولكن هيهات، فقد انقضَّ عليه أحد الثوار وغيب خنجره في صدره وهو يصيح:

- خذ هذه أيها الملعون.

عندما سقط ديبوي حدث هرج ومرج شديدين، وتصايح الثوار بأن الجنرال الكبير قد سقط على الأرض، فاشتعلت حماسة

الجماهير، وفرَّ الفرنسيون هاربين، ثم عادت مجموعة كبيرة من الجنود الفرنسيين ومعهم طبيب من أطباء الحملة، لكن الوقت قد فات، وانتهى ديبوي...

تنهد برتلمي في ارتياح، ولمع في عينيه بريق الشماتة، وإن تظاهر بالحزن والسخط، وأخذ يردد ويهدد، ويطلق الرصاص هنا وهناك، لكن حي الأزهر قد احتشد بما يزيد على خمسة عشر ألفاً من الثوار الذين أخذوا يفدون من كل مكان، واكتظت بهم الحواري والأزقة والشوارع الكبيرة... وأصدر نابليون أوامره:

- يجب أن تحاصروا القاهرة، حتى تقطعوا عنها المدد، وتمنعوا دخول العربان وأهل القرى إليها... لقد قتل الثوار الكولونيل سلكوسكي هو الآخر، وضحايانا يزيدون كل لحظة، والثوار يُبدون مقاومة لم تكن متنترة...

وعاود أعضاء الديوان، وعلى رأسهم الشيخ المهدي والشرقاوي والبكري، الاتصال بالثوار لصرفهم، ودرء المخاطر المرتقبة، لكن هدير الجماهير كان أقوى من أي رجاء، وأبسل من أي منطق، فولَّوا مذعورين مخافة الموت... بينما وقف الفرنسيون على مقربة من الثوار، وهم في حيرة كبرى وخوف شديد... وأخيراً حضر برتلمي وفي يده آخر تعليمات ساري عسكري نابليون، وأخذ يقرأها في شماتة واحتداد:

- «عليكم أن تهاجموا لفوركم معسكر الثائرين، وأن تضربوا الأزهر بالمدافع، ولتكن المدافع في أصلح موقع، ليكون الضرب أشد أثراً... بلِّغوا الجنرال «دومارتان» أن يفعل مثل

ذلك، وأن يستولي على مدخل الأزهر، والمنازل الموصلة إليه، وعليكم أن تقتحموه بجنودكم تحت حماية المدافع . . والقائد العام يأمر بأن تقتلوا كل من تلقونه في الشوارع المسلحة، وعليكم أن تعلنوا للأهالي بأن كل المنازل التي تلقى منها الحجارة تحرق حالاً بالنار، ويُعفى عن المنازل الأخرى، وعليكم أن تقتلوا كل من بالمسجد، وأن تضعوا فيه حرساً قوياً من الجنود» . . .

وعند الظهر انقذت القنابل من فوق جبل المقطم، وأخذت تتساقط بعنف وكثرة على الأزهر والصناديق والغورية والفحامية، فتحول الحي إلى ما يشبه الخرابات، وكاد الجامع ينقض على كل من فيه . .

ووقف برتلمي منتصب القامة ينظر بعين الشماتة والحقد إلى الأبنية التي تهدم، ومئات القتلى والجرحى الذين يسقطون . . وأحنقه أن كثيرين لا يتوقفون عن التقدم بعد الإصابة، فهم يظنون يزحفون بقواهم الخائرة وأقدامهم الكليلة، نحو التلال التي توضع عليها المدافع، ونحو الأماكن التي يحتشد فيها الفرنسيون، وكان يعجب لهؤلاء البشر الذين يقاومون في استماتة على أرض معركة ميثوس منها، ولم يكن ليستريح إلا إذا أطلق غدارته صوب نائر جريح يترنح كي يجهز عليه، حتى الشهداء الذين يتساقطون لم يكونوا ليروا غليله، كان يشعر أنه متعطش دائماً إلى مزيد من التدمير والقتل والدم . . .

كانت الساعة قد شارفت الثامنة من مساء ذلك اليوم المشهود،

وتطلع الحاج مصطفى البشتيلي حواليه بعد أن نفذت ذخيرته، وصمتت بندقيته الصدئة، إنه يرى الضحايا الكثيرين وقد توسدوا التراب هادئين، لا يابهون للضجيج القاتل الذي يصم الأذان، والدماء المتجمدة تمازج التراب الحزين، والأنقاض - برغم الظلمة - تمتد في كل ناحية، وأصوات النساء والأطفال تبلغ مسمعه، فتسكب دموعه الغزار . . وتذكر ولده الحسين آنذاك، وسرعان ما شعر بالخجل، إن هؤلاء الشبان الذين فقدوا الحياة، أو يثنون من هول الآلام المبرحة كلهم أبناؤه . . وتحامل البشتيلي على نفسه، كان يفكر في الذهاب إلى الشيخ السادات . . لكنها لحظات حرجة، وعليه الآن أن يشق طريقه وسط الموت والكمائن لعله يستطيع الوصول إلى بيته، فقد يأتي يوم آخر يكون أحسن حظاً من هذا اليوم . . أجل، لسوف يلتقي بزوجه، وستسدد إليه نظراتها العاتبة، وستعيد على مسمعه ما قالت قبيل نشوب الثورة، فهل في إمكانه أن يردّ عليها ويقنعها كما كان يفعل كل مرة؟؟ ولسوف تسأله عن ولدها الحسين والدموع تغرق عينيها، أترأه يأوي إلى عزلته من جديد، مستسلماً لليأس والألم؟؟ أترأه يفقد وحيداً كما فقد صهره بالأمس؟؟ وماذا سيفعل الفرنسيون بعد هذه النكسة القاسية؟؟ وماذا سيكون أثرها على سكان القاهرة؟؟ لقد سمع أحد الثوار يقول منذ لحظات:

- لقد خسرنا المعركة هذه المرة أيضاً . . علينا أن نسارع بالهجرة إلى السويس، إن الفرنسيين لم يحتلوها بعد . . لو بقينا هنا لفتكوا بنا عن آخرنا، وفي السويس نستطيع أن نقاوم الغزاة

يريم ينتظر المصير المجهول، ما أقسى الإنتظار الوجل الذي
يجهل ما تخفيه طيات المستقبل... وبرتلمي الرومي ينطلق
كالشيطان هو ورجاله من العسس يقبضون على الناس لمجرد
الشبهة، ويطيحون بالرؤوس إذا ما ثبت لهم اشتراك الضحية في
الثورة، والمدينة الحزينة مستسلمة للقضاء، وعلى الرغم من
استسلامها وجراحها، والرعب المنتشر في نواحيها، إلا أنها لم
تفقد الأمل كلية و«سبحان من يحيي العظام وهي رميم».

أما الأزهر فيا لهول ما رأى!! إن أوامر نابليون تنفذ بحذافيرها،
الخيول تقتحم البوابة الكبيرة، والجنود يتخذون لهم مرابط في
القبلة الشريفة، والأيدي القذرة تدهم الطلبة في أروقتهم
فيجردونهم من المال والمتاع والطعام، ويدوسون بأحذيتهم كتب
العلم والمصاحف، ويشيرون الفوضى والاضطراب في أرجائه،
كل شيء قد هان في أعين الغزاة الخيلاء، حتى المقدسات...
وهنا يتأكد للجميع أن دعاوى ساري عسكر عن الحرية
والعدالة والإخاء والمساواة، أكاذيب لا تسندها الوقائع، وأن
زعمهم بأنهم جاؤوا لتخليص الديار المصرية من عسف
المماليك، ادعاء باطل لا يقوم على أساس، وأدرك الناس للمرة
الثانية، أن لا حرية في ظل إحتلال، ولا عدالة مع الجشع
الإستعماري، وأن المعركة لا بد أن تستمر برغم ألوف
الضحايا...

الذين سيقدمون صوب الشرق...
وفكر البشتيلي، أيمن أن يفعل ذلك، وهو الذي رفض
الهروب والهجرة وندد بالمهاجرين على رؤوس الأشهاد؟؟ لا...
مستحيل أن يحدث ذلك... وحانت منه التفاتة، فرأى أعداداً
ضخمة من فرسان العدو تنحدر نحو مبنى الأزهر الشريف... إن
بقاءه في مكانه معناه الموت... وأسرع إلى زقاق قريب... لقد
نجا من الموت في المعركة لحكمة يعلمها الله، فلا يصح أن يسلم
نفسه هكذا بلا معركة لأيدي العدو كي يفعلوا به الأفاعيل...
وأخذ يتسلل من زقاق إلى زقاق، ويثب من سطح إلى سطح...
وقبيل الفجر كان على شاطئ النيل عند بولاق... واقترب في
حذر من منزله... وحينما دفع الباب وجد عيون زوجه وانته
محترقة من الدموع والخوف والعذاب...
تمتم وهويذلف حزناً إلى الداخل:
- «هذا أمر الله»...

وترتمي المدينة العظيمة جريحة القلب والجسم، تكتم
الأنين، وتجتأ الأسى الدامي، وآثار الخرائب والدمار
والدماء كثيثة المعالم، وقوات الغزاة تقتحم الحصون،
وتجوب الأحياء الثائرة، تقتل كل حامل للسلاح، وتنكل بالشيخ
والشباب، وتدهم البيوت كي تنهب ما فيها، وتبحث عن الثوار
أيما كانوا، والناس بين هارب خارج القاهرة، أو لائذ في بيته لا

وكان برتلمي يتحرك في يقظة وشماته، لا يستطيع أن يخفي فرحه الشيطاني، ولم لا يفرح؟؟ لقد نال من السلطة ما يجعله يحكم في أمر الحياة والموت على هواه، إن أرواح البشر على كفه يلهو بها كيفما شاء، وامتلاك مصائر الناس أمر يبعث على النشوة والغرور، ويغري بالقسوة وإشباع الرغبات الشريرة.. وبرطلمين في حاجة ملحة ودائمة إلى الانتقام، إنه من ذلك النوع من الرجال الشواذ الذين لا يظهرون في الأوقات الطبيعية، إن لهم توقيت وظروف معينة، أمثال برتلمي يوجدون حيث يوجد الانحراف والقسوة واحتقار المثل الإنسانية الرفيعة، وفي غير هذه الظروف العصبية لا يكون أمام أمثال برتلمي سوى التحول إلى إنحرافات صغيرة كاللصوصية والعبث والاستغلال.. أجل، إنما تلهو الشياطين حيث الانتكاش الوحشي للإنسان.. لم لا يفرح برتلمي، وقد استطاع أن يجد الفرصة الرائعة التي يرى فيها «الجنرال ديبوي» ملقى في زقاق ضيق تنزف من صدره الدماء، والشحوب يسود وجهه المتغطرس، ونظرات الكبرياء تنطفئ في عينيه المتبجحتين، والعجز يشله عن الحركة وإصدار الأوامر؟.. «لتفرح صغيرتي الحبيبة هيلدا، فإن الصفعة القاتلة التي تلقاها ديبوي تشفي الغليل وتخفف من آلام جراحها النفسية لتفرح حبيبتى هيلدا، لأن أباهما قادر على أن يثار، وأن يتصدى لكل قوة تحاول النيل من كبريائه».

ولم لا يفرح برتلمي، وهو يرى كبار الأثرياء والتجار يقدمون له

الهدايا والهبات، ويسكبون في أذنيه ترانيم الرجاء والشفاعة، هؤلاء الذين لم يكن في استطاعته - قبل مجيء الحملة الفرنسية - أن يحظى بمجرد الجلوس معهم؟.. ولم لا يفرح، وقد أمكنه الله من أعدائه، يفعل بهم ما شاء دون حسيب أو رقيب؟..

وينظر برتلمي وهو راكب على جواده، ومن حوله رجاله المسلحون، ينظر إلى طوابير الأسرى وهي تساق عنوة إلى مصائرهم المجهولة، وعيون النسوة خلف النوافذ تنظر وتذرف الدموع، وتسكب الأنين.. يا لها من مشاهد مؤثرة تحرك مشاعره بالنشوة، وتملؤه بالفخار!.. فيصرخ بهم كي يسرعوا في السير، ويهتف برجاله أن يلهبوا ظهورهم ووجوههم بالسياط، فإذا ما أبدى أحد الأسرى تأففاً أو اعتراضاً، فليس هناك عقوبة عاجلة سوى الموت...



وعاد برتلمي في المساء.. أفسح له الحراس الطريق، وأدوا التحية للرجل الذي يستمتع بأبشع شهرة في القاهرة.. وصاح وهو يلقي بجسده على أقرب أريكة:

- هيلدا.. هيلدا.. أين أنت يا حمامتى الصغيرة؟؟

قدمت مترنحة، وقالت في تعثر:

- ألم ينته سفك الدماء بعد؟

- لا أعتقد، إنه ضرورة يا حبيبتى..

- ضرورة؟!!

- أجل ، لا بد أن يموت بعض الناس ليسعد الآخرون .
- لكن الموت بشع ، والسعادة في جانب يقابلها الشقاء في جانب آخر .

- إرادة الله يا فتاتي . . كالليل والنهار ، وماذا كنا نفعل؟؟ نربت على ظهر الثوار ، وننحنى لإرادتهم ، ونفتح صدورنا لرصاصهم؟؟ أظن أن هذا بلاهة .

قالت متسائلة :

- ولم لا نبحث عن سبب لثورتهم؟؟

قال ضاحكاً :

- وهل هناك من سبب سوى غباثتهم وغرورهم؟؟

- ربما يكونون أصحاب حق . .

- دعك من هذه المثاليات الفارغة . . إنهم يشكون من الضرائب ولا يفكرون في أن الجنود والحكومة في حاجة إلى مال ، ويندّدون بالغزو ، وهذه حكاية قديمة يردّها كل شعب مهزوم . . يجب أن يفهموا أن القوي هو الذي يحكم . . أجل . . القوي هو الذي يستطيع أن يحكم ، سواء أكانت رعيته في قرية أو مدينة أو دولة . . هكذا الدنيا منذ أن خلقها الله ، والاعتراض على ذلك اعتراض على مشيئة الله . . .

واستطرد غامزاً بإحدى عينيه :

- ثم لا تنسي يا حبيبتي أن الثوار قتلوا ما يقرب من مائتين وخمسين من رجالنا ، وقتلوا سلكوسكي و . . و . . ديبوي . .

قالت في غيظ :

- أجل ديبوي . .

ردّ في استبشاع مصطنع :

- الجنرال ديبوي العظيم المسكين . . لقد قتله الغوغاء في زقاقٍ حقير . . لشدّ ما أسف نابليون لمصرعه . . إن له تاريخاً ضخماً . . أليس مما يحق ويثير أن تنتهي حياة هذا القائد الهمام على يد صعلوك مجهول من سكان القاهرة؟؟ هذا الصعلوك لم يعرفه أحد ، ولن تذكره كتب التاريخ . .

وصمت برهة ، ثم عاد يقول :

- الحقيقة أنني أسفّت عليه ، على الرغم من حماقته وغروره .

قالت هيلدا :

- لكن إطلاقك الرصاص يا أبي هو الذي عرّضه للتهلكة .

أجابها بقوله :

- هذا تحليل متحيز للأحداث ، لو كان الأمر كما تقولين لقتلت أنا مكانه . . لكن إرادة الله يا عزيزتي فوق إرادتنا ، فلربما كان في مصرعه حكمة عليا تخفى علينا . . والأقدار تنتقم يا هيلدا .

نظرت إليه في دهشة :

- أعتقد ذلك؟؟ إن الأقدار ليس لها مشاعر مشابهة لمشاعر

البشر ، فهي لا تحقد ولا تتأثر . . .

وتغيّر وجهه برتلمي ، وبرقت عيناه في شماتة وقال :

- يكفي أن هذا الوغد الغادر قد جعلك تقضين الليالي المسهدة الحزينة من جرّاء الخديعة التي أوقعك في شباكها ، أنت لا تعلمين الكثير عما كنت أعانيه من عذابٍ وشقاء ، لا أنكر أنني

سعدت لمصرعه، لكن سعادتي كان في الإمكان أن تكون أعظم وأكبر لو اعتصرت عنقه بيدي .

وهز رأسه ثم استطرد:

- ومع ذلك فالنتيجة في الحالين متقاربة . . أليس كذلك؟؟

قالت وهي تصب كأسين من الخمر:

- وهل أصاب مالوس مكروه؟

أجاب مطمئناً:

- إنه بخير، وأعتقد أنه قد يفرغ من أعباء العمل بعد يومين على الأكثر . . أعرف أنك كنت تقاسين الكثير من الوحشة والفراغ أثناء الثورة، لكن الضربة القاصمة السريعة قد قضت على الشر، وأعادت إلى المدينة وجهها الهاديء، وسيصبح كل شيء على ما يرام .

وتذكرت هيلدا ديبوي من جديد وقالت:

- إن قتل ديبوي لم يؤثر في نفسي، لم يختلف الوضع، كانت حياته تعذبني، وأصبح موته لا يفرحني . . كل شيء كما هو، ومع ذلك فإن ديبوي باختصار، ما هو إلا عنوان لقصة مبتذلة . . أنا وأنت وهو شخصيات تعسة فيها . . والحقيقة يا أبي أن ما أشعر به غريب غاية الغرابة . . تصور أنني أفكر في الماضي بإلحاح . . لقد كنت آنذاك سعيدة . . كان بيتنا متواضعاً، وكان حانوت الزجاجات الذي نبيع فيه يدر علينا بعض الدخل الإضافي . . وكنا مندمجين مع طوائف ليست من علية القوم على أية حال . . أما اليوم فهي القصر والحرس ومنصبك الضخم والسلطة والمال

والفرنسيون . . ومع ذلك فإن هيلدا اليوم أتعس كثيراً من هيلدا بنت فرط الرمان . . هيلدا الأمس كانت مريحة طروباً لا تعرف القلق ولا الخمر أو الأرق . . صدّقني يا أبي، لو خُيرت بين اليوم والأمس لأخترت الأمس . . .

كان أبوها ينظر إليها في دهشة، كان على النقيض منها تماماً . . لكم تمنى أن يصبق على الماضي بكل ما فيه، أن يدوس الذكريات المُرّة، ويسحقها دون رحمة كما يسحق الرؤوس المتمردة، ولو خطر بباله أن يكون على غرار فتاته في التفكير، لأصابه الجنون . . .

قال برتلمي مخاطباً ابنته:

- أنتِ حالمة . .

- هذا ما أحسه دون زيف . .

- ليس الأمر مجرد إحساس، يجب أن تفكري .

- كلما فكرت زاد إيماني بإحساساتي القلبية، وزادت تعاستي، ولهذا أحاول أن أهرب . . أن أنسى . . لقد علمتني يا أبي كيف أغرق أساي وأحزاني في كأس الخمر . . أتعرف أن مالوس هو الآخر لا يختلف عن كأس الخمر؟ . . إن هذه المحاولات تجعلني أعبر رؤى حالمة هادئة بعض الشيء، وإن انتابتها الوسوس والغيوم . . .

قال متضحكاً:

- يا لك من قاسية يا هيلدا . . وإنما تنسين واجبك كربة بيت نحو أبيها المرهق المتعب . . أريد كثيراً من الطعام والشراب . . .

لقد توقفت المقاومة، وعاد الجرحى والمغلوبون على أمرهم إلى دورهم يضمّدون جراحهم، واجتاح المدينة رعب «ما بعد المعركة»، لعله في كثير من الأحيان أقسى من المعركة نفسها، إن الغالب في تلك الأوقات يملّي إرادته، وينكل بأعدائه وقد صمّت مقاومتهم، والأنباء تسري في كل مكان:

برتلمي يسوق الناس إلى السجون . .

برتلمي ورجال العسس يذيقون الثوار ألوان العذاب . .

برتلمي ينفذ أحكام الإعدام بنفسه . . حتى في النساء! . .

وحيّ بنولاق يرقد على شاطئ النيل ينزف دماً وعذاباً . .

والحاج مصطفى البشتيلي قد اختفى عن العيون داخل بيته،

فاطمأن قلب زوجته، وخاصة بعد أن عاد الحسين هو الآخر دون

أن يُصاب بغير خدوش قليلة في بدنه لا خوف منها البتة . . وكان

معنى هذه الجروح خطيراً غاية الخطورة . . إنها دليل الإدانة

والإشتراك في الثورة . . ومن ثم أصرت أمه على أن يرحل إلى

بيت عمومته في قرية بشتيل بالجيزة، حتى تلتئم جروحه ويفلت

من غضب برتلمي ورجاله الذين لا يرحمون. ولم يجد الحاج

مصطفى بُدأً من الموافقة، لقد علمته الأيام والأحداث أن الحيطة

واجبة في مثل هذه الظروف . . وتنهدت الأم في ارتياح بعد أن

عبر الحسين النيل إلى بشتيل، لكن ارتياحها قد انقلب إلى قلق

بالغ، وهي تسمع الأحذية الثقيلة تدقّ باب بيتها في عنف.

وتمتم الحاج مصطفى:

- لقد جاؤوا.

هتفت الزوجة وقد شحب وجهها:

- مَنْ تقصد؟

سدّد إليها نظرات لا تطرف وقال:

- أنتِ تعرفين . . برتلمي ورجاله . .

ودقّت على صدرها مرتاعة:

- مستحيل أن يحدث ذلك! . .

وتوالى الطرقات العنيفة، وانفجرت زينب باكية، وقد انتابها

الإنهيار العصبي، وخطا الحاج في صمّت وإصرار نحو باب

البيت، وفتحه . . الوجوه الخائنة اللعينة ترمقه في ريبة، والحقه

ينطلق مع شعاع النظرات الآثم . . وامتدّت يد لتمسك بخنقه

وتجرّه في غلظة، الحاج يبتسم ابتسامة شاحبة حزينة، تنبي عن

العجز الفاضح، عن مأساة الإنسان الحرّ يتجرّع كأس الذلّ

والهوان، وتمتم الحاج:

- لا داعي لكل هذا . . إني آتٍ معكم.

- ستساق كالكلب الحقيّر! . .

لم يعلّق الحاج بشيء، وما جدوى الردّ؟؟ المنتصر يضع

الصفات والأحكام حسبما يرى ويلصقها بالمغلوبين، والمغلوبون

لا بد أن يكونوا حقراء أذلاء خونة، والمنتصرون هم دائماً الشرفاء

الفضلاء العادلون . . . إن كلماتهم وأحكامهم مقدسة لا تشوبها

شائبة . . ورنّت على قفاه صفعه لم يشعر لها بألم جسماني، وإن

شعر بها لخنجر مسموم يخترق قلبه الكبير، وركلة أخرى أصابت

بطنه، فشعر بدوار، كاد يسقط، لكن قدميه تسيران بقدرة قادر، لم يسقط، إن قلبه يدق بسرعة، ووعيه الكامل يعود.. إن كثيرين يهرولون في الشارع تحت سياط العسس وكلماتهم البذيئة، وبرتلمي يتقدم الموكب، والعيون الفضولية تتحسس الطريق إليه في وجل، ويساق الحاج مصطفى لينضم إلى طابور طويل موثوق بالحبال، ويستدير برتلمي، ثم يرفع سوطه إلى أعلى ويهوي على وجه الحاج مصطفى، ويصرخ بلكنته المقيتة التي يعرفها أهل القاهرة:

- أنت أحد المتمردين الحقراء.. هذا ما يبدو على وجهك. ويهمس الناس في الشارع الكبير: «فرط الرمان يضرب الحاج مصطفى.. للمهانة!! مسكين إنه رجل إحسان وعطف ومروءة.. لكنها إرادة الله.. نحن في آخر الزمان، لقد ذهبت أيام الفضيلة والكرامة»..



وتثور الدماء في رأس الحاج مصطفى، ويكاد يعجز عن رؤية أي شيء أمامه، ستار أحمر يقف حائلاً بينه وبين المشهد المؤلم، هذا الستار لا وجود له أمام الناس بالتأكيد، لكن الحاج مصطفى يراه.. ويتنهد الحاج في أسى، ويمضي في الطابور الذليل رافعاً رأسه قدر ما يستطيع، لكن كلمات حلوة تنسكب على قلبه المشتعل «كل شيء يهون في سبيل الله.. كل شيء يهون من أجل الوطن وحرماته.. الصبر طيب يا فرط الرمان».

كان الطريق إلى القلعة شاقاً مريباً طويلاً، الناس في الطرقات

كانت الزنزانة التي أدخلوه فيها شبه مظلمة، تفوح منها رائحة منفرة، يسكنها تسعة من الرجال، على الرغم من أنها لا تتسع لغير ثلاثة، وتكۆم الرجال التسعة متلاصقين، إنهم في أواخر شهر أكتوبر، ومع ذلك فالحر شديد، والأنفاس تكاد تختنق، والظما يكاد يقتلهم، هنا لا شيء اسمه الإنسان، كل القيم الكبيرة العريقة تذبل وتحتضر، والناس لا يُنظر إليهم في مثل هذا المكان إلا كحيوانات لا قيمة لها، ولا فائدة منها، ولا يُنادى على أحد

باسمه إلا في الأوقات العصيبة . . وقال أحد التعساء :

- أيها الرجال . . إننا هنا لا نستطيع أن ننام أو نقضي حاجتنا . . لم أكن أتصور أن هناك شيئاً ألعن من الموت، وها أنا أراه . . أيمن أن نبقي هكذا طويلاً؟ . .

ولم يكذ ينتهي من كلامه حتى فُتح الباب، وكان قد مضى عليهم في هذا الجحر أكثر من خمسة عشرة ساعة، وصاح أحد رجال برتلمي :

- هذا هو طعامكم . . .

كمية لا بأس بها من كسرات الخبز، إنها بقايا طعام الجنود، فتلقفها الرجال ثم وضعوها في كومة بينهم، وامتدت أيديهم الكثيرة تتناول لقيمات تسدُّ الجوع القاتل . . وعاد أحد الرجال يقول :

- لا أستطيع أن أبتلع الطعام . . نحن في حاجة إلى ماء . . أنا لا أطيق هذا العذاب . . لا بد أن أدق باب الزنزانة ليحضروا لنا ماء . .

قال آخر :

- إنك تقدم على عملٍ طائشٍ قد يكون سيء العاقبة . .

فلم يلتفت إلى كلامه، وأخذ يشقُّ طريقه بصعوبة نحو الباب المغلق، وقبل أن يهوي بقبضته على الباب، تناهى إلى أسماعهم صوت استغاثة وضراعة، وتسمر الجميع في أماكنهم، وتمتم الحاج مصطفى :

- ما هذا؟؟

قال أحد الرجال الذين مضى عليهم في الزنزانة ثلاثة أيام :

- لقد بدأت حصة العذاب الرهيب . . لا بد أن يحصلوا على اعترافات، وليس لديهم وسيلة سوى السياط وانتزاع الأظافر، وحرق الأبدان بأسياخ من الحديد المحمى . . إن برتلمي يتفنن في اختيار أبشع ألوان العذاب.

قال الحاج مصطفى :

- أية إعترافات؟؟

- إنهم يسألون عن زعماء الثورة . . عن السلاح . . عن الأموال المخبأة . . عن الإتصالات الجارية بين الثوار وأعداء فرنسا في الخارج . . يريدون أن يعرفوا أشياء كثيرة . .

وعلا الصياح والإستغاثة مرة أخرى، فتوقفوا عن الكلام والطعام وطلب الماء، وصاح أحد الرجال في حالة هستيرية وبصوتٍ جريحٍ متمرد :

- أين الله؟؟

وهتف الحاج مصطفى :

- أستغفر الله . . وهل لنا غيره في هذه الأوقات العصيبة؟؟

ومضى الرجل الأول يقول :

- ولماذا يتركنا هكذا؟؟ وهل من الضروري أن نقاسي هذا العذاب على أيدي هؤلاء الكفرة؟؟ وأين العدل؟؟ ألسنا على حق؟؟ فلم لا ينصرونا؟؟

وخطا الحاج مصطفى نحوه وأمسك بيده وصاح :

- كف عن هذا الهراء يا رجل، إنك تكاد تفقد إيمانك وتصبح

مثلهم .. أنسيت؟؟ تذكر ما قاساه صحابة الرسول ﷺ من بطش وتعذيب وقتل، ألم يكن في قدرة الله أن ينجيهم من هذا الشقاء كله؟؟ إن بعض الأنبياء قد قُتلوا.

وترك الحاج مصطفى يده، ثم قال والدموع تترقرق في عينيه:
- إن لكل شيء ثمناً، وثمر الحرية ما تراه في هذه الأيام العvisية ..

وانهار الرجل باكياً وهو يقول:

- ليت هذه الشياطين كانت على جسدي أنا .. إنني أتعذب أكثر مما يتعذب هؤلاء المساكين في الخارج ..
وفتح الباب فجأة، وصاح شرطي أرمني التحق بخدمة الغزاة:
- هاكم دلواً من الماء، وآخر لتقضوا فيه حاجتكم .. يجب أن تسرعوا وتنتهوا من كل شيء .. النوم ممنوع .. قد تُطلبون للإستجواب في أية لحظة، وليس لدينا وقت لإيقاظ أحد .. مفهوم؟؟

ولم يجيبوا على أوامره بغير الصمت الذاهل ..

وبعد ساعة فُتح الباب مرة أخرى، ثم قذفوا برجلٍ يثنُ وسط الظلام، لم يكن هناك مكان لمجرد الجلوس، وتحسّسه أحد الجالسين:

- مَنْ أنت؟؟

قال وهو يتأوه:

- لا تلمسوا جسدي .. هل عندكم ماء؟؟

وارتشف جرعات من سطل صغير، وتمتم:

- أشعر أنها النهاية ..

قال الحاج مصطفى:

- ماذا بك؟؟

- ليس في بدني شبر إلا وفيه ضربة سوط .. إن جلدي ينزف دماً.

- لماذا؟؟

قال وهو يئن:

- وأنتم؟؟ لماذا أتوا بكم؟؟ نفس السبب .. تصوّروا .. إن برتلمي قطع الليلة رؤوس إثني عشر رجلاً، ثم وضعهم في زكائب، وأصدر أوامره بقذفهم في النيل .. أليس هؤلاء الضحايا أسعد حالاً مني؟؟ إن الشيء الوحيد الذي يعذبني هو أنني أموت هكذا ببطءٍ وتحت أبشع أنواع الإنتقام .. صدّقوني .. إن أعظم شيء هو أن أموت الإنسان في ميدان المعركة .. لماذا لم نقاوم حتى آخر رجل؟؟ أرجوكم .. مزيداً من الماء .. إن جوفي يحترق .. لا أستطيع الكلام أو الحركة .. قربوا الماء من فمي ..

وتسابت الأيدي باحثة عن بقايا الماء وسط الظلام الذي يلفّ الزنزانة الكثيرة .. وتمتم الحاج مصطفى:

- خذ الماء ..

لكن الرجل لم يحرك ساكناً ..

ثم عاد فقال له:

- قلت لك .. ها هو الماء .. حسناً .. لسوف أضعه على

فمك ..

وفتح الرجل فمه بصعوبة، ووضع الحاج السطل على فمه،
لكن الماء كان يتسرب من زاويتي فمه ...

ودقق الحاج مصطفى النظر في وجهه وقد اقترب منه وتمتم :

- ما اسمك؟؟ ومن أي حي من أحياء القاهرة؟؟

لم يرد... فلمس الحاج جبهته، وتحسس نبضه وصدره، ثم
قال والدموع تتساقط فوق خديه :

- «لا حول ولا قوة إلا بالله... لقد أسلم الروح» ..

وامتزج نشيج الرجال التسعة الخافت... وساد السكون الأسود
ترنيمة حزينة تتغلغل في الأعماق...

١٨

أليس من المضحك والمحزن معاً، ألا يستطيع البشتيلي أن
يجد بضعة أشبار كافية لجسمه حتى يستطيع النوم؟ ..

وتذكر بيته الواسع الكبير، وحجرة الضيوف والاستقبال،
وحجرات الخدم، وعشش الدواجن، وشاطئ النيل في بولاق
حيث الهواء المنعش، والناس يروحون ويجيئون، والأفق الأزرق
ممتد رحب ينعكس على الروح بالسكون والدعة والروعة،
وبعض الفقراء يتوسدون التراب على الأرصفة تحت ضوء
القمر... تذكر كل ذلك، ثم عاد إلى الزنزانة الضيقة المعتمدة
والرجال الثمانية، والنوم يداعب أجفانهم وهم جلوس، ورائحة

العرق والعطن وبقايا المخلفات الآدمية بالدلو الموضوع لصق
الباب، كلها تختلط وتثير التقزز والغثيان. وأخيراً قال البشتيلي :

- أيها الرجال... إنها ظروف صعبة قاسية تلك التي نوجد
فيها، ومع ذلك فمن الضروري أن نكيّف أنفسنا حسب الوضع
الراهن... لنحاول النوم في أوضاع متضادة بحيث توازي رأسك
قدمي جارك، على ألا ينام أحد على ظهره بل على جنبه، حتى
تتوفر مساحة كافية لنوم أكبر عدد ممكن، وأعتقد أن المكان يكفي
سبعة على جنوبهم، أما الاثنان فيمكنهما أن يناما جالسين،
ولسوف يتناوب الباكون معهم النوم جلوساً كل ساعتين.

ثم حاولوا النوم حسبما رسم البشتيلي، وبقي هو جالساً يفكر،
لم يكن يتصور أن يتحجر قلب الإنسان، ويبلغ هذه الدرجة من
القسوة مهما كان الأمر، وتساءل: أيستطيع الفرنسيون بهذه
الطريقة أن يحققوا أغراضهم، ويقضوا على مناوئتهم؟؟ إنهم
يوغرون الصدور ويملاؤونها بمزيد من الأحقاد التي لا تموت،
والعنف لا يولد سوى الكراهية، وإن أدى إلى الاستسلام التام في
الظاهر، والغريب أنهم قد يكونون دائبين على إصدار منشوراتهم
الكاذبة التي تتحدث عن الحرية والإخاء والمساواة، وعن رغبتهم
الأكيدة في تحرير المصريين من طغيان المماليك وظلمهم...
ولا شك أن أعضاء الديوان ما زالوا يجتمعون ويصدرون
القرارات، ويوقعون المنشورات، ويدعون الناس إلى الهدوء
والسكينة وإطاعة أولي الأمر... يا لها من طريقة خبيثة ينفذها
نابليون!! إنه لا يستطيع أن يُحيل الشعب إلى أصدقاء له، ولن

يستدرك، ويحرك رأسه في اعتراض وضيق، ويلعن وساوس الشيطان، ويستغفر الله، ويؤكد لنفسه أن ما قدّر لا بد أن يكون، وأن إرادة الله فوق كل إرادة، وأنه لا يصح مطلقاً أن يحكم على مبادئه وتصرفاته كلها من خلال فترة عصيبة تعسة كتلك الفترة السوداء التي يحياها الآن، لأن أحكامه في مثل هذه الظروف لا شك ستكون واقعة تحت تأثير مؤقت عنيف، ينحرف بها نحو الشطط، ويفقدها صوابها ودقتها.. لكن الشعور الذي لم يستطع الحاج مصطفى أن يتخلص منه، هو أن الموت أهون من هذه المعاملة القاسية التي يلقاها الآن.

وتوقف عن الاستطراد في أفكاره، عندما صكت سمعه تلك الأصوات الضارعة التي تصرخ من شدة العذاب.. آه.. المأساة التي تسحق فؤاده وكبرياه.. ورفع الرجال النائمون رؤوسهم فجأة، وعيونهم تدور في محاجرهم تائهة قائلة:

- ماذا جرى؟؟

- ما يجري هنا عادة.. أنتم تعرفون.. إنه برتلبي وزبانية الجحيم ينصبون الموازين الجائرة ليفصلوا في مصائر العباد قبل اليوم الآخر..

قالها الحاج مصطفى البشتيلي، ثم خفض رأسه ليداري دموعه، لكن الحاج مصطفى بُهت عندما سمع أحد الرجال يقول:

- لم يكن هناك داعٍ لأن نحرض الناس على الثورة.. ها أنتم ترون النتيجة.. ألم نكن نعلم أن قوتنا دون قوة الفرنسيين

يكون الخضوع له إلا لوناً من الخوف المؤقت يخفي تحت طيَّاته ثورة عارمة تنطلق دائماً في الوقت المناسب.

وتلقت البشتيلي حواليه، لقد نام الرجال برغم الظروف القاسية، إنهم لم يتذوقوا النوم منذ عشرات الساعات، وها هم يستسلمون لسلطان الكرى على الرغم منهم، وبعضهم يهذي ويتكلم بصوت مرتفع وهو نائم، كلمات متناثرة تنطلق من أفواه بعض النائمين: «أنا مظلوم.. لم أفعل شيئاً.. عيب يا سعاد.. إسمعي كلام أمك.. أعطني قلة الماء البارد، إن زوري يكاد يحترق.. أنا لا أخدعك يا صاحبي.. الثمن كما قلت لك.. إنه محدد في الغورية والفحامين وبولاق، وهو يكاد يكون ثمنه الأصلي.. آه.. إنهم يقتلون الناس في الأزهر.. ويربطون خيولهم في القبلة»..

وشعر الحاج مصطفى بالضيق يعاوده من جديد، وعلى الرغم منه أخذ يتذكر صديقه التاجر المهاجر أحمد المدبولي، إنه يعيش الآن في يافا ببلاد الشام، معه المال الذي يكفيه، ينعم بهدوء البال والراحة، تفصله مئات الأميال عن عناء القاهرة وعذاباتها، لشد ما قسا على صديقه عندما هاجر، واتهمه بالجبن والندالة، إن الحاج مصطفى يتمنى أن لو كان الآن في يافا، وأنه يحاول أن يحشد جيشاً من العرب والمسلمين المقيمين والنازحين، ثم يهاجم مصر من الشرق ليخلصها من طغيان الفرنسيين، وماذا كان عيب الهجرة، وخاصة بعد أن ضاقت السبل، وحلت الهزيمة، وتمكن الأعداء من رقاب العباد؟؟ لكن الحاج مصطفى

بكثير؟؟ أعترف أننا أخطأنا خطأ جسيماً، وأنا تسببنا للوطن في حلول كوارث محزنة.

وصرخ الحاج مصطفى بأعلى صوته:

- كفى... إنك تتكلم بوحى من ضعفك وهزيمتك.

وصمت الرجل، بينما استطرد البشتيلي:

- ما هكذا يجب أن تناقش الأمور... إن الباطل كان دائماً

أقوى من الحق من حيث العدد والعدة، لكن النصر كان من

نصيب أصحاب الحق، لأنهم يدافعون في استماتة عن شيء

أصيل يؤمنون به، ولأن الله معهم... هل نسيتم تاريخكم؟؟ كان

الرسول وبضعة نفر يواجهون رجالات مكة وكبراءها، وكانوا يقاسون

شتى صنوف العذاب... وبعد سنوات قليلة كانت كلمة التوحيد،

ونور الهداية ينشران أريجهما العطر فوق الجزيرة العربية والشام

وفارس وجزء كبير من بلاد الرومان... إن الهزيمة المؤقتة التي

منينا بها ليس معناها الموت... إنها حلقة واحدة من سلسلة طويلة

من النضال من أجل الحق الصريح... إن من قبلنا كانوا يُنشرون

بالمناشير، ويُفصل لحمهم عن عظامهم، ويتعرضون لامتحانات

رهيبية، لكنهم صبروا حتى جاء نصر الله... «وكان حقاً علينا نصرُ

المؤمنين»...

كانوا يستمعون إليه في خشوع، والدموع تترقق في العيون،

وروح الأمل البعيد تلمس قلوبهم المحترقة بنسمة نورانية،

فيلفهم جو من الطمأنينة والإيمان الرطب...

وعاد الحاج مصطفى يقول:

- ردّدوا معي بصوت خفيض: «لا إله إلا أنت سبحانك إني

كنت من الظالمين»... إنها الكلمات التي نادى بها «ذا النون»

ربه، وهو غارق في خضمّ الكرب العظيم، فنجاه الله...

وأخذوا يتمتمون ساعة أو بعض الساعة، لم يتوقفوا برغم

الصراخ والسيّط القاسية التي تمزّق الظهور العارية، وتبدّد سكون

الليل في القلعة الكبيرة ذات الأسرار الرهيبة...

١٩

قالت هيلدا مخاطبة الكابتن مالوس:

- أيها العزيز مالوس، إنني أشعر بضجرٍ قاتل.

أجابها قائلاً:

- أهو الأسف على ديبوي؟

رفعت إليه عينين عاتبتين وقالت:

- إن ديبوي حدث طارئ، قيمته الحقيقية تافهة، كعشرات

الأحداث التي لا معنى يُذكر لها في حياة كل فرد... إنه يشير

حنقي وتقرّزي أكثر مما يشير عطفياً، والفترة التي قضيتها معه مرّت

كحلمٍ سخيّف، أنت تعرف ذلك يا مالوس...

وأطرقت برهة، ثم عادت تقول:

- إن مجرد ذكر اسمه يشير أعصابي، فلا داعي لأن أسمع اسمه مرة

أخرى.

- تعرفين أن هذا يبهجنى يا هيلدا العزيزة.

وشردت ببصرها إلى بعيد، ثم قالت في نبراتٍ حالمة ذات رنة

خاصة:

- أبحزنك أن أقول الحق؟

- لقد عاهدت نفسي أن يظل قلبي وعقلي مفتحين لتلقي الحقيقة، لأن تجاهلها حماقة.

- رائع... إن هناك رجلاً في حياتي لا أستطيع أن أنساه، على الرغم من أن أبي يؤكد لي أنه قد لقي حتفه في المعارك الأولى، وربما لا يؤدي شعورك أن أذكر بالخير رجلاً رحل إلى العالم الآخر... إنه مجرد ذكرى، أتفهمني؟؟ كان اسمه «ابراهيم آغا» أحبته كما لم أحب أحداً من قبل، كان حبه لي مجرداً من كل معنى دنيء... ربما تسمي هذا حباً خيالياً أو رومانسياً كما تزعم، لكنني واثقة أنني أعبر عن حقيقة شعوري... إن حياتي معه تبدو الآن وكأنها رؤى حلوة باهرة...

قال مالوس مندهشاً:

- من الغريب أن تنطقي بمثل هذه الأحاديث بعد أن قضينا منذ ساعة لحظات من أحلى أيام عمرنا، كنت أعتقد أنني أخلص وأحب إنسان إلى قلبك، هذا ما أستشعره من معاملتك وكلماتك التي ترسخ في ذهني، وأظل أتذكرها طوال الليل والنهار، حسبتني أنسب بديل لمثل هذا الرجل.

قالت في ثقة:

- لا يمكن أن يكون البديل صورة طبق الأصل.

- هذا معنى عميق يستحق التصديق والاحترام، لكن لماذا كان ابراهيم على تلك الصورة الحالمة؟

قالت وهي تنهد:

- هذا ما لا أستطيع تفسيره، كان ابراهيم حقيقة مشرقة ملأت كياني كله وروحي، كيف؟ لا أدري، لماذا؟ لا أدري... ولمحت هيلدا سحباً من ضيق تغشي وجه مالوس، لقد زعم أنه مفتوح العقل والقلب، وأن الحقيقة لا تزعجه، لكنها ترى الآن أن الغيرة أقوى من الحقيقة، وأن منطق العاطفة أقوى بكثير من منطق العقل، وخاصة في مثل تلك الظروف، وخلال سني العمر الوهاجة بالعواطف والانفعالات، وتمتعت:

- هل تضايقت؟

قال وهو يزفر:

- ربما، إنها كبرياء الرجل... أنت تدركين ذلك لا شك.
- لكن ابراهيم مات وانتهى أمره.

- الأشياء التي تحدثن عنها يا هيلدا لا تموت، إنني لا أعرف ابراهيم هذا، لكنني متيقن أن صورته الغامضة ستلاحقني في يقظتي ومنامي، ستظل تطفئ من حماسة حبي المشتعل، يمكن أن أنسى أو أتجاهل صورة رجل له هذه المكانة المقدسة في قلبك؟؟ ومع ذلك فإن الأمر ليس له علاج حاسم سريع... إنه متروك للزمن والتجارب.

ابتسمت هيلدا وقالت:

- لقد استنتجت حقيقة جميلة.

- ما هي؟

- إنك تحبني وتغار عليّ في عنفٍ بالغ...

فطوّقها بذراعيه وهو يقول:

- أتشكين في هذا لحظة يا حبيبتى؟

- كنت أعتقد أنكم معشر الفرنسيين لا تفكرون في غير اللذات العابرة، لأن القسوة التي تعاملون بها المواطنين هنا، جعلتني أوّمن بأنكم تختطفون كل شيء اختطافاً حتى تهرولوا إلى غيره، إن ما يسعدكم هو أن تروا مظاهر الاستسلام تحت ضرباتكم العنيفة.

قال مالوس:

- قد تعيدون التفكير في النتائج والأحكام التي توصلت إليها، لو نظرت إلى وضعي ووجدتني أنا المستسلم استسلاماً تاماً لك يا هيلدا.. ثم طبع على شفثيها قبلة طويلة..

قالت في أدب:

- آه أن تنصرف، فإن أبي على وشك الحضور.

- وهل يضايقه أن يجدني هنا؟

- على الأقل من الناحية الشكلية.. إنها مجرد تقاليد يجب أن تراعى.

قال مالوس:

- إن أمامي بعض الوقت، الغريب أنك تتهميني بالتقصير في الحضور، وتشكين من الفراغ القاتل الذي تعاني منه، ثم تأتين الآن وتطلبين مني أن أنصرف.. إن اللفتة التي تستقبليني بها تختلف كثيراً عن الفتور الذي تودعينني به.

- حسناً.. فلتبق كما تشاء..

ولم تكذ تكمل عبارتها حتى دق الباب..

قالت هيلدا:

- ألم أقل لك؟ لقد أتى أبي.. ألا تشعر الآن ببعض الحرج؟..

قال وهو يلثم شعته:

- أنتِ على حق..

دخل برتلمي وانصرف مالوس.. وألقى برتلمي بجسده المتعب فوق أقرب مقعد، كان حائراً بين رغبته الشديدة في النوم، وشوقه الجارف للطعام.. وقالت هيلدا:

- ما معنى أن تخرج في العصر ولا تعود إلا في صباح اليوم التالي لتنام؟ أيمن أن تمضي الأمور على هذه الوتيرة؟ إنني أقاسي من ملل قاتل، وأنت لا تكاد تشعر بما أعانيه.

- وماذا أفعل في المهمة الصعبة الموكولة إليّ؟

- أية مهمة، بعد أن انتهت الثورة وعاد السكون؟

قال برتلمي ساخراً:

- انتهت الثورة؟ يا له من حلم!.. لقد نشبت من جديد في

أقاصي الصعيد والوجه البحري، وصدق صديقنا الفرنسي «ريبو» الذي يقول في أحد مقالاته: «كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين، وفرض الغرامات على البلاد، لكن الثورة كانت كحبة ذات مائة رأس، كلما أخمدتها السيف والنار في ناحية، ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت، فكانها تعظم ويتسع مداها، كلما ارتحلت من بلد

لآخر».. هذا ما قاله ريبو الذكي.. والحقيقة أن دوري هنا في القاهرة له طبيعة أخرى، إنني كقائد لرجال العسس ذو مسؤولية مضاعفة.. فأنا أقضي الليل بطوله في القلعة.

قالت هيلدا:

- القلعة؟! -

- أجل.. السجن.. الجميع يعرفون ذلك، إنني أقوم باستجواب الثوار وتأديبهم وكشف خططهم، وقتلهم إذا اقتضى الأمر.

قالت متأففة:

- إنه شيء رهيب!...

- ليكن، إن تصفية جيوب المقاومة أمر لا مفر منه، وإلا ضعنا، وهو إجراء عادي إبان الحروب والأزمات.. إن رقة قلبك يا هيلدا تجعل على عينيك غشاوة تحجب عنك ما يجب إدراكه، أتظنين أنه في الإمكان أن نستقبل الثوار كما نستقبل الشرفاء والنبلاء؟ وماذا نحصل منهم بعد ذلك؟.. إننا ننتزع أظافرهم فلا يتكلمون، ونمزق أجسادهم بالسياط فلا يجيبون بغير الأنين، ونسمل عيونهم، ونقطع ألسنتهم فيصمدون بطريقة تحقني.. ماذا يريد هؤلاء الأغبياء؟ إنهم كمجموعة من الثيران الهزيلة تحاول أن تنطح جبل المقطم كي ترحزحه من مكانه..

قالت هيلدا، وقد اقشعرَّ بدنُّها:

- أبي.. دع هذا الحديث، وقل لي كيف أعيش وحدي في هذا القصر الواسع؟.. لا بد من حل.

ابتسم في وهن:

- اطمئني.. لن تكوني وحدك بعد اليوم.

- ماذا تعني؟

- لسوف تأتي امرأة أخرى تعيش معنا.

قالت في اهتمام:

- أتزوج؟

- ليس هذا على وجه الدقة، ولكنه شيء قريب منه.. إنها مجرد صديقة مؤقتة، لأن الزواج يحتاج إلى وقت وتدبر واختيار سليم.. هزّت رأسها وقد فهمت كل شيء.. ستنضم إلى الأسرة «داعرة» ترفه عن أبيها.. ماذا جرى للعالم؟.. كل شيء يتحول، كثير من القيم تداس بالنعال القذرة، حماقات تُرتكب دون وازع من خلق أو ضمير، الجرائم تُرتكب ببساطة، وأنا - هيلدا الطاهرة - أمضي في الموكب الآثم دون إرادة أو عزيمة، كلنا نسير في القافلة التعسة، فلا نكاد نفيق لتتوقف أو نغيّر وجهتنا، أو حتى نبدي قليلاً من الندم.. لقد انتهت أيام زمان الرائعة «يا بنت فرط الرمان يا حلوة»..

٢٥

جلس «برتلمي» منتفش الشعر، جرت الخمرة في دمه فبعثت الاحمرار في وجهه، والنزوة في عينيه، والغرور والقسوة في قلبه. وكان جلوسه في سجن القلعة ومن حوله عدد من الضباط والجنود غاليبتهم من الأروام، وعدد قليل من الفرنسيين..

وكانت الأضواء الباهرة تفيض على المكان، وتبدد ظلمة الليل الحالك، وقال برتلمي لمن حوله:

- أعتقد أننا قد نفذنا حكم الإعدام في أكثر من ثمانين زعيماً من زعماء الثورة، أقطع الرأس، فتذبل الأطراف وتموت، كان هذا هو رأيي دائماً، ومن حسن الحظ أن ساري عسكر نابليون قد اقتنع به، أما باقي المسجونين فقد استطعنا أن نذيقهم ألواناً من العذاب البدني والنفسي، فتحطم كبرياؤهم، وحلّ اليأس والذلّ في قلوبهم.

ثم دار بأنفه يمينا ويساراً كذئب مفترس، وقال:

- إن رائحة القلعة لا تُطاق، هؤلاء الأوباش المعتقلون أصبحت رائحتهم منتنة تثير التقرز.

وصمت برهة، ونظر إلى أحد الضباط الأرمن وقال:

- يعقوب..

- نعم سيدي..

- هناك لعبة يحلو لي أن أمارسها دائماً.

- الشطرنج؟..

فهقه برتلمي ساخراً:

- أيها الساذج، أنا لا أطيق التفكير الطويل الممل، ولا الجلوس لساعات طويلة، إنني أتصرف بيدي وقلبي أكثر مما أتصرف بعقلي، وأقدس الآراء السريعة الحاسمة، التفكير الطويل، ودراسة الأشياء الدقيقة، والاهتمام بالتوافه يأخذ بيد الإنسان إلى التيه والعقم والتردد.. أتفهمني؟

قال يعقوب:

- تحت أمرك يا سيدي.

- حسناً.. أريد أن تجمع لي عشرين رجلاً من عظماء القوم من بين هؤلاء المعتقلين..

ردّ يعقوب بسرعة:

- فهمت يا سيدي، ونحضرهم لك لنقطع رؤوسهم، ثم نضعهم في زكائب ونقذف بهم في النيل.

وعاد برتلمي يقهقه من جديد:

- أيها الأبله، لقد سئمت هذه اللعبة.. أريد أن تجمعهم هنا لأكلهم.

همس يعقوب في دهشة:

- تكلمهم؟! أتعني التحقيق معهم وتعذيبهم.

- لا أقصد ذلك.. أنت ترى أن المعتقل قد أصبح قذراً،

ورائحة القلعة لا تُطاق، وأعتقد أن هؤلاء العشرين، إذا ما خلعوا

أحذيتهم وشمروا عن سواعدهم، فلسوف يحسنون نظافة

الأرض، وغسل الأبواب والنوافذ، وإزالة المخلفات الأدمية

بطريقة نظيفة.. يجب أن يمارسوا عمل الخدم لفترة من

حياتهم، حتى تنهذب نفوسهم، وترق حاشيتهم.. جهّز لكل

واحد منهم مكنسة وقطعة من الخيش ودلواً جميلاً..

دقّ يعقوب الأرض بقدمه، وأدّى التحية العسكرية قائلاً:

- أمر سيدي.. وأنا أفهم الباقي.. أعني يجب أن يتحركوا

بسرعة، ومن يشمئز أو يتوانى فالسياط كفيلة بتنشيطه.

تنهد برتلمي في ارتياحٍ وقال:
- لتجمع لي الرجال العشرين بسرعة...



أسرع الضابط بالمرور على مختلف الزنانات والعنابر... كان يسأل كل واحدٍ عن عمله ومركزه واسمه، والحي الذي يقطن فيه، أو البلد التي قَدِمَ منها... ثم اختار في النهاية عشرين رجلاً أغلبهم من كبار التجار والعلماء ومشايخ الحرف الشائعة، وكان من بينهم الحاج مصطفى البشتيلي... وتراص الرجال العشرون أمام برتلمي الذي وقف مرفوع الهامة، واضعاً يديه في جيبي سترته، بارز الصدر وكأنه يتحدّى أكبر قوة في الوجود، ثم قال مخاطباً الرجال:

- أنتم تعرفون مَنْ أنا، إن كلمتي هنا هي القانون، لقد أعدمت الكثيرين منكم، لأن مَنْ يتحدّى إرادتي لا يستحق أن يعيش... أعرف أن أغلبكم من عليّة القوم، وأن كل واحدٍ منكم يحتفظ بشجرة النسب في بيته، لكنها حماقة لا معنى لها... إن رجلاً مثلي لا يُعرف له أب منذ الصغر، يستطيع أن يدوسكم ويدوس مجد آبائكم أيها الحقراء... إن فرنسا قد انتصرت، وستوالي انتصاراتها حتى يدين لها العالم بالطاعة والولاء، ومَنْ يعتقد غير ذلك، فهو خائن أو مجنون أو مخدوع، والثلاثة أنواع لا معنى لوجودهم على قيد الحياة... أتمنى أن تغيروا أفكاركم، وتصححوا معتقداتكم، والدليل على ذلك، الدليل الذي أنتظره

منكم هو الطاعة، وتنفيذ الأوامر... والآن عليكم أن تقوموا بتنظيف القلعة، وخدمة باقي المعتقلين والمسجونين والعساكر... أتفهمون؟؟ والآن تستطيعون البدء في عملكم.
صُدم البشتيلي لأول وهلة، لكنه شعر بعد ذلك بفرحة غامرة، لعل مصدرها إحساسه بأنه يؤدي عملاً طيباً من أجل مواطنيه المحبوسين، أو لعله أدرك أنه ضرب جديد من ضروب الصبر والجهاد في سبيل الله، ثم أنه فتح صدره لهواء نوفمبر المنعش، برغم برودة الجو، وأخذ يستنشق ذلك الهواء في لذةٍ ونهم، لا شك أن خروجه للعمل بعيداً عن ضيق الزنانة وظلامها وعفونتها يخفف بعض الشيء من عنت نفسه، وخرج صدره... إن العمل الذي سيؤدّيه عمل محط في نظر برتلمي، لكنه عمل على أية حال، ويؤدّيه كثير من الناس، والبشتيلي لا يتميز عن باقي الناس بميزة، فالتفاضل بين الناس - كما علمه الدين - لا يكون إلا بالتقوى والعمل الصالح... والنظافة وخدمة زملائه السجناء عمل صالح لا شك في ذلك...

لكن الذي أحقّه أكثر، تلك الكلمات الشاذة الشرسة التي خرجت من فم برتلمي الملعون... إنه يتكلم كإله، كسلطة عليا لا رادّ لمشيئتها... إن مثل هذه الكلمات التي أطلقها برتلمي، لا عقاب لها سوى قطع رقبته أو تحطيم رأسه الخبيث، لكن ماذا يفعل وهو سجين عاجز مقهور؟... ما أبشع أن يكون الإنسان الحر عاجزاً عن ردّ الإهانة، وجذع أنف الطغاة المتهورين!... لكن مَنْ يدري؟ ألا يمكن أن يكون يوم العقاب والثأر قد قرب؟

ثم إن الله سبحانه قادر على سحق أولئك الذين ينزعون إلى التأله والتجبر وإذلال الأبرياء من بني البشر...

أمسك الحاج بمكنسته، وأخذ يجلو الأقدار عن الأرض، كان يؤدي عمله في همة ونشاط ملحوظين... وزينب الآن في البيت بسولاقي، دامعة العين، تبكي فتاها الراحل، وتبكي أباهما السجين، وتنظر إلى المستقبل بعين الخوف والقلق... وولده الحسين يتميز غيظاً وألماً، وهو يفكر في أمر أبيه السجين ذي المصير المجهول... وأمهما تجلس كعادتها شاحبة الوجه، محتقة العينين، واضعة خدّها على قبضتها المرتعشة، تفكر في وضع زوجها العنيد الذي طلق حياة الدعة والراحة، ورفض الهجرة والنجاة بنفسه وبأسرته، وفضل المشاق والمتاعب والمخاطر على كل ترف الدنيا وراحتها...

وزفر الحاج في ألم، ثم تمتم: «هيه... دنيا»...

ولم يكد يرفع رأسه، حتى هوى على ظهره سوط من الخلف، وصوت أجش يصيح به:
- اشتغل يا كلب!...

وكاد الحاج ينقض على الجندي الواقف خلفه تحت عتمة الليل، لكنه تماسك وابتسم في لذة غريبة وهو يقول:
«حاضر»...

واستمر يعمل وقلبه يدق، وقطرات من العرق تتصبب على جبينه، برغم برودة الجو، وعاد يفكر «اشتغل يا كلب»... آه... ما قيمة وجهة نظر الآخرين بالنسبة لي... إنني أعرف من أنا، مجرد

جندي يخوض معركته الضارية ضد المعتدين، ومن ثم فإن ما يقوله برتلمي وزبانته هراء، إنهم هم الحقراء أمام التاريخ وأمام الضمير الإنساني الحي... وأمام الله... أجل، إن وجهة نظر المنحرفين الطغاة لا قيمة لها، وإنما هي مجرد كلمات جوفاء تتلاشى في ليل القلعة البهيم...

لقد نال التعب منه كل منال، وأرهقه طول السفر، ولفحت السمرة وجهه الذابل النحيل الذي يدل على أن صاحبه قد أبل لتوه من داء عضال، ودخل القاهرة قبيل المغرب، القاهرة «يا مدينتي الرائعة»... هكذا تمتم الضابط «ابراهيم آغا» وهو يلثم بنظراته المكدودة كل مظاهر الحياة في الشوارع الكبيرة... الناس... والحيوانات والمباني والأرض والسماء... ما أشد الفارق بين حياة الكرّ والفرّ والتهلكة في أعماق الصعيد وجباله ووديانه، وبين مدينته الحبيبة القاهرة بكل ما فيها من ذكريات وأمجاد وأحلام ورديّة... لكنه - للأسف - يتسلل عبر الشوارع كلصّ هارب، عيناه تتأرجحان في خوفٍ وقلق، هو يعلم أن عيون العسس في كل مكان، وأن مصير أي واحد من المماليك في القاهرة هو الإعدام، وأن مصير كل من يتستر على مملوك أو يؤويه مصير قاسٍ لا رحمة فيه، يا لها من ليالٍ قاسية تلك التي عاشها «ابراهيم آغا» مع «مراد بك» ورجاله في الصعيد!! إن «ديزيه» أحد القواد الفرنسيين الكبار، يطارد مراد ورجاله من مكان إلى مكان، ويضيق عليهم الخناق، ويضرب

عليهم بقسوة.. وعلى الرغم من المآزق التي يتعرض لها «ديزيه»، والكماثن التي ينصبها له أبناء مصر البواسل في قرى الصعيد ومدنها ونجوعها، إلا أنه يتقدم، مستهيناً بالتضحيات، متخطياً كل العقبات، حتى تتحقق للفرنسيين السيادة الكاملة على الوجه القبلي، هكذا كانت أوامر نابليون الصريحة.. ومع أن خطوط تمرين «ديزيه»، سواء في البر أو النهر، تتعرض لهجمات رجال المقاومة المصريين، ويتكبد بسبب ذلك الخسائر الفادحة، إلا أنه يسلك كل السبل، ويستعمل العنف البالغ في أغلب الأحيان، حتى يقضي على المقاومة، ويحصل على المؤن، ويؤمن الطريق لقواته...



تُرى ما مصير هيلدا الآن؟ وكيف حالها؟.. إن إسم أباهما يتردد على كل لسان، أصبح برتلمي شخصية رهيبة تشيع الرعب والكراهية في كل الأنحاء، ونال من المجد الملوّث بالدم ما لم يكن يحلم به قط، فهل ترك هذا كله أثراً على شخصية «هيلدا بنت فرط الرمان الحلوة»؟.. وأياً كان الأمر، فإن إبراهيم يتحرق شوقاً لرؤية هيلدا، فهو يتذكر الأيام الجميلة التي قضياها معاً، ويتذكر عهود الحب والوفاء والأمنيات الجميلة التي رتعا في جناتها رديحاً من الزمن، لسوف يبحث عن هيلدا.. لعلها تكون المأوى الوحيد الآن الذي يلجأ إليه في هذا الجو المضطرب الآسن، ولا شك أن حب أبيها لها وتأثيرها عليه، سوف يضمن لإبراهيم

السلامة، لأن إبراهيم لو ذهب إلى أحد أصدقائه القدامى من المصريين أو الأتراك، فربما يسلمه لحبل الجلاد، أو لسيف العسس، فيقضى عليه قبل أن تعلم هيلدا بأمره.. إن إبراهيم يشك في نية برتلمي ولا يؤمن قط بأنه شهم نبيل، مستحيل أن يكون برتلمي كذلك في هذه الأيام...

وظل إبراهيم يبحث الخطى حتى وصل منزل برتلمي.. وهتف إبراهيم بأحد المتسولين العاجزين:
- لا شك أن هذا هو بيت «فرط الرمان».

قال الرجل، وهو يرفع إلى السائل عينين واهتي البصر:
- لا شك أنك غريب عن هذه الديار.. لقد رحل «فرط الرمان» من زمن.. إله يقيم الآن في قصر كبير، تحفه الحرس والكلاب المتوحشة.. حذار أن تقترب من هناك.

ودار إبراهيم حول البيت المهجور يستعيد الماضي والذكريات، ولم يترك المكان إلا بعد أن عرف مقر برتلمي الجديد، لكنه لا يستطيع المزيد من المشي.. لكم قاسى طوال الطريق، محاولاً تجنب نقط المراقبة والمطاردة التي رتبها الفرنسيون في أماكن عدة، ثم إنه يشعر بجوع شديد ورغبة عارمة في النوم، ثم إن الغبار يكسور داءه ويلوّث وجهه وحذاءه، ويترك آثاره الواضحة على يديه وعنقه.. وليس من اللياقة أن يطرق باب القصر الكبير، أو يتسلق أسواره ويقابل هيلدا وهو على هذه الصورة الشائنة.. وانحنى إبراهيم في ذلة، وهمس في أذن المتسول الجالس إلى جواره:

- أعندك طعام؟

قال المتسول، وهو يستخرج من جعبته رغيفاً وحصوات من الملح:

- ألم أقل أنك غريب؟؟ حذار أن تكون أحد الشوار أو الممالك الهاربين، إن «فرط الرمان» لا يرحم.

لم يعلق إبراهيم بشيء، وإنما أقبل على الخبز والملح بلهفة شديدة، كان الطعام ألد وأشهى من أي طعام ذاقه طوال حياته، لسوف يذهب إلى جامع الأزهر الشريف، وفي حيّ الأزهر سيجد الكنافة التي يحبها، والمشروبات الدافئة وبعض الفاكهة، فهو يملك قدراً من النقود قليلاً... وفي أحد أروقة الأزهر سيجد المكان الصالح للمبيت... ما أكثر الذين يأويهم ذلك المسجد من كل لون وجنس، وهناك يأمن على نفسه، ويستطيع التفكير الهادئ، ورسم الخطة الناجحة، والتخطيط لحياته من جديد، ولا شك أن ذلك كله يعتمد على موقف هيلدا منه...

كان يخطو نحو الأزهر بقلبٍ واجفٍ مضطرب، وبقايا من دوريات العدو تتجول عبر الشوارع الرئيسية، في كثير من الإطمئنان وعدم الإكتراث... ولفت نظره كثرة الدور المهدمة والخرائب، إن آثار التدمير تبدو واضحة جلية على الرغم من مرور ما يزيد على شهر من نشوب الثورة التي انتشرت أنباؤها في كل مكان...

ودخل المسجد الكبير، فاستشعر لأول وهلة قدراً من الطمأنينة والسلام، لقد رأى أنه في رحاب الله، وأنه يستطيع أن يؤدي

بضع ركعات، لأنه في مسيس الحاجة - وخاصة في هذه الأوقات الحرجة - إلى مناجاة ربه، والركون إليه... ما أعجب قلب الإنسان!! فإذا ما استشعر الخوف لاذ إلى كنف مولاه، وازداد تشبثاً والتصاقاً به... إنه نوع من النقص الخلقي وتخلف الإيمان... لم لا يظل الإنسان على ارتباط وثيق، وقرب دائم من الله؟... إن إبراهيم يعترف بينه وبين نفسه، أن الدنيا شغلته طويلاً، وأن تفكيره في أطماعه الشخصية، وأمجاده الذاتية، قد صرفاه عن الطريق القويم... لقد رأى الموت بعينه أكثر من مرة، رآه في الصراع الدامي بين أميره وغيره من الأمراء في ساحات القاهرة وشوارعها، من أجل النزاع على السلطة قبل مجيء الحملة الفرنسية، وراه في معركة «إمبابة» الشهيرة، حيث تدفقت النيران على رأسه هو وزملائه، ولم ينبج إلا بأعجوبة، وراه في المعارك العديدة التي دارت رحاها في أقاصي الصعيد ضد قوات «ديزيه»، ثم إنه لم يزل يسير يظلمه تهديد الموت بجناحيه الرهيبيين كمملوك هارب، تلاحقه عيون العسس...

يا الله... ألم يفكر قبل ذلك في أن العمر رحلة قصيرة، وأن الله هو الملجأ الأول والأخير، وأن عمل الخير أجدى عليه وعلى الناس؟... معانٍ كثيرة كلها تحتشد في رأس إبراهيم، وهو يتقدم صوب صنادير الماء ليزيل تراب السفر الممتزج بالعرق، لكنه يرى آثار العبث والتدمير في الأزهر نفسه... لقد سمع عن ذلك من قبل، ولكنه كان يستبعد أن يحدث مثل ذلك... أيصل بهم الاستهتار لهذا الحد، فيعبثون بالمقدسات، ويلوثون المحارب،

شيء آخر له قداسته واحترامه، وقلبه لا يطاوعه على هجرانها من أجل سفالة أبيها، ولماذا تؤخذ الابنة بذنب الأب؟ .. إن مسؤولية الإنسان أمام ربه مسؤولية فردية، وهذا قمة العدالة، فلاطبق هذه النظرية على هيلدا المسكينة...
وأذن للفجر بعد ليلة مرهفة، فتحامل ابراهيم على نفسه متثائباً مجهداً ليؤدي الفريضة...

٧٧

«يا له من من قصر رائع!» هذا ما تتم به ابراهيم آغا، وهو يقيس قصر برتلمي الجديد بنظرات الدهشة، ثم استطرد:
- «أيمكن أن يكون هناك ذلك الفرق الشاسع بين مسكن برتلمي القديم والجديد، منعكساً على هيلدا الأمس واليوم؟؟ إن أخش ما أخشاه أن تكون هيلدا قد تغيرت»...
كان قلبه يدق، وقدماه تتقدمان نحو الباب، وخوف مبهم يشده إلى الخلف، لكن ذكريات قديمة رائعة تحاول أن تبدد مخاوفه.
وحى ابراهيم بواب القصر في أدب، ثم أخبره أنه يريد فتاة القصر في أمر هام، وما عليه إلا أن يبلغها اسمه... وبعد دقائق كان ابراهيم يدلف إلى الممشى الأنيق وسط حديقة صغيرة عبقة الرائحة، تكتنفها الأزهار من كل جانب، وخاصة الأزهار الحمراء... وعندما رآته هيلدا شحب وجهها واضطربت، وتمتمت دون وعي:
- مستحيل...

ويلهون برمز السلام في الحرم الآمن؟ .. يا لهم من وحوش! ..
وتومض في ذهنه ومضة خاطفة من الماضي... آه... كنا نهب المتاجر، ونسلب الآمنين أموالهم وأمتعتهم وبضائعهم، وكنا نشتبك في صراعات دنيوية تافهة... إنهم يفعلون مثلما كنا نفعل، الغرور بالقوة الغاشمة، والتصرف بحماقة وقسوة... يا له من درس! ..

وقضى «ابراهيم آغا» ليلة ليلاء بالأزهر، سمع الكثير عن الثورة وعن البطولات الفذة... ودمعت عيناه، وهو يتلقف في لهفة كل كلمة عن الضحايا وقصص العذاب الوحشي الذي يقاسيه المواطنون الأبرياء على يدي الأعداء وأذئابهم، ثم الإذلال والمهانة التي لحقت بعلماء الأزهر وأشرافه، ووجهاء القوم الوطنيين المخلصين... لقد رأت القاهرة الكثير من الصراعات الدامية، ومع ذلك فهي تقف صابرة صامدة، تتحدى العبودية والموت، وتأبى إلا أن تصمد للعاصفة الرعناء الوافدة من الغرب، والمعاناة بكل قوى الشر والتحدى...

شيء آخر أزعج «ابراهيم آغا»، وأرق نومه، وجعله يتقلب مغمض العينين مجهد الفكر، ذلك هو ما سمعه عن «برتلمي»، إن تصرفاته غاية في البشاعة والندالة... كيف يواجه مثل هذا المخلوق، ويضع يده في يده، وبرتلمي تقطر يده من دماء الشهداء؟ .. أيمكن أن تبقى صداقتهما القديمة كما كانت؟ .. إن كل الظروف تقف ضد ذلك الافتراض الساذج، ومع ذلك فإن لدى ابراهيم رغبة ملحة في لقاء هيلدا، إن ما بينهما من الحب

- إني أحيي أطيب قلب عرفته في حياتي ..
قالها وهو يمدُّ يده مصافحاً، بينما وقفت هيلدا جامدة، ثم
همست حالمة:

- كيف يحدث ذلك؟؟

أجابها إبراهيم:

- خضتُ إليك يا حبيبتى بحار النار والخوف، واجتزت
صحراء العذاب والخطر، وكلما كُلتُ قدماي، لمعت في أفق خيالي
صورتك البهية، فيمتلىء جسدي بالنشاط، وتفيض روحي
بالأمل، وأيقنتُ آنذاك أنك يا هيلدا أُملي وحياتي ..
لم تفق من شرودها وأخذت تقول:

- لم أصدق الخبر عندما أخبروني بموتك .. كنت واثقة ثقة
غريبة أنني لا بد أن ألقاك في يومٍ من الأيام .. وكلما أكدوا لي
الخبر الكاذب المشؤوم، ازدادتُ ثقة بوجودك، لكن مرور الأيام
كاد يوثسنني .. إن كل يوم يمرّ يجعلني أؤمن بقلبي وتفوقه على
عقلي ..

ثم أفاقت إلى نفسها، واختطف يده تشبعها لثماً وتقبيلاً،
وأخذت تقول والدموع في عينيها:

- أشعر الآن أنني قد بلغت مرفأ السلام الذي حلمت به
طويلاً .. يا لها من ليالٍ عصيبة، لكأنما كنت أمخر عباب بحرٍ
هائج عاصف الريح، حالك السواد لا تبدو فيه غير وجوه
أكرهها .. آه .. ديبوي .. وغيره كثيرون.

ابتسم في سعادة، وقاسَ الحجرة الأنيقة الفاخرة الأثاث،

وقال:

- أيمكن أن يحدث ذلك لأميرة ساحرة تحيى في هذا القصر
الفخم؟ ..

ثم تذكر ما قالته في بداية حديثها، فأسرع قائلاً:

- لكن مَنْ أخبركِ أنني مت؟

طأطأت رأسها في خجل وهي تقول:

- أبي ..

- اوه .. لعل أحداً خدعه .. في مثل تلك المعارك الشديدة
تترامى الأنباء هنا وهناك دون دقةٍ أو تحرٍ .. المهم هو أنني حيّ
أرزق، وأني أجلس الآن إلى جوار نور عيني هيلدا .. هذه أعظم
حقيقة في الوجود بالنسبة لي ..

ثم تنهد في غير قليل من الألم وهمس:

- وعلى سفوح الجبال في أعماق الصعيد، كان وجهك الطاهر
يشرق لي فيبدد الكثير من عذابي وضياعي .. كنت أحيأ بشيء
ولشيء عظيم.

وتساقطت دموعها بغزارةٍ وهي تقول:

- أما أنا فكنت أعيش ضائعة ممزقة في شبه غيبوبة .. أحاول
النسيان بطرقٍ شتى كريهة إلى نفسي .. ولكن هيهات، إن الزيف
والوسائل المصطنعة قد ورطتني في مآسي كثيرة، وأضافت إلى
أساي عذابات جديدة ..

ثم أمسكت بذراعه وهي تشهق:

- صدّقني .. إنني لا أستحق الحياة، ولا أستحق إنساناً نبيلًا

مثلك . . لو عرفت الحقيقة لبصقت في وجهي . . أجل، إنني أعني ما أقول . . إن الغزاة الغرباء الأقدار - وقد كنت تحمل سلاحك لحربهم - كانوا يقدون إلى بيتي فيستقبلهم أبي بالبشر والترحاب، ويملأون القصر بالضجيج والمرح والنكات الفارغة، وأنا أشاركهم العبث والكؤوس . . أنفسهم؟؟ العبث والكؤوس . . كلهم ذئاب . . أبي . . ديوي الصريع . . مالوس الساذج، وساري عسكر نابليون نفسه . .

لم يغب عن فطنته أن أحداثاً جساماً قد جرت، وأن هيلدا قد قاست الكثير، وأن شبابها الغض قد تعرض لعواصف عاتية . . ولم يدرك ماذا يقول، لكنه تمتم والحيرة في عينيه:

- ما هكذا يكون اللقاء بعد غيبة طويلة . .

- هل أخدعك؟؟ لم أعد أطيق تلك الحياة القذرة . .

طأطأ رأسه في حزن وقال:

- أعرف أن أبائك قد أتى أفعالاً غريبة، لا أدري كيف تورط في ذلك على هذه الصورة الفاضحة، ولا أدري كيف أقابله . . .

قاطعت هيلدا في خوف:

- أتتوي مقابلته؟

- ولم لا؟؟

- القتل من نصيب كل مملوك هارب .

- أعرف ذلك .

- فكيف تغامر بحياتك يا ابراهيم؟ . .

- يستحيل أن يفعلها معي، إن ما بيننا من الود القديم، ثم إن

ما له من صلاتٍ وطيدة بالفرنسيين، تجعله يحمي صديقاً له ولا بنته .

قالت في ضيق:

- أنت لا تعرفه، إنه يبرر كل تصرف قاسٍ، ومصلحة الأمن - أعني مصلحة الفرنسيين - فوق كل اعتبار . . أرجوك . . يجب ألا تلقاه، ويجب أن تنصرف فوراً الآن حتى ندبر الأمر .

ودق باب حجرة الاستقبال، وهبت هيلدا واقفة في رعب ولم يستطع ابراهيم هو الآخر أن يداري انفعاله الطارئ . . وهتفت بصوت مبحوح:

- من الباب؟ . .

رد أحد الخدم قائلاً:

- الكابتن مالوس ينتظر . .

توثب الضيق في عينيها، وهتفت:

- قل له ليس الآن . . ليأت في وقت آخر . .

وفتح الباب فجأة، وجاءها صوت مالوس:

- أيمكن أن أعود دون أن أراك، وبينني وبينك خطوات

قليلة؟ . .

اندفعت هيلدا نحو الباب كالمسعورة، وأخذت تدفع مالوس

بكلتا يديها، وهي تصرخ:

- إذهب . . إذهب . . لا أريد أن أراك .

وبين ذهوله الزائد تلفت يمنة ويسرة، فوقعت عيناه على

«ابراهيم آغا»، فهتف في خبث، وقد رأى رقة حاله وشحوب

قالت هيلدا والدموع تختلط بالخوف في عينيها:
- أيمكن أن أطلب منك كرجل نبيل شيئاً بسيطاً؟؟
- إنني في خدمتك... إنني أحترم الأوقات الرائعة التي...
فقاطعتها قائلة:

- عدني بالأخبار أبي بأي شيء مما حدث الآن.
قال في ضيق وهو يستدير خارجاً:
- على الرغم من قسوة الموقف، إلا أنني أعدك بذلك...



لحظات حلوة قضتها هيلدا مع ابراهيم، كانا يطفئان أواراً
إشتد وطال شبوبه، وعلى الرغم من سعادته الفائقة، إلا أن ما
سمعه من هيلدا وما رآه من تصرفاتها وتصرفات ضيفها الغريب،
قد بعث في نفسه تساؤلات حائرة، وشكوكاً كثيرة... ولم يكن
الوقت ليسمح بالاستفسار والتحري، لأن موعد أبيها قد أوفى،
وهي مُصرّة بإصراراً جازماً على أن ينصرف قبل أن يأتي،
وليمنحها فرصة كافية لتدبر الأمر... وتمت في سعادة وهي
تودعه متعجلة:

- إن لقاء الموتى لقاء رائع...

وبعد أن انصرف ابراهيم، فوجئت هيلدا بصديقة أبيها تنظر
إليها في انبهار، قالت هيلدا:
- ما الذي أتى بك إلى هنا؟
قالت متخابثة:

- مجرد الصدفة، أهنك ما يضايقك؟

وجهه:

- أيمكن أن يكون هذا هو السبب؟؟ يا له من سبب تافه!...

قالت وهي تتميز غيظاً:

- هل علموك في باريس أن تفاجيء حجلات النساء هكذا دون
استئذان؟ إن تصرفاً كهذا يعدّ تصرفاً تافهاً من إنسان تافه.

احتقن وجهه، وتناوشته الشكوك وصرخ:

- من هذا؟

قالت وهي تشعر بلذّة غريبة، وكأنها تنتقم وتصفع كبرياءه
وكبرياء ديبوي من قبله:

- إنه صديقي العزيز «ابراهيم آغا»، هل عرفته؟... لقد
حدثتك طويلاً عنه.

هزّ مالوس رأسه وقال:

- كنت أعتقد أن الموتى لا يُبعثون... والآن أعلن انسحابي...
وجذب الباب بشدة وهو ينصرف، بينما ألقت هيلدا بجسدها
المرتعش على المقعد، وسرعان ما تذكرت أن مالوس قد يخبر
والدها بكل ما رأى، فاشتد بها الخوف والإضطراب، إنها ليست
على استعداد لأن تعرض ابراهيم لأدنى خطر... وذهل ابراهيم
وهو يراها تثب كالقطة، ثم تجري صوب الباب وتهتف بصوتٍ
مرتفع:

- مالوس... مالوس...

وتقابلا في منتصف الطريق، فقال مالوس:

- هل من إساءة أخرى توجهينها إليّ؟؟

قالت هيلدا محتدة:

- يجب أن تفهمي وضعك هنا. . ليست بي رغبة لجرح شعورك، فلا تدفعيني إلى ذلك، وتذكري دائماً أن لي الكلمة الأولى هنا. . وتركتها وانصرفت إلى حجرتها. . .

٦٣

كان ابراهيم يتصور أن الإقامة بالأزهر هينة، لا تحوم حولها الشبهات أو تلاحقها المنغصات، لكن الثورة وانبعاثها من قلب الأزهر، قد أثارت الشكوك في نفوس الفرنسيين وعيونهم، مخافة أن تحدث تجمعات مشابهة، أو تبذر بذور تدبير جديد لحركة تمرّد ثانية، ثم إن ترك الأفكار المناوئة للعدوان لكي تنمو وتترعرع عملية خطيرة تكلف المحتلين الكثير من الوقت والجهد والدماء، ومن ثم بثوا الجواسيس في أروقة الأزهر، مما جعل ابراهيم آغا يشعر بالقلق المتزايد، حتى أنه أثر الاحتفاظ بملابسه الرثة، وعدم الاهتمام بهندامه، حتى يبدو وكأنه طالب علم فقير، أو مجذوب من المجاذيب، ولم يكن هذا يمنعه بأن يصلح الكثير من هندامه عند ذهابه للقاء هيلدا.

وحاول ابراهيم أن يقضي الجزء الأكبر من وقته خارج الأزهر، حيث شوارع القاهرة وأزقتها الكثيرة، وحيث يلتقي ببعض المماليك المتخفين، وبعض الأصدقاء من الترك أو المصريين، وكان حذراً غاية الحذر بحيث لا يلتقي بإنسان يشك

فيه أدنى شك.

ولم يكن هناك مناص من أن يكون موضوع الساعة - الإحتلال - هو أهم ما يدور حوله الحديث، ويلى ذلك في الأهمية موقف المماليك بالذات، ولم يكن «ابراهيم آغا» ليبيدي إرتياحاً للأحداث الجارية، فالفرنسيون يطاردون فلول المماليك في الشرق وفي الجنوب، و«مراد بك» قد تشتت قواته أكثر من مرة، وبعثرتها ضربات «ديزيه». . . والذي آلم ابراهيم آغا، أنه شعر بروح اليأس تدب في صفوف المماليك، حتى أن البعض يفكر في مهادنة الفرنسيين والتعاون معهم، وكان ابراهيم يثور ويقول: «كيف نمذ أيدينا لمصافحة عدو غدر بنا، وسفك دماءنا، وأذل مجدنا، وعاث في الأرض الطيبة فساداً؟» ولعله لم يجرؤ على رمي مراد بك بالخيانة جهراً، وإن كان في قرارة نفسه يؤمن أعمق الإيمان أن مراد بك لا خلق له ولا مبدأ، وأنه يضع نصب عينيه أولاً وأخيراً مصلحته الخاصة، فإذا ما خبر بين مصلحته ومصلحة وطنه - إن صحَّ أن يسمى وطنه - داس على مقدسات الوطن وأمجاده، فلم يكن غريباً أن يفكر في التصالح مع الفرنسيين والتعاون معهم، على أن يهبوه بعض السلطات الرسمية والميزات الوضعية. .

لهذا شعر «ابراهيم آغا» بالاختناق وهو يلهث في أعماق الصعيد بحثاً عن الأمن وراحة الضمير، وبحثاً عن القيم الحقيقية التي تجعل من الإنسان إنساناً بمعنى الكلمة. . . وعول ابراهيم على أن يرحل إلى القاهرة، أن يقتحم المخاطر والصعاب ليبلغ

المدينة التي أحبها، وليعيش بين أهلها - ولو متخفياً - يجري عليه ما يجري على أهلها من الصراع الدامي، والتعرض للعدوان الغاشم بكل شجاعة... إن إبراهيم يشعر لأول مرة، أن إنشاقه على «جماعة» المماليك إنما هو عمل شريف نبيل، لقد قرر إتخاذ هذه الخطوة عندما قرّر مراد بك أن يبعث بمندوب إلى الفرنسيين للتفاهم معهم، وعقد صلح يحقق له أي كسب مهما كان رخيصاً..

لهذا عاد إبراهيم إلى القاهرة، إلى صدرها الحنون.. إلى الأماكن التي أحبها والمقدسات التي عشقتها روحه، وإلى ذكرياته الحلوة.. ولكم تمنى في هذه الأيام العصيبة ألا يجعله الله من طائفة المماليك، لكن ما الحيلة وقد أراد القدر، ولا راد لإرادته، إن لم يكن في استطاعته أن يغير جنسيته، فلا أقل من أن يكون من حيث السلوك والتفكير والتطلعات مصرياً صميماً، إنه تألف من نوع أصيل، تألف مع الأمة التي احتضنت صباه وشبابه وأمانيه، وهو سعيد بهذه النتيجة...



شيء آخر هام ألح عليه إلحاحاً شديداً، بعد أن قضى في القاهرة أياماً قليلة، هذا الشيء انبثق في ذهنه انبثاقاً، حاول أن يبعده عن ذهنه فلم يستطع.. «إن برتلمي الخائن يجب أن يموت»، ذلك خاطر يطارده صباح مساء.. ويحاول إبراهيم أن ينظر في عيني هيلدا الجميلة، ويحاول أن يستشف روحها

الوادعة البائسة، لعل ذلك يحجب عن ذهنه ذلك الخاطر المُلح... لكن النداء يتردد في أعماقه «إن برتلمي يجب أن يموت»، الرجل الذي ذبح المئات، والذي يمسك بمقادير التعساء في هذا الوطن المغلوب على أمره، ويتصرف وكأن ليست هناك قوة أخرى تعلو عليه، ولا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً.. ذلك الذي تنكّر لكل المعاني الإنسانية الرفيعة.. هل هناك فائدة من وجود هذا الإنسان؟؟ ثم، هل إذا حوكم أمام أية محكمة عادلة، سيكون نصيبه غير الإعدام؟؟ هناك أشياء كثيرة لا تنفع لا يحرم اقتلاعها، فما بالك إذا نتج الضرر عن مخلوق شائن كبرتلمي؟؟ إنه إنسان خائن تحت أي فلسفة من الفلسفات المحايدة.. لكن دموع هيلدا تقف في الطريق.. ومعها الحراسة المشددة، والجواسيس المنبثة في كل مكان.. «آه يا قلبي المتأرجح بين الولاء للحب والولاء للأرض الطيبة.. إنك يا قلبي تكتوي بنيران حُبّين كليهما غالٍ وعزيز»..

وفي رحبة الأزهر الشريف، حيث يوجد الناس المتحمسون، والذكريات الدامية، والأفكار الملتهبة، يعزم إبراهيم ويصمم على الانتقام من برتلمي، برغم كل شيء.. وبين يدي هيلدا أميرة الحب والأحلام، يتراجع إبراهيم خطوات وخطوات، وينسى في نشوة الحب، وكلماتها الرقيقة الوفية، كل أحقاد الحياة، ويأنف من العنف والدماء والخواطر المدمرة...



كان ابراهيم على موعدٍ مع هيلدا، وكان يعرف الوقت المناسب لزيارتها بالاتفاق معها.. ولم تغفل عين هيلدا، فقد كانت تدرس الأمر كي تجد له حلاً، أتفاتح والدها، وتشرح له أمر ابراهيم وتطلب منه العفو عنه، والحماية له كمملوك مطارد؟؟ ولم تكن تعلم ما يدور خلف ظهرها، فعندما اقترب ابراهيم ذات مساء من باب البيت، إنقضَّ عليه خمسة من الرجال وأمسكوا به، فسلُّوا حركته وأغلقوا فمه حتى لا يصيح ويشير الضجيج، وفي دقائق كان موثقاً بالحبال ومدفوعاً في عنف واحتقار إلى سجن القلعة...

وتمتم وهم يقذفون به داخل زنزانة مظلمة:

- أجل.. إن برتلمي كان يجب أن يموت.. لكن ما الحيلة، وقد سبق السيف العزل، وانقضَّ عليَّ رجاله كالقضاء النافذ؟؟ إن تصرفه هذا هو الذي قطع الشك باليقين.. آمنت الآن أن مشاعر الحقد التي تعتمل في قلبي ضده كانت على حق.. لكن ماذا أفعل وقد فات الأوان.. وأصبحت في حجرة مظلمة لا أنيس ولا رفيق ولا سلاح؟.. لينعم برتلمي بطغيانه، ولينعم أيضاً بشقاء ابنته.. لكن هل من الضروري أن تشقى هيلدا؟؟ آه من مأساة العجز الساحقة!..

وألقي بجسده في ركنٍ من أركان الزنزانة

وتناهى إلى سمعه صوت حزين عميق التأثير، يتردد صده في ظلمة الليل الحالكة، ولم يكن يعلم أهو صوت سجان أو صوت مسجون:

لو كان بكايا على المحبوب يجي بهولي
لكنت أبكي وأجيب الناس بيكولي
يا ليلي.. يا عيني..

أجل، لا يجدي البكاء أمام صولة القضاء، ولا تنفع الدموع في معركة ضارية أشعلها المجرمون.. اللعنة على برتلمي الحقير وعلى كل من رفعه إلى تلك المكانة الملوثة، وأباح له إذلال البشر، والغدر اللئيم..

لم يكن «ابراهيم» يعلم بالطبع، أن هيلدا وقفت تنتظر طويلاً موعده.. ودخل عليها أبوها ومعه مالوس، وهي تقطع الحجرة ذهاباً وإياباً، والقلق الشديد بادٍ على وجهها، وقالت دون تدبر:

- جئتما في غير موعدكما.

- لا شك أن هذا يسعدك يا فتاتي العزيزة، ألم تتشكي كثيراً من غيابي المتكرر؟؟

وشمَّ أنفها الحساس رائحة غدر مستتر، وخاصة أنها قرأت في عيني مالوس شماتة وخبثاً، لكن عقلها لا يصدق أن يغدر بها الفتى الباريسي «المهذب»، وفاتها أن الغيرة تصنع الحماقات المنحطة...

لم تستطع أن تداري شحوب وجهها واضطراب نظراتها، وأخذت تعث بأناملها، ثم ولَّت هاربة، فتبعها أبوها قائلاً:

- ما بك؟

قالت في اقتضاب:

- لا شيء..

- لا تخفي عني شيئاً.

التفتت إليه كنمرة شرسة وصاحت :

- لا أريد أن أرى مالوس هنا بعد اليوم .

ابتسم في دهاءٍ وهدوءٍ قائلاً :

- لماذا؟؟

- لأنني لا أريد ذلك .

- ليس هذا بكافٍ .

- هل من الضروري أن أبدي أسباباً أخرى؟

- أعتقد ذلك .

- إذن فأليك الحقيقة . . إنني أكرهه وأحتقره . . فلا يلجئني

لأن أقول له ذلك في وجهه ، إن أردت الحفاظ على كرامته .

هز رأسه وقال :

- هل هناك رجل آخر؟

قالت في حدة :

- هذا من شأني . .

ثم استدارت إليه واستطردت :

- وإذا كان هناك رجل آخر ، فأعتقد أن عيونك وعيون مالوس

لن تجهله .

قال محتجاً :

- لا يمكن أن يكون هذا بالنسبة لابنتي الوحيدة .

اقتربت منه وقالت :

- أبي . . أيمن أن تصدقني الحديث ولو مرة واحدة؟

- ومنذ متى كذبتُ عليك؟

قالت دون تحفظ :

- كذبتُ عليّ عندما أخبرتني أن ابراهيم آغا قد مات في

المعركة .

قال متصنعاً الدهشة :

- وهل حدث غير ذلك؟!!

واندفع مالوس في رعونته وحمقى نحو باب الصلاة تاركاً خلفه

حجرة الإستقبال وقال في شماته :

- لقد انتهى أمر ابراهيم ، ولن تريه بعد الآن . .

وصاح برتلمي :

- ماذا تقول يا مالوس؟!!

قالت هيلدا وهي تصرُّ على أسنانها من الغيظ :

- يقول الحقيقة . .

وران عليهم صمت عميق لفترة وجيزة ، قالت هيلدا في

أعقابها :

- إذا لم يعد ابراهيم حتى الغد ، فلسوف أقتل نفسي . .

وجرت صوب حجرة نومها وهي تشهق باكية . . .

كان تهديد هيلدا حاسماً ، قاطعاً ، فانفض برتلمي رأسه أمامها

مستسلماً ، بينما هاجت أحقاد مالوس ، غير أنه كظمها ، باذلاً في

ذلك أقصى ما يستطيع من جهد . . .

قال برتلمي وقد انفرد بمالوس :
- لا تحزن يا مالوس ، سوف نستجيب لرغبتها .
قال مالوس :

- ما معنى ذلك ؟ .. أيقهرنا ذلك المملوك الصعلوك ؟ ..
أنا لا أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية يا مالوس ، إنني فقط أريد الحفاظ على حياة هيلدا المسكينة وتهدة أعصابها ، ولا يعني ذلك هزيمتنا أمام ابراهيم آغا . إنه لم يزل - وسيظل - بين أيدينا ، وسنوجه إليه الضربة القاصمة في الوقت المناسب ، بل إن وجوده إلى جوار هيلدا فيه عديد من الفوائد ، ألا يجوز أن تزهد فيه ، وتكتشف مزيداً من النقائص ؟؟ ثم لا تنس يا مالوس ، أن قلوب البشر قابلة لتحوّلات كثيرة .
هزّ مالوس رأسه قائلاً :

- كلامك يبدو منطقياً ومعقولاً ، لكنني لا أستطيع الصبر عليه .
قال برتلمي :

- تماماً مثل هيلدا . . تحكم عواطفك في مصيرك . . لا يصح أن تكون هكذا دائماً يا عزيزي مالوس .
- أنا لا أطيق رؤية هذا المخلوق .

- بل يجب أن تبشّ في وجهه . . لم لا نستغله ؟؟ ألا يمكن استعماله في الكشف عن خبايا المماليك ، وأعداء الحملة الفرنسية في أنحاء البلاد ؟؟ وعندما يصبح غير ذي فائدة لي ، وتصبح هيلدا أكثر تعقلاً ونضجاً ، نمسك بابراهيم ونقذف به في أعماق الجحيم . . إنها خطة ماهرة يا مالوس الصغير . . .

توجّه برتلمي إلى القلعة ، إن قلبه يخفق من شدة السعادة ، وهو يدلف عبر بوابتها السوداء المتجهمّة ، هناك يكتشف لنفسه سلطات مطلقة ، ونفوذاً لا حدّ له ، ابتداءً من السبّ وضرب السياط ، حتى القتل . . ومرّ - وهو في الطريق إلى زنزانة ابراهيم - بممرّ ضيق طويل . . كان هناك شيخ ينظف الممشى بقطعة من الخيش ، وعندما حاذاه برتلمي هتف الشيخ فجأة :
- إلى متى نبقي محبوسين يا سيد برتلمي ؟؟ إن سجننا هنا بلا محاكمة وبلا نهاية محددة . .

ركله برتلمي في عنف ، فاتكأ الشيخ على الحائط ، وابتسم في مرارة وقال :

- أليس لي حق الشكوى ؟؟ إنني أتمس العدالة . .
وصاح برتلمي طالباً يعقوب ، وقال برتلمي وهو يصرّ على أسنانه من الغيظ :

- هذا المجنون فيه بقية من رجولة وشجاعة . . إن الذلّ المستمر والتجويع والبقاء في ظلام الزنزانة لفترة طويلة ، قد يصلح حاله ، ويجعل منه طفلاً سلس القياد . . ضاعفوا له العقوبة . . مائة سوط على الأقل . . مفهوم ؟؟

هزّ الحاج مصطفى البشتيلي رأسه ، لم تفارقه تلك الابتسامة المرة ، وقال وقلبه يدق :

- « . . . لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

لم يلتق برتلمي بالآ بعد ذلك لما قاله الحاج مصطفى ، كانت مشكلة هيلدا وابراهيم آغا تشغل تفكيره . . شعر بالذلة والهوان

وهو يذهب إلى القلعة لاستخراج ابراهيم بنفسه . . ما أكثر
الرغبات المكبوتة في داخله، تلك الرغبات التي لا يستطيع أن
ينفث عنها، إنه دائماً عاجز عن تحقيق الكثير مما يصبو إليه، ومع
ذلك فالناس - كل الناس - يظنون أنه قادر على صنع
المستحيل . . .

- مساء الخير أيها الفارس الصديق . .

قالها برتلمي، بعد أن فتح السجان باب زنزانه ابراهيم الذي
كان مضطجعا على الأرض فوق لوح متسخ من الخشب . . لم
يتحرك ابراهيم من مكانه، وصاح وهو يدقق النظر من خلال
الضوء المتدفق إلى الزنزانه المظلمة:

- من؟؟ برتلمي؟؟

- إنه أنا . . .

قال ابراهيم وهو يتنهد:

- إنه مكان رائع لكي تضع فيه الأصدقاء.

اقترب منه برتلمي مصافحاً وهو يقول:

- إن ما حدث كان نتيجة سوء فهم خطير . . تصوّر . . وصلتنا
رسالة من رجالنا في الصعيد، أعني رجالنا المندسّين بين
المماليك، وأخطرونا بقدومك وبأنك تعمل على إثارة الفتن،
والكشف عن خطط الجيش الفرنسي وأسراره . . ومن ثم كان
عليّ أن أقبض عليك بأمر من السلطات العليا، ولو لم أفعل ذلك
لأصابني رزاز الاتهام والشبهات . . أنت تعلم موقعي الحرج . .
لو كنت أنت إبني لما فعلت غير ذلك . . .

قال ابراهيم:

- إن شيئاً من هذا لم يحدث . . لا أنكر أنني ساخط على ما
يجري سخط أي فردٍ من أفراد الشعب، لكن سخطي لا يرقى
لدرجة التآمر والتجسس، ثم إن هيلدا تعلم كل شيء . . . لشدّ ما
أخشى أن تكون الرسالة التي وصلتك ملفقة! . .

وخرج برتلمي وإلى جواره ابراهيم، كانا يتجاذبان أطراف
الحديث كأصدقاء لم يحدث بينهما شيء من الجفوة أو سوء
الفهم . . وتذاكرا الأيام الجميلة، ثم جاء ذكر الحرب والثورة
والخراب والدمار والدماء . . وهنا قال برتلمي:

- إن التسليم بما هو قائم أمر لا بد منه، وهزيمة الفرنسيين
مستحيلة، والمقاومة غباء . . إن جيوش العالم كلها لم تستطع
قهر فرنسا، فلا يعقل أن تأتي دولة صغيرة متخلفة ممزقة، وتحاول
هزيمة أقوى جيوش الأرض . . فما رأيك في ما أقول؟؟

قال ابراهيم:

- هذا رأي غالبية المماليك . .

- لكن لماذا يصرون على المقاومة؟؟

- لتحقيق أكبر قدر من الشروط التي يقدمونها لعقد الصلح . .

- وغير المماليك؟؟

- آه . . إن باقي الشعب مُصِرٌّ على المقاومة . . أنت تعلم
ذلك . . أنت تسمّيه غباءً وجنوناً، وهم يسمّونه دفاعاً عن الحق
والحرية . . المسألة معقدة كما ترى، ولن يحلّها مزيد من الدماء
والسياط يا سيد برتلمي .

قال برتلمي :

- ما هو الحل في رأيك يا ابراهيم؟

- أن يعود الفرنسيون من حيث أتوا.

- أنت تهذي .. أهذا هو رأيك أنت؟؟

- رأي رجل الشارع.

- وأنت؟؟

- أنا؟؟ وما قيمة رأيي؟؟ أنا مجرد مملوك طريد، يتلمس

الحياة، ويبحث عن الأمن من شارع إلى شارع...

توقف برتلمي عن السير، وأدرك ما تنطوي عليه كلمات

ابراهيم من إصرار وعناد.. لو قال هذه الكلمات رجل غير

ابراهيم، إذن لمزق برتلمي جسده إرباً إرباً، لكن هيلدا تقف

حائلاً بين إنفاذ رغباته.. ورأى برتلمي أن من الحماسة الصبر

على تلك الروح المتمردة الثائرة، فقال:

- يا سيد ابراهيم.. إنك كمملوك هارب عقوبتك الموت...

ثم إن آراءك الخطرة التي تعترف بها الآن تورّدك مورد التهلكة،

وأنت تعلم دقة مركزي، فضلاً عن أن الكابتن مالوس يعرف

الكثير عن صلتك بنا.. وهو حاقّد وناقم عليك.. لو كنت تحب

هيلدا حقيقة لوفرت لأبيها الأمان، ولانسحبت من حياتنا في هدوء

وخفة، دون أن تثير خلفك ضجة صاخبة.. حسناً.. لسوف

استقبلك في بيتي لبضعة أيام، ومن الضروري أن تتصرف بروية

خلال هذه الأيام، إن أنايتك قد تؤدّي بي وبك وبهيلدا إلى

الدمار الكامل أفهمني؟؟

قال ابراهيم :

- أدرك تماماً ما ترمي إليه.. أنا لست أناانياً.. إنني أحب

ابتك وأعتقد أنها تحبني كذلك، لكنني لن أستغل هذه العاطفة

النبيلة إستغلالاً يشوّه جمالها!!..

استقبلت هيلدا حبيبها استقبلاً حاراً، لم يخفف من حرارته

وجود أبيها، وشعرت أنها وهي تلقاه في النور والهواء دون خوف،

أنها قد انطلقت من قمقم رهيب خائق، ونظرت إلى أبيها في ودّ

وحنان وتمتمت:

- شكراً لك يا أبي.. الآن أستطيع أن أقبل وجنتيك وأنا واثقة

من أنك تحبني أكثر من أي شيء في الوجود...

وتمتم ابراهيم بينه وبين نفسه:

- «بل إنه يحب نفسه أكثر منك، وأكثر من أي شيء في

الوجود»...

٦٥

أقفرت الدار من الصحاب، ولم يعد فيها سوى الدموع

الحزينة والذكريات المريرة، ونسوة يلبسن السواد.. وقدم ذات

يوم الشيخ الأعمى «على الجنجيهي» وطرق الباب، فاستقبله

الحسين - نجل الحاج مصطفى البشتيلي - استقبلاً حاراً، وكانت

الدموع تترقق في عينيه، وتمتم الجنجيهي:

- ألم يعد الغائب بعد؟؟

ردّ الحسين في أسى:

- وكل مسافر سيؤوب يوماً .

وهزّ الجنجهي رأسه، بعد أن قصد حجرة الضيوف، يقوده إليها الحسين وقال:

- إن رضاءنا بما هو قائم، وذلك الانتظار القاتل يبعثان في نفسي الضيق والأسف .

- وماذا نفعل؟

- يجب أن نتحرك .

- كيف؟؟

- إن برتلمي قد يبيع إبنته بالنقود .

قال الحسين:

- لا أفهم ما ترمي إليه .

أتت فناجيل القهوة السادة، وأعطى الحسين الشيخ واحداً منها، ورشف الشيخ رشفة طويلة، ثم قال:

- تستطيع أن ترشوه بالمال، وبهذا تشتري أباك من الضنك والعذاب، إن يوماً واحداً في السجن يساوي ألف دينار، ثم إن حياة السجن مهددة بالمخاطر، مَنْ يدري؟؟ لعل حركة تقوم، أو ثورة تنشب، أو نزوة تطوف برأس برتلمي فيقضي على المسجونين . إنه حقوق مجنون .

كان الحسين ينصت في اهتمام، ويدرك عن يقين ما يرمي إليه الشيخ الأعمى، ولعل العبارة الأخيرة قد أيقظت الرعب والخوف في قلبه . ولم يتركه الشيخ لخواطره، فاستطرد يقول:

- لو استطاع أبوك أن يتصل بك لأعز إليك بذلك .

- بل أعتقد أنه يأنف من هذه الوسائل .

- إفهمني يا ولدي . . إن خروج أباك أمر له أهميته القصوى . . هذا بديهي في الأمور العادية، لكن في مثل تلك الظروف يتحتم طرق كل باب لإنقاذه . . إنه حفاظ على حياته، وحياة الأمة وشرفها .

وران عليهما الصمت، ووثبت إلى ذهن الحسين صورة أمه الحزينة الباكية التي لا تنام من الليل إلا أويقات قصيرة . . وصورة وجه أخته الشاحب، والقلق والعناء النفسي وهما يتواثبان في محجريها . . وذلك البيت الموحش الذي أصابه الوجوم والهموم منذ أخذوا أباه . . وتذكر أيضاً أن المعركة ستطول وأنها ليست هينة، فقوات نابليون تحقق انتصارات وتكسب أرضاً في الجنوب والشرق، وجيشه يهرول نحو الشام ويطرق أبواب «يافا»، ويذبح من العرب والمدافعين الأحرار أربعة آلاف . . ويتسلل إلى «عكا» . . يريد أن يثبت للعالم أنه أقوى من النكسة، ومن أسطول إنجلترا، ومن ثورات الشعب المصري، ومن تحديات أوربا، وليثبت أن آماله الكبرى ستتحقق برغم تحديات الظروف والأعداء، ويمضي في طريقه غير هيّاب . . لقد أعطته الأقدار من القوة والطموح ما جعله يشق طريقه في عناد وإصرار برغم الخسائر . . .

وقطع الجنجهي على الحسين حبل أفكاره حين قال:

- إن كلامي لا يعني أن أباك ليس أهلاً للتضحية . . كلنا على

يقين أنه أقوى من الهزات والعذاب الذي يسقيه له المجرمون . .
إنه رجل مؤمن قوي الإيمان ومن ثم فلا خوف على كرامته وشرفه
والقيم العليا التي يؤمن بها .

خفض الحسين رأسه في حياءٍ وقال :

- لكن كيف الطريق إلى منزل «فرط الرمان»؟

- تستطيع أن تمهد الطريق بنقودك . . أليس لديك ما يكفي من
المال؟

- نحن لا نضنُّ على أبي بأي شيء .

- إذا لم يكن لديك ما يكفي ، فيمكنني أن أتصل بالشيخ
ابراهيم سلامه ونذهب إلى الشيخ السادات ، لعلنا نستطيع أن
نجمع بعض المال . .

ردَّ الحسين على الفور :

- لا . . لا . . إن أبي لا يرضيه ذلك . . إن لدينا من المدخرات
والمجوهرات وبعض العقارات ما يفي بمطالب برتلمي . . .

عندما انصرف الجنجيهي ، وعاد الحسين إلى والدته وأخته
زينب ، شرح لهما وجهة النظر التي عرضها صديق أبيه ، فأبدت
الأم حماسة زائدة ، وأيدتها أشد التأييد . . إنها لا تمانع في أية
وسيلة لإعادة زوجها إليها ، فقلبها دائماً يرتجف من الخوف على
مصيره ، والخواطر السوداء تلعب برأسها دائماً ، وهي لا ترى في
السماء غير الغيوم السوداء المنذرة ، مهما رأى الآخرون زرقة

السماء وصفاءها ، وعلقت زينب قائلة :

- أنا على استعداد لأن أضحي بروحي من أجل أبي . . ولا
يعيننا أن نلبس الخيش ، ونقتات كسرات الخبز ، حتى يعود إلينا
من ذلك المكان الرهيب الموحش . .

وهزَّ الحسين رأسه قائلاً :

- وفي هذا المكان تُرتكب أسوأ الخطايا في حق الشرفاء . .
ولحظات العناء قد تساوي دهرًا طويلاً مريراً . .

وأردفت الأم في حدة :

- إن تركك لأبيك هذه الفترة يُعتبر عقوباً لا يُغتفر . . .

الله وحده يعلم مدى ما تكبَّده الحسين من مشاق ، وهو يطرق
الأبواب ، ويتحسس الطرق ، كي يصل إلى برتلمي . . لقد قصد
أحد الخواجات من كبار تجار المجوهرات ، وقصد أحد كبار تجار
الخمور ، وذهب هنا وهناك ، وكل واحد يريد أن يقبض الثمن من
أجل خطوات تمهيدية قد تسفر وقد لا تسفر عن أية نتيجة . .
وأمام الإصرار والبذل والتضحيات المتنوعة ، استطاع الحسين أن
يصل إلى هدفه . . .

قبض برتلمي الثمن ، ودسَّه في جيبه وهو يضع ساقاً على
ساق ، وينفث دخان نرجيلته ، ويشمخ بأنفه . . وعاد في المساء
ليداعب خليلته وإبنته ، وليقضي وقتاً قصيراً مع الزائر الذي لا
يرتاح إليه . . الصديق اللورد «ابراهيم آغا» . . .

والنساء والرجال، واقرأ لنا الفواتح عند أهل البيت.. ولتدع لنا
الله بالسلامة والستر دنيا وآخره..

وتساقطت الدموع من عيني الحاج مصطفى، وعجز عن أن
ينطق بكلمة واحدة...

وخرج من الزنزانة ثم استدار وقال:

- الله معكم.. السلام عليكم ورحمة الله.. واصبروا.. إن
العاقبة للمتقين..

قاسه برتلمي بنظراته، وقال:

- كان درساً قاسياً.. أليس كذلك؟.. من العبث أن يحاول
حمل صغير زحزحة جبل ضخمة بقرنين هزيلين، أليس
كذلك؟.. إن فكرة المقاومة فكرة جنونية أمام الجيش
الفرنسي... وقد كان في استطاعتي أن أنفذ فيك حكم
الإعدام، أليس كذلك؟.. ومع هذا فنحن نلجأ إلى الرحمة
كحل في بعض الأحيان، حتى لا نُتهم بالقسوة والجمود...
وتصرفنا معك الآن دليل أكيد على ما أقول، يا زعيم ثوار
بولاق.. أليس كذلك؟.. إنني أغامر بالإفراج عنك، لأن تقارير
رجالي عنك تؤكد خطورتك، ومع ذلك فأنا القادر على البطش
بك في أي وقت أشاء.. فحذار أن تنسى نفسك.. وإلا...
أليس كذلك؟..

سدّد الحاج نظرات متوجسة إلى وجه برتلمي المحتقن، وقال:

- بلى.. أفهم كل ما ترمي إليه.

- إذن فقد أمرت أن تعود إلى أهل بيتك فهم أولى بك، وعسى

وذاث مساء، في السجن الكبير الرهيب، صاح أحد
السجانين:

- مصطفى البشتيلي.. مصطفى البشتيلي..

ووجفت قلوب الرجال في الزنزانة الضيقة، وساد الشحوب
وجوههم وانتصب الحاج مصطفى واقفاً، ماذا هناك؟؟ أهو فصل
جديد من فصول العذاب في المأساة التي لا تنتهي، أم أنه حكم
إعدام أصدره برتلمي بينه وبين نفسه؟؟ ربما ينادونه لكي ينظف
مكاتب الضباط، وليسخروا من رجل له ماضيه وشهرته، وهي
تسلية لذينة على الرغم من وحشيتها... وتمتم أحد الرجال:
- خيراً.. اللهم اجعله خيراً.. لا تقلق يا حاج..

فصاح الحاج مصطفى:

- أنا هنا.. زنزانة رقم عشرين..

ودقت أحذية غليظة ثقيلة على أرض الممشى الضيق، وكان
لوقعها صدى مزعج في النفوس... وعندما فُتح الباب، قال
السجان بابتسامة قذرة:

- يبدو أن أمك قد دعت لك في «ليلة قدر».. مبروك يا
مصطفى..

أصبح الحلم حقيقة.. الحاج لا يصدّق أذنيه ولا عينيه..
كثيراً ما خدعوه وكذبوا عليه، وخيَّبوا آماله.. لكن ألا يمكن أن
يصدقوا ولو مرة واحدة؟!!

وهتف أحد المسجونين بصوتٍ ضعيف:

- إذا وصلت سالماً إلى بيتك يا حاج، فبلغ السلام للعيال

أن تتحول بولاق المشاكسة إلى حيّ هادئ وادع، يعرف معنى النظام، ويدرك قيمة الطاعة لأولي الأمر.. والآن تستطيع الانصراف..

والتفت إلى رجاله قائلاً:

- إفتحوا الباب، ودعوه ليمضي في الطريق حرّاً وحده...



آه.. عدت إليك يا ليل القاهرة، يا ذا الأسرار الغريبة.. يا ذا الرموز والأشباح والذكريات والمواويل الحزينة.. عدت إلى الشوارع الخالدة من مئات السنين التي لا تهجرها الخطوات العنيدة والسير المستمر إلى الأبد.. إلى المساجد السامقة بمآذنها وقبابها.. إلى القبة الزرقاء الصافية.. إلى الرجال الذين تجمدت الدموع في مآقيهم، وامتلات قلوبهم بالعزم الحديدي.. إلى الأطفال يا قاهرة المعز.. وللأطفال في قلبي منزلة فريدة تزخر بالحب والحنان والبراءة والحيوية والسعادة البالغة...

آه.. عدت إليك يا ليل القاهرة.. يا قلبها الخافق.. هذا هو عهد الله.. أن أظل أنسج من خيوط الليل المدلهمّ الدرع الواقى لمجدك يا بلدي.. وأظل أدق أعتاب «المقطم» حتى ينبثق فجر المنى.. ويبدّد الشقاء والعناء...

اشتعلت النار في قلب «مالوس» وشعر أن قبضة حديدية تكاد تعتصر عنقه، وتحسس عنقه فلم يجد أثراً لتلك القبضة، ماذا جرى له؟؟ إنه يكاد يجنّ، ولم لا يجنّ وهو الجندي الفرنسي المنتصر الذي يقف عاجزاً أمام قوة مملوك هارب، لا حول له.. لو كانت القوة سلاحاً وكرّاً وفرّاً لاستطاع أن يحسم الأمر، لكن مالوس يتجرع هزيمة من نوع غريب.. يواجه قوة خفية لا يستطيع الإمساك بها وتدميرها.

أجل.. إن «ابراهيم آغا» يعيش الآن في بيت «برتلمي»، ينعم بالمتعة والسعادة في حضرة «هيلدا» الجميلة، تلك التي تجاهلته منذ أن بزغ نجم ابراهيم.. لقد بذل مالوس جهوداً جبارة في إقناع برتلمي بالقضاء على ابراهيم، لكن برتلمي لم يستطع أن يفعل شيئاً إزاء إصرار هيلدا وتهديدها بقتل نفسها، وحاول مالوس أن يجتذب إليه قلب هيلدا بطرق شتى، لكنها انصرفت عنه، وولّت وجهها وقلبها شطر فتاها الأول، فلم يبق أمام مالوس إلا أن يتجه إلى ابراهيم، فلم لا يوجه القذيفة الأخيرة إلى ذلك المملوك المطارد؟.. وستكون قذيفة من نوع مدمر خبيث.. إن هيلدا تبدو أمام ابراهيم في صورة الملاك الطاهر والمحِب الولهان، وهي - بالتأكيد - لم تفكر في سرد قصتها الدامية مع ديبوي على أسماع ابراهيم، لا شك أنها تكتُم سرّها في قلبها، حاول جاهدة أن تخفي أساها عن فتاها، ولعلها تعيش معذبة

تنتظر اللحظة المناسبة التي تستطيع فيها أن تدلي باعترافها مبللاً بدموعها، لكن متى تأتي تلك اللحظة؟؟ إن مالوس وحده هو القادر على أن يقربها، ويكشف الستر عن كل ما حدث..

ولم يضيع مالوس وقته هباءً، فقد حاول التقرب والتبسط مع ابراهيم في الأوقات القليلة التي يجتمع فيها شمل برتلمي وابراهيم ومالوس، وحاول مالوس - في نفس الوقت - أن يبدو وكأن أمر هيلدا وعلاقته بها لم تعد تؤثر على مشاعر الصداقة بينهم جميعاً، لكنها كانت معركة أقر الجميع فيها - بروح رياضية صرفة - بانتصار ابراهيم، هذا ما بدا واضحاً للعيان..

غير أن الثعلب الجريح لم يكن يستطيع النوم في هدوء، وكيف ينام مالوس الشاب الذي تركت هيلدا في نفسه أعماق الأثر؟؟.. إن في إمكانه أن يطيح برأس ابراهيم، أو يشي به لأولي الأمر من الفرنسيين، لكنه لا يجرؤ على فعل ذلك، إن معناه ضياع كل أمل في الفوز بهيلدا، ولهذا كان عليه أن يعتصم بالدهاء والخبث، ويلجأ إلى الدس والخديعة، لعله يضرب عصفورين بحجر واحد: أن يتخلص من ابراهيم، ويحظى بهيلدا في الوقت نفسه.. ما أبشع ما يقاسي مالوس.. الحقد يشتعل في قلبه، لكنه يخفي لهبه بصلوع تحترق وتتألم، والغیظ يدفعه إلى الحماقة دون هوادة، لكنه يكظمه، ويكز على أسنانه في صبر نافذ، ويتنهد في حسرة، وهيلدا تبدو أمام عينيه كالرحيق الحلو الشهى، وهو ظامىء جائع لا يستطيع لمسها، ثم يداري عجزه الفاضح، وغيرته المتقدمة، ولم لا يعتصم بالصبر والهدوء أمام

عجز السيف عن حسمه؟؟..

وذات مساء، تأبط ذراع ابراهيم آغا، وطلب منه أن يتجولا قليلاً في بعض شوارع القاهرة الآمنة تحت جناح الظلام، فلم يمانع ابراهيم، كانا يتخبطان في الحديث عن هنا وهناك، واستغل مالوس الظلام الضافي كي يخفي انفعالات وجهه، ثم تمتم قائلاً:

- أيها الصديق العزيز، لا أدري كيف أفتحك في الأمر، إنها تجربة شائكة ثقيلة على نفسي.. ومما يزيد الأمر صعوبة أنك تتوهم علاقة عاطفية بيني وبين هيلدا.. حسناً.. أنا لا أحب المداورة.. أقصد ما أريده صراحة، وأنت كذلك.. إنها أخلاق الفرسان في كل الدنيا.. ربما تُصاب بصدمة نفسية قاسية، لكن هذا أهون من الخديعة..

قال ابراهيم وقد تلاحت ضربات قلبه:

- أنا لا أفهم شيئاً.

- بالطبع.. لأن هيلدا تعمّدت إخفاء الحقيقة الشائنة خلف ستار من الدموع والعبارات المعسولة، كيما تحتفظ بحبك.. لأنها فعلاً تحبك.. لا أنكر ذلك مطلقاً.. لكن أتعرف شيئاً عن علاقتها بالجنرال ديوي؟؟..

هتف ابراهيم آغا:

- ديوي؟!!

- أجل.. ديوي.. ذلك الذئب الذي سلبها أعز ما تملكه فتاة.. سلبها شرفها.. أتفهمني؟؟

- مستحيل ..

قالها ابراهيم في انفعال، بينما استطرد مالوس:

- لك أن تستغرب الأمر وتستبعده .. لكن كلامي لا يحتمل الشك .. المسكينة وقعت فريسة ظروف قاسية .. إن أباه المغرور السافل قواد من نوع رخيص .. أنت تعرفه .. والجنرال ديبوي كان ذا مركز خطير، ودهاء من نوع خبيث .. وتحت تأثير الخمر والإغراء واليأس والضياع، سقطت هيلدا .. أجل سقطت هيلدا ..

أمسك ابراهيم بكتف مالوس وصرخ في انفعال ملحوظ:
- أنت تكذب ..

فهقه مالوس، وتردد صدى قهقهاته عبر الظلام الممتد، وقال:
- يخيل إلي أنك لم تهتز لسقوط القاهرة كما تهتز الآن لسقوط هيلدا ..

وسادت فترة صمت، تمت مالوس بعدها قائلاً:

- ثم مات ديبوي قتيلاً بأيدي الثوار في شوارع القاهرة، بعد أن نفّض يده من أمر هيلدا في تبجح وصفاقة .. لقد رفض الزواج منها، عاملها كما تعامل الخادم، دفعني للزواج منها .. تحركت إليها بالأمر العسكري .. وأنت تدرك تماماً المهمة القاسية التي أوكلت إلي .. يا لها من مأساة .. لكن المأساة الأبشع هو أنني تعلقت بها .. لا أدري كيف .. لم أفقد الأمل برغم مصارحتها لي بحبك .. ثم عاشت هيلدا حياتها منذ تلك الفترة وهي مخمورة .. تترنح وتهذي وتدوس كل المقدسات إلا حبها

لك .. لقد عاش في قلبها .. إنني أعترف .. لم أكن أريد أن أقول هذا الكلام كله .. إنه لشيء غريب حقاً! ..

انهمرت الدموع من عيني «ابراهيم آغا»، وأخذ جسده يرتجف من شدة البكاء .. كان وجه هيلدا الجميلة يرتسم في خياله ملطخاً بالأوحال، ومن خلفها تبدو صورة أبيها أشبه ما تكون بصورة شيطان قذر .. ووراء ذلك كله آلاف الوجوه الفرنسية اللعينة وكأنها تقهقه في سخرية وشماتة ..

ثم استدار ابراهيم ناحية مالوس، ورمقه بنظرات نارية، ثم دفعه في عنف وهو يصيح:

- إبعد عني .. أيها السفلة .. أنتم المسؤولون عن هذا الشقاء كله .. عليكم اللعنة ..

ثم انطلق ابراهيم مسرعاً في خضم الظلام الكثيب، حتى غيَّبه ستائره السوداء ..

وبقي مالوس صامتاً فترة، يفكر فيما حدث، وينظر عبر الظلام باحثاً عن الطريق الممتد الغامض الذي سلكه ابراهيم، ثم انفجر ضاحكاً .. كان يضحك في هستيرية، ثم استعاد هدوءه، ولم شعته، ويمم وجهه صوب قصر برتلمي ..

عندما رآته هيلدا قالت:

- لقد عدت بسرعة .. أين ابراهيم؟؟ ترى هل دب بينكما الشقاق؟ ..

قال مالوس وهو يلقي بجسده المضطرب فوق أقرب مقعد:

- لقد ذهب .. وأظنه لن يعود.

ماذا يفعل . . .

هتفت في قلق :

- ماذا؟؟

- تلك هي الحقيقة .

- أنت تمزح .

- صدقيني . . لقد كان صديقاً رائعاً بالفعل .

- مستحيل أن يحدث ذلك يا مالوس . . لقد كان هنا منذ فترة وجيزة ، وكان يتحدث في مرح وثقة ، لم يكن يبدو عليه أنه يعاني قلقاً أو عذاباً يدفعه للرحيل . . ترى هل قدتموه إلى السجن ثانية؟؟ تكلم . .

هز مالوس كتفه في حيرة وقلق :

- أنا لم أستطع تفسير موقفه . . كان تحولاً مفاجئاً . . أكان يخدعنا؟؟

لا أدري . . أم هل أتى من قبل الممالك للقيام بمهمة سرية؟؟ لا أفهم . . المهم أنه ذهب ولن يعود . . هذا ما أكدته لي .

إنقضت عليه هيلدا وقالت وهي تضربه بلكماتها الواهنة :

- ولماذا لم تمنعه من ذلك؟؟ لماذا لم تحضره إلى هنا بالقوة؟؟ إنني أتهمك بالتواطؤ معه . . أنت تنتقم مني أيها الخبيث لأنني احتقرتك ودست عواطفك . . يجب أن تفهم . . لن أكون لك . . مستحيل أن أكون لك . .

ومرت إلى حجرتها ، وتناهى أنينها الحزين إلى سمع مالوس وهو يجلس مرتبكاً وحيداً حزيناً في حجرة الاستقبال ، لا يدري

في حجرة منزوية بالأزهر الشريف . . جلس ابراهيم ينادمه أساه العميق . . لقد كان حقه على برتلمي أكثر من حقه على ديبوي . . إن خطيئته في حق ابنته من نوع شاذٍ غريب . . وهيلدا هي الأخرى . . الذكريات الحلوة . . العهود والمواثيق . . بنت «فرط الرمان» الحلوة الساذجة . . الأحلام الوردية التي يحيا بها في أقاصي الصعيد وعلى سفوح الجبال . . كل هذا ذهب مع الريح العاصفة المحملة بالتراب والأوبئة والخطايا . . تلك الريح التي وفدت من الغرب تتضمن في ثناياها الأسى والعذاب . . لقد كان يفكر في قتل برتلمي من أجل خيائته للأسرة الكبيرة - الوطن - لكنه اليوم خان الأسرة الصغيرة ، ابنته الوحيدة . . هذا المخلوق الشائن «برتلمي» لكأنما خلق من كل نقائص الحياة ورذائلها . . فلم يعيش بعد هذا كله؟؟ أليس الموت أبسط عقوبة توجه إليه؟؟

لكن الحقيقة المرة تصدم . . ابراهيم . .

إن برتلمي يعرفه جيداً . . وبرتلمي حوله مجموعة من الرجال اليقظين ، فكيف يخترق هذا الحصار المضروب؟؟ إن ابراهيم في مأزق ، ويجب أن يفكر بحذر وروية . . وقد ينقض عليه برتلمي في غفلة ويقضي عليه . . إنه خائن ملعون . . أصبح البقاء في القاهرة تهاوناً وتفريطاً . . لا بد أن يرحل ابراهيم مرة أخرى

إلى الصعيد.. هناك معركة.. وهنا معركة.. لكنهما في الحقيقة معركة واحدة.. فلسوف يعود إلى «مراد بك» ورجاله ليحارب الفرنسيين.. وعندما تحين الفرصة فلسوف يأتي ثانية إلى القاهرة، لينتقم من رأس الأفعى.. برتلمي اللعين...

٢١٢

أقبل الحاج مصطفى على حيّ بولاق في شغفٍ بالغ، لقد أصبح للحياة مذاق جديد رائع، والحرمان الشديد جعله يوشك أن يندفع لمعانقة كل من في الشارع، حتى الأشجار والبيوت والحيوانات يجد رغبة عارمة في لثمها واحتضانها.. إنه لا يشعر برغبة في النوم أو تناول الطعام، إنه يريد أن يستمتع بكل لحظة وكل كلمة وكل مشهد أمامه.. روحه جائعة لكل الكائنات.. لكأنما الحرية والحب والحياة شيء واحد.. لوحة رائعة يتلاءم فيها جمال الألوان بحسن التنسيق وعظمة التعبير.. لعنة الله عليك يا برتلمي، أيتها اللوحة الملطخة بالسواد...

قالت زوجته:

- نحمد الله على أن عدت إلينا سالماً.

أجابها بقوله:

- بل عدت وفي قلبي أطنان من الحقد المتقد.

صاحت في احتجاج:

- ماذا جرى لعقلك يا حاج مصطفى؟؟ لقد ضحينا بكل ما نملك حتى تعود إلينا، وكنت أعتقد أن ما قاسيناه في غيبتك، وما

تعرضت له من إيذاء في السجن، سوف يغيران من طريقتك في التفكير والتصرف.

قال الحاج وهو يصرُّ على أسنانه من الغيظ:

- أعرف كل ذلك.. لقد تغيرت فعلاً.. آمنت للمرة المائة أنه لا حياة بدون حرية، ولا ضمان في وجود المحتلين، ولا كرامة بغير الثورة.

هتفت في رعب:

- ماذا دهالك؟!

قال كالحالم وقد شحب وجهه:

- الشياطين على ظهري تصرخ بالشار.. وضحايا الظلام في القلعة لهم نداء من نوع غريب أسمعه فيهم كياني، ويحرق مشاعري.. كنا بالنسبة لبرتلمي غير آدميين بالمرّة، مجرد حيوانات.. لا.. لا.. أقل من الحيوانات.. أنتم هنا تتنفسون وتنامون وتمارسون حياة نظيفة.. إنني أدور بنظراتي في أنحاء بيتي الرحب النظيف.. وأشم رائحة الشواء.. وأفعل ما يحلو لي.. وهناك.. في ذلك الوادي الرهيب.. القلعة.. مجموعة من الأبرياء يحيون أحط حياة.. سلّم على الحبايب يا حاج مصطفى.. لا تنسنا يا حاج مصطفى.. دعواتك يا حاج مصطفى.. هكذا كانوا يودعونني.. كانت العيون الدامعة ترمقني في أسي، المصير المجهول المعذب يرتسم على الجباه الشاحبة التي هدّها الظلام والرعب والتعذيب.. ماذا تقولين يا امرأة؟؟ تريدن أن ألزم بيتي وأتناول طعامي وشرابي.. ثم أنام

مرتاح الضمير.. يا ليت!! صدى الأنين يدقُّ أذني ويتخلل
روحي ودمي..

وحانت منه التفاتة إليها، فوجد الدموع تنهمر على خديها في
صمت، وبدت لعينيه مسكينة تعسة، فقال في رقة:
- ما يبكيك يا زوجتي؟..

أجابته قائلة:

- لشد ما أنا سعيدة بعودتك سالماً.

هز رأسه قائلاً:

- أعرف ذلك... .

فأردفت قائلة:

- وهذا لا يعني أن قلبي قد قُذ من حجر فلا آسى على الذين
يتعذبون.. لكن إلى متى أظل رهينة الخوف والقلق؟.. إن قلبي
لم يعد يحتمل...

و.. نقرات خفيفة على الباب.. وقَدِمَ الحسين، وأخبر أباه
أن الجنجيهي والشيخ ابراهيم سلامه في الانتظار.. كان لقاءً
عامراً بالمشاعر الفياضة.. وقبل أن يجلس هتف الجنجيهي:
- ألم تسمع آخر الأنباء؟

تطلعت إليه الوجوه المتلهفة، فاستطرد:

- سوف تضحكون كثيراً حتى تستلقوا على أقفيتكم من
الضحك.. إنها مفاجأة المفاجآت...

صاحوا بصوت واحد:

- ماذا؟؟

- لقد عاد المنحوس «أحمد المدبولي».

وصاحوا ثانية:

- كيف؟؟

- لقد استطاع نابليون أن يقبض على الهاربين المصريين في
يافا.. وعندما فشل في احتلال عكا، عاد ومعه بعض الأسرى،
وكذلك بعض السادة الهاربين، وفيهم السيد عمر مكرم، وحضرة
المحترم أحمد أفندي المدبولي تاجر البارود.. لقد حضر إلى
بيته القديم المنهوب وهو يرتجف، على الرغم من حسن معاملة
نابليون لهم، وإعطائهم وعداً قاطعاً بأنهم لن يُمسوا بأذى.

قال البشتيلي:

- ولم لم يأت؟..

جلس الشيخ علي الجنجيهي، ثم قال وهو يهز رأسه هزات
متتدة وقال:

- إنه في بيته لا يريم.. يقولون إنهم قد حققوا معه هل اتصل
بأحد من ضباط السلطان أم لا؟ وهل لديه أية معلومات عن
تحركات تركيا في الشام؟.. وأخذوا عليه تعهداً مكتوباً بألا
يمارس أي نشاط ضد الفرنسيين، وأن يحاول تهدئة الجماهير،
والإبلاغ عن أية حركات يشتب منها رائحة الثورة.

هز البشتيلي رأسه قائلاً:

- لقد جندوه جاسوساً لهم.

قال الجنجيهي:

- على الرغم من الصداقة التي تربط بيننا وبينه، إلا أنني أعتقد أنه على استعداد لأن يبيع أباه للحفاظ على حياته... إنه يخاف السجن والموت أكثر مما يخاف من نار الجحيم... ورأيت أن نقطع صلتنا به.

وعلق الشيخ ابراهيم سلامه قائلاً:

- إنها فتن كقطع الليل المظلم، نجانا الله منها.

والتقط الجنجيهي خيط الحديث وقال:

- هناك شائعات تقول أن ساري عسكر نابليون قد ترك الديار المصرية، وترك نائبه كليبر خليفة عنه، نظراً لاضطراب الأمور في فرنسا... والعائدون من الشام يؤكدون أن الإنجليز والأتراك يدبرون أمورهم لغزو الديار المصرية وطرد الفرنسيين منها... وكان اتفاق الجميع يكاد يكون تاماً على أن الأيام المقبلة تحمل في ثناياها أحداثاً جساماً، وأن البلد مقدم على أخطار بالغة لا يعلم إلا الله مداها... ثم طلبوا من البشتيلي أن يحكي لهم ما رآه في السجن، فأظهر تردداً وعزوفاً عن ذلك، فأراد الجنجيهي أن يستثيره كي يدفعه إلى الكلام دفعا، فاتهمه بالخوف من العيون التي يبثها برتلمي، وتمتم:

- «ليس فينا جاسوس على أية حال».

قال البشتيلي وهو يشرد بنظراته:

- السجن أيها الأصدقاء عالم معزول... دنيا من الانحراف والخطايا والانحطاط... برتلمي أستاذ ضليع من أساتذة السفالة في العالم... الأحداث الجارية تخلق مثل هذه الكائنات

الشائنة... وتخلق في نفس الوقت رجالاً يرفعون جباههم في إباء تصدياً لخطايا الطغاة... وفي السجن أيها الأصدقاء، إما أن تهتز القيم وتضطرب المبادئ أمام أعين المكافحين، أو تزيدهم صلابة وإصراراً... إنها - باختصار - تجربة مريرة عنيفة... أنين... دموع... دماء... رؤى مزعجة... يأس مطبق... ماذا أقول؟؟ دعوا هذا الأمر فإن قلبي يبكي... الأيدي العجفاء المعروقة كانت تلوح لي وأنا خارج عبر البوابة السوداء... الكلمات المتعثرة الحزينة تصدم قلبي... ما أبشع ظلم الإنسان لأخيه الإنسان!...

وسادت فترة صمت... وتربّع الجنجيهي في مكانه، ووضع يده اليمنى على يمين وجهه، ثم تنحنح وسعل واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وسمى باسم الله الرحمن الرحيم، وأخذ يترنم:

- «لقد كان سقط في يوسف وإخوته آيات للسائلين...»
والجميع صامتون يتمايلون في تأثير وهم يستمعون إلى صوته الرخيم يرتل آيات سورة يوسف.

كان برتلمي يثق بقوة نابليون أكثر من ثقته بأي شيء في الوجود، إنه نوع آخر من العبادة، لأنه ليس مجرد تعشق للبطولة والأبطال، وقد كاد يسقط انهياراً عندما علم برحيله إلى فرنسا... وعاد برتلمي إلى البيت صاحباً حانقاً، وهو يهتف:

- إلى الجحيم .. إنني أسأل عن إبراهيم ..
أجابها:

- إن ما نقاسيه من حيرةٍ بسبب رحيل نابليون أهم بكثير من
فتى شريد كإبراهيم .. لقد تركك وهرب .. هذا كل ما في
الأمر .. إتخذك النذل وسيلة لتحقيق أطماعه، محاولاً الكشف
عن بعض أسراري .. كان غباءً مني أن أفتح له بيتي .. لكن
ماذا كنت فاعلاً أمام إلحاحك؟ .. لو فكرت يا ابنتي بروية لما خدعنا
هذا الصعلوك المتمرد .. وأخيراً تأتينا لتسألي عنه، وكان الأحرى
بك أن تبصقي على ذكراه وأدعاءاته في الحب والإخلاص .
قالت في انفعال:

- معذرة يا أبي ، لم أعد أثق في كلامكم .
تدخل مالوس قائلاً:

- يجب أن تهدئي يا هيلدا .. أنتِ توجهين إلينا اتهاماً
خطيراً .. ثم لا تنسي أنكِ تخاطبين أباك .. يجب أن تضعي هذا
فوق كل اعتبار .
قالت هيلدا:

- وما ذنبي؟؟ أنتم تدفعونني إلى التشكك في كل شيء .. ألم
تخبرني يا أبي أنه قد مات، وأقسمت على ذلك؟ .. ثم ها هو قد
عاد .. أنتم تحكمون على الأمور حسب هواكم، من وجهة
نظركم البحتة .. تريدون أن تمضي الحياة حسبما ترغبون،
متجاهلين إرادة الآخرين وأمانهم .. فمعذرة إن كنت أشعر بهوةٍ
ساحقة تفصل بيني وبينكم، حتى لكأنني غريبة هنا عن كل شيء .

- إن هذه الثقة المفرطة بالنفس التي يعتصم بها الفرنسيون قد
تجاوزت حدودها، وقد تجلب عليهم الوبال .. كيف يسافر
نابليون بعد هزيمته أمام أسوار عكا، وبعد أن ضحى بالكثير من
الجنود؟؟ إنه يسافر دون أن يساوره أدنى شك في احتمالات
المستقبل .. وهذا خطأ .. ليس بين القواد من يستطيع أن يحل
محلّه، أو يفكر مثل تفكيره الممتاز .. هذا الذي يهزأ بالهزائم،
ويُحيلها إلى نصر، والذي لا يستطيع أقوى النكبات أن تنال من
أحلامه وطموحه .. وهيهات أن يكون كليبر مثل نابليون! ..

قال مالوس الذي يجلس قبالة:

- إن لكليبر ماضياً عظيماً، لقد حقق انتصارات كبرى في
أوربا .. ثم إن نابليون قد يعود ثانية، ولسوف يكون أكثر تقديراً
لظروفنا في مصر، ولن يتوانى عن إرسال النجديات والمؤن
والذخيرة اللازمة .

هز برتلمي رأسه وقال:

- إن رحيله خسارة كبرى مهما كان الأمر .. فالأعداء يحيطون
بنا من كل جانب .. الأتراك .. الإنجليز .. الثوار في مصر ..
المتسللون من أنحاء العالم العربي والإسلامي ..

وخرجت هيلدا محتقنة العينين وقالت بصوت مرتعش:

- أين ذهب إبراهيم؟

قال أبوها:

- لقد رحل نابليون ..

صاحت:

احتقن وجه برتلمي وصرخ:

- لا . لا . لا . هذا كثير .

قال الكابتن مالوس:

- يجب أن تعتذري لأبيك .

زمت شفيتها وقالت:

- إنني أستطيع أن أقول كلاماً كثيراً من طرف اللسان، لكن ما

قيمته؟ إنه خداع رخيص، وأنا أكره الخداع، ومن ثم فلا يمكن أن أغش أبي، إنني ببساطة أعبر عن حقيقة مشاعري .

قال مالوس:

- حتى ولو سببت إيذاءً وجرحاً لمشاعر الآخرين؟

- عزائي أنني أقول الحقيقة، فإذا كان قولها يؤدي فما ذنبي؟

إن الذنب ليس ذنبي .

وأعطتهم ظهرها وانصرفت، وعادت إلى حجرتها حزينة

كثيبة، تستشعر فراغاً رهيباً، يمتد أمام خيالها المكدود كليل

طويل صامت محير، تحوطه الألفاظ والخيالات المرعبة . . لشدة

ما أصبحت الحياة ثقيلة سمجة، لم تعد تبجد العزاء لدى أبيها

الغريب الطباع والأطوار، وليس في إمكانها أن تأنس لمالوس،

ثم إنها تتجرع صحبة المرأة التي جلبها أبوها من الرقيق الأبيض

على الرغم منها، فأين الصدر الحنون الذي تأوي إليه، وقد رحل

ابراهيم في ظروف غامضة مريبة؟ . . إن قلبها يحدثها أن هناك

مؤامرة دنيئة دبرت بليل، وأن وراء المؤامرة خسة أبيها ونذالة

مالوس . . وهيلدا لن تتقبل الطعنة، لسوف تحاول مرة واحدة أن

تستغل دهاءها . . إنها تريد الوصول إلى الحقيقة التي تكمن وراء

اختفاء ابراهيم المفاجيء، لأنها لا تؤمن بما زعموه عن دوره

المشبو، إن ابراهيم ليس جاسوساً، ولنفترض أنه كذلك،

ليكن . . فهو يؤدي واجباً وطنياً . . ومع ذلك فمستحيل أن يختفي

هكذا فجأة . . لقد كانت البسمة فوق شفيتها، وكانت السعادة بادية

على وجهه يوم أن خرج . . أي تحول خطير أصابه؟ . .

تسلل الكابتن مالوس إلى مخدعها، فقالت في شيء يشبه

الغضب عندما رآته:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

قال في تدلل:

- إنه حبي يا هيلدا . . تعرفين أنني خادمك المطيع، وأني

على استعداد لأن أفديك بروحي يا أحب إنسانة في الوجود .

قالت وهي تغتصب ابتسامة شاحبة:

- ألهذه الدرجة؟!

أجابها قائلاً:

- إنني أعبدك يا حبيبتي . . أحبك برغم ما فيك من عناد

وكبرياء وتجاهل بالنسبة لعواطفني الفياضة . . كنت أقبل الإساءة

بصدر رحب، والحب يغفر الكثير يا هيلدا . . ما نظرت إليك قط

على أنك مجرد متعة زمنية . . أنت حياة كاملة بالنسبة لي، لقد

اتسعت روحك حتى شملت الوجود من حولي فلا أكاد أتنفس إلا

عبرك، ولا أرى أمام عيني وفي خيالي إلا صورتك الجميلة . . .

تنهدت قائلة:

- تتحدث وكأنك تقرأ في كتاب أحد الروائيين في فرنسا ، يا
مراهقي الكبير . . . هل نسيت أنني امرأة لها ماضٍ؟؟

قال مالوس :

- إن الحاضر الجميل الذي أعيشه إلى جوارك ، قد صهر في
بوتقته الماضي والمستقبل ، حتى أصبح حاضراً بلا حدود .

- إنها كلمات شاعر .

- هل حدث في سابق علاقتي بك ما يشكك في مشاعري؟

قالت هيلدا :

- إنني أستطيع أن أسمع هذا الكلام من أي معجب بجمالي .

هتف في إصرار :

- كلا . . .

ضحكت في خلعة وقالت :

- وما دليلك؟

تردد قليلاً ثم قال :

- لا أستطيع .

- لماذا؟

- قد تغضبين .

- أعدك بألا أغضب . . . إنني أميل إليك يا مالوس ، فلا يصحُّ

أن تخفي عني شيئاً . . . إن كلماتك الغنية بالعواطف الملتهبة
تجعلني أعيد النظر في أمرك .

صمت برهة ، وعيناها ترمقانه في لهفة ، ثم قال :

- ليس ما حدث نذالة مني على أية حال ، لقد كان الدافع إليه

نبيلاً ، وهو أنني أريدك لنفسك . . ومع ذلك فقد كشفت لي
التجربة عن حماقة «ابراهيم آغا» وكذب إدعاءاته نحوك .

- ماذا تعني؟

- أعني . . أعني . .

- قل لا تخف .

قال مالوس وقد احتقن وجهه وارتعشت أطرافه :

- حسناً . . اعذريني . . إن الغيرة قاتلة . . لقد أخبرته بما

حدث بينك وبين الجنرال ديوي . . فثار ثورة عارمة ، وسبّ

ولعن ، ثم ولّى هارباً وقال أنه لن يعود ثانية .

هتفت في انهيار :

- أنت؟!

- أجل يا حبيبتي . . لم يستطع المأفون الأحق أن يغفر لك مثلما

فعلت أنا الآن . . وهذا هو دليلي على إخلاص وصدق كلماتي .

صرخت وهي تصرُّ على أسنانها في غيظ قاتل :

- أخرج من هنا أيها الوغد السافل .

- ماذا؟!

- قلت لك . . أخرج . . أخرج وإلا حطمت جمجمتك

بحذائي! . .

وانسحب مالوس ، والعرق الغزير يتساقط على وجهه ويبلل

قميصه ، كان يمشي كالتائه المذهول . . وقابله برتلمي قائلاً :

- ماذا جرى؟

أعاد كليبر النظر فيما حوله، محاولاً تقييم الموقف تقييماً دقيقاً، ماذا رأى؟ الترك والإنجليز يتحفزون، والشعب المصري لا يكتفئ له ولجنوده سوى الكراهية، وبالتأكيد سوف يتعرض الفرنسيون لمعركة عاصفة قد تقضي على زهرة شبابهم ومشاهير قوادهم... إن القائد الذي لا يفكر في أبعاد المعركة واحتمالاتها قائد فاشل، إذ ليست المعركة كراً وفتحاً فحسب، وإنما تحكمها الظروف والأهداف والتناج، وما جدوى أن تخوض معركة فاشلة؟؟

واجتمع كليبر مع نخبة من ضباطه، وكان بينهم «برتلمي الرومي»، قال كليبر:

- أيها السادة الأصدقاء... إن مصر - بالرغم من السكون الظاهر الذي شملها - لا تعتبر إلا مذعنة لحكم القوة، والشعب المصري موزع الفكر، قلق على مصيره، ولا يرى فينا - مهما فعلنا - إلا أعداء ملكه وماله، وقلبه متجه دائماً إلى الأمل في حدوث الانقلاب الذي يتوقعه.

تمتم برتلمي لنفسه قائلاً، دون أن يسمعه أحد:

- «آه... لقد صحَّ ما توقعته... إنني أشمُّ في كلامك أيها

الخائف رائحة الجبن»...

قال رئيس أركان حرب الحملة «الجنرال داماس»:

فروى مالوس القصة بتفاصيلها لبرتلمي، وكان مفاجأة له أن يحتقن وجه برتلمي، ويبدو الغضب على وجهه، ويصيح:

- ماذا؟؟ هل جنت؟؟ أنسيت أنها ابنتي؟؟ فكيف تلتطخ سمعتها في الأوحال؟؟ ماذا يقول الناس عني وعنهما؟؟... إنني أكره ابراهيم أشد الكره، لكنني ما رغبت قط أن يعرف الحقيقة... إنها مسألة كرامة أيها الطفل الغرير... والآن تستطيع أن تغادر بيتي دون إبطاء.

وقف مالوس وقد ثارت الدماء في رأسه وقال:

- أنت توجه إهانة بالغة لضابط من ضباط الجيش الفرنسي، ثم لا تنس أنك تستر على مملوك هارب. فهقه برتلمي قائلاً:

- هذا لا يخفى عني يا عزيزي... إنني أتصرف حسبما تقتضيه مصلحة الجيش الفرنسي، وقد كان في نيتي أن أستغل «ابراهيم آغا» في عمل يخدم به فرنسا... لكن حماقتك هي التي جعلته يفلت منا قبل أن نتم خطتنا... لقد كنا نريد أن تسوى علاقتنا مع المماليك عن طريقه، ونضمهم إلى صفوفنا، لكنك تصرفت في رعونة، ومن ثم فلا بد من محاسبتك بشدة... والقيادة العليا كانت تعلم كل شيء... لسوف أبذل جهدي للبحث عن ابراهيم آغا، لكنني سأطلب من القيادة معاقبتك.

طأطأ الكابتن مالوس رأسه في أسى، ثم انصرف محنقاً...

- ماذا يعني سيدي القائد؟

- أعني أنني أفكر في البشر، في هؤلاء الجنود، قبل أن أفكر في أي مجد شخصي .

قال برتلمي :

- كلنا فداء فرنسا .

قال كليبر :

- نحن فرنسا . . إن الوطن ليس مجرد رقعة أرض . . إنه مجموعة البشر القاطنين فيه، بآمالهم وأفكارهم ونضالهم . . وللتضحيات أهدافها وغاياتها النبيلة . . لم أكن لأقول هذا الكلام لو كان العدوان يقع على الوطن الأم . . إننا أتينا هنا لنفتح أسواقاً جديدة، ولنحقق مجداً قومياً . . من أجل من؟ من أجل الفرنسيين، وليس من المعقول أن نضحى بهم من أجل المجد الذي ننشده لهم . . ثم إن حملتنا جاءت إلى هنا مبكرة بعض الشيء . . لقد كنت من أنصار غزو مصر في الماضي، غير أنه تبين لي أن الوقت لم يحن بعد لذلك .

وصمت برهة ثم قال :

- إنني أخسر الكثير من سمعتي الحربية، حينما أعلن أمامكم الآن أنني على استعداد للتفاوض مع الأتراك والإنجليز، على أساس الجلاء بقواتنا ومعدّاتنا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .

قال برتلمي :

- إن هذا الموقف قد يُغضب حكومة الدير كتوار في فرنسا .

قال كليبر :

- لا تنسَ يا برتلمي أن نابليون كان يفكر في شيء من هذا القبيل ، ولعلّي لا أذيع سرّاً حينما أقرّر الآن أنه قد أرسل رسالة بهذا المعنى ، وهو في مصر ، إلى السلطان في تركيا وإلى حكومة الدير كتوار .

واحتدم الجدل بين رجال القيادة، فالضباط المتحمسون يرفضون المفاوضات ويصرّون على الاستمرار في احتلال مصر، ويرددون وعد نابليون بإرسال المدد والمؤن والذخائر، والعقلاء يميلون لرأي كليبر ويؤيدونه، وطائفة ثالثة جلست ترقب المناقشات في حيرة لا تعرف أية وجهة تتخذها . . وهتف برتلمي وهو يرتجف من الغيظ :

- لقد ضاع كل شيء إذن . . إننا بذلك نتنكر لشهادتنا الأبطال وللدماء الغالية التي سالت على ثرى وادي النيل، في المدن والقرى والوديان والجبال، ونعطي فرصة عظيمة للشامتين والحاquدين .

هزّ كليبر رأسه، وهو يسدّد نظرات ثابتة نحو برتلمي، وقال :

- إنني أعني ما أقول يا برتلمي، وكل الاعتبارات واضحة في ذهني تمام الوضوح . . من الخير لنا وفرنسا أن نجلو عن وادي النيل، انتظاراً لفرصة أخرى . . .

قال برتلمي في إصرار :

- معذرة سيدي الجنرال، إن الجلاء كارثة كبرى .

وبانت علامات الإهتمام والإصرار على وجه كليبر وهو يقول :

- برتلمي . . أنت لا تفكر في مجد فرنسا بقدر ما تفكر في نفسك .

كاد برتلمي يصعق من هذه اللهجة الحازمة، بل إن الحقيقة المرة التي صدمته هي التي أذهلته، لا يفكر إلا في نفسه!! يا للكارثة!! أهذا هو رأيهم فيه؟ . . إنه أيضاً رأي ابنته هيلدا، تلك الشيطانة الصغيرة.

ثم التفت إلى كليبر وقال:

- سيدي القائد، إنني أضحي عن عقيدة بكم، وأبذل كل ما في وسعي عن طيب خاطر قبل الحملة وأثناءها . . وسأظل على عهدي مهما كانت الأحوال.

وأدرك كليبر قسوة العبارة التي وجهها إلى برتلمي، فعاد يقول:

- إن فرنسا تدرك خدماتك العظيمة، وستضع على صدرك أرفع نياشينها، لكنني أفكر في الجلاء لاعتبارات عليا . . ألم أقل لك إن الجلاء على يدي سوف يؤدي سمعتي الحربية أشد الإيذاء؟ . . أنت كذلك . . هؤلاء الضباط والجنود سيتعرضون لنفس الأذى . . لكن الاعتبارات الإنسانية والسياسية تملي علينا تصرفات لا نستطيع الهروب منها يا برتلمي .



مضى برتلمي في شوارع القاهرة الواسعة يترنح، ضباب كثيف يخيم على رأسه، إنه يرمق السائرين في الطرقات بنظرات نارية،

هل سيأتي اليوم الذي يعجز فيه عن أن يصدر أوامره فتحنني الرؤوس، وتضرب الأعناق، وتلهب السياط الظهور، ويساق الناس أفواجا إلى السجون الدامية؟؟ لن يقف الأذلاء ببتي يذرفون الدموع ويطلبون الصفح والغفران . . والكارثة الكبرى، هل أستطيع أن أبقى هنا بعد رحيل الفرنسيين؟؟ إن كل شيء ينهار . . نبوءات الملعونة الصغيرة هيلدا تتحقق . . فقراء القاهرة الذين يهرولون حفاة أشباه عراة ينتصرون . . يا للمهزلة!! . . شيوخ الأزهر سوف يسيرون في مواكب النصر رافعين الأعلام، والطبول تصم الأذان . . نداءات الغوغاء «الله أكبر . . الله أكبر» يتردد صداها في الآفاق . . ماذا جرى؟ أيمن أن يحدث ذلك؟ إن الموت لأهون من الرضى بهذا الهوان، لسوف أسطر رسالة إلى نابليون وإلى حكومة الديركتوار أشرح فيها الأمر على حقيقته . . أم أندس في صفوف الضباط الفرنسيين المتحمسين وأحرضهم على عصيان كليبر والانضمام لمنافسيه، وركله خارج القيادة؟؟ أم أنضم إلى ثوار القاهرة وأتراكها ومماليكها قبل فوات الأوان؟؟ لا . . لا . . هذه احتمالات سخيفة . . إنني أشعر بالاختناق . . إن السياط الحارقة لأهون من هذا الضيق القاتل الذي أعانيه . . ماذا أفعل يا ربي؟ أشعر أن الطريق أمامي مغلق، وفي نهايته تنتصب أشباح الخوف واليأس والعذاب والضياح . . إنه عقاب لا مثيل له في الوجود . . .

ودخل بيته متوتراً شاحب الوجه، وهتف والدموع في عينيه:
- إليّ يا هيلدا الحبيبة . . إن أباك يوشك أن يقضي نحبه .

أت هيلدا مهرولة ، وهي تقول في لهفة :

- ما بك يا أبي ؟

- أشعر بألمٍ خائق في صدري .

ووضع يده على صدره اللاهث وقال :

- ليتني أموت كي أستريح مما أعانيه .

قالت هيلدا :

- أنا لا أفهم شيئاً . . إذا كنت مريضاً فلماذا لا تستدعي كبير

أطباء الحملة المسبو «ديجنت» ؟

قال في ثورة :

- لعنة الله عليهم جميعاً . . هذا الثور الجبان المدعو كبير

ينوي الفرار .

- ماذا ؟ !

- ألم أقل لك عندما رحل نابليون أن قلبي يحدثني بأن

المستقبل مشحون بالكوارث ؟ . . كبير يريد التفاوض مع الأتراك

على أساس الجلاء عن مصر . . تصوّري ! . .

تدفقت فرحة مباغته في قلبها ، فأنعشت روحها ، فحاولت أن

تداري انفعالاتها وقالت :

- معنى ذلك أن يعود الأمر للأتراك والمماليك .

قال برتلمي :

- أجل . . ويعود ابراهيم آغا . . علينا - أنا وأنت - أن نتحرر أو

نرحل مع الراحلين إلى فرنسا . . كي نعيش كلاجئين نمضغ

الأحزان والوهم والذكريات . . مستحيل أن يحدث ذلك يا

هيلدا .

لم تستطع هيلدا أن تعلق بشيء على الفور ، لكنها قالت بعد

فترة صمت :

- لعل ظروفاً قهرية تدفع كبير للتفكير في الجلاء .

صاح في انفعال :

- أنتِ تتحدثين مثله تماماً ، أية ظروف تلك؟؟ إنه يريد

الهروب بجلده لأنه جبان ، ولأنه لا يريد أن يدفع ضريبة المجد ،

ثم إنه خلق آخر غير نابليون العظيم . . إن هذا المأفون سوف يفرُّ

بجلده ، لكنه سوف يلتصق به عار الأبد .

طأطأت رأسها في خشية وتمتمت :

- أنت تتكلم يا أبي كمحارب شجاع ، وهو يتصرف كسياسي

لبق .

قال بحدة :

- إنه جبان ولا شيء غير ذلك . .

وطرق الباب أحد الخدم ، ثم قال بصوتٍ خفيض :

- إن مالوس ينتظر الأمر بالدخول .

صاح برتلمي :

- ما الذي أتى بهذا المجنون التافه؟؟ لقد أمرته ألا يعود إلى

هنا ثانية . .

ثم تنهد في غيظٍ وقال :

- لكن . . دعه يدخل . .

ثم التفت إلى هيلدا قائلاً :

- إذا لم يكن لديك مانع .

قالت هيلدا في حزم :

- إن وجوده كعدمه . . لقد انتهى أمره بالنسبة لي .

دخل مالوس ، يضيفي الشحوب على وجهه غلالة شفاف لا تخفي انفعالاته ، وقال بصوت مضطرب :

- معذرة إن كنت قد أتيت في وقت غير مناسب .

قال برتلمي :

- إجلس أيها المجنون ، ولا داعي لهذا الارتباك . . هل علمت

ما حدث الليلة؟ . .

قال مالوس ، وقد شعر بقليل من الارتياح :

- ماذا؟

- القائد الهمام كليبر ينوي الجلاء .

- الجلاء! . .

- أجل ، لسوف تبدأ المفاوضات مع مندوب الصدر الأعظم . .

وسينتهي كل شيء . . أجل كل شيء . . ما كنت أتصور أن الجنود التي دوّخت أوربا ، وحققت الانتصارات المذهلة ، سوف تنهار هكذا فجأة وتستسلم! . . أنتم تطعنون أصدقاءكم ، وتبعثون السعادة في قلوب أعدائكم .

قال الكابتن مالوس :

- لا أعتقد أنه قرار نهائي ، إن باريس لا بد أن يكون لها رأي ،

ونابليون هو الآخر رأيته فوق كل اعتبار ، والمفاوضات قد تطول وقد تفشل ، وقد تجدّ أمور تفسد كل التخطيطات . . أشياء كثيرة

رأيناها طوال المعارك المتعددة خلال السنوات الماضية .

رمقه برتلمي بعيني ذئب ، بعد أن انصرفت هيلدا ، ثم قال :

- مالوس ، أنت تتكلم بمنتهى العقل والاتزان ، لأول مرة أسمع

الليلة كلاماً يبعث في نفسي شيئاً من الراحة والاطمئنان . . إذا لم

تفسد الأقدار مخططات كليبر ، فعلينا أن نفسدها نحن ، من

أجل سمعة الإمبراطورية ، ومن أجل مجد فرنسا .

وأخذ برتلمي يقهقه ، ثم صاح طالباً الخمر والطعام ، وقد شعر

برغبة شديدة لأن يلتهم عشاءه التهاماً .

٣٥

تمتم الحاج مصطفى البشتيلي شاردأ :

- « لك الملك وحدك يا صاحب الحول والطول » .

والتفت إلى زوجه قائلاً :

- لقد وقع الفرنسيون إتفاقية الجلاء مع الأتراك ، وأخذ

المماليك والأتراك يتدفقون إلى المدن والأقاليم والقاهرة . . من

كان يظن ذلك؟؟ لكن الرواية لم تتم فصلاً يا زوجتي . .

تصوري منذ أن قدم الأتراك وهم يمارسون سلطاتهم القديمة في

تبجج وخطرسة ، وكأنهم لم يتلقوا درساً قاسياً . . إنهم يفرضون

الضرائب ، ويبدلون الوعود ، ويشمخون بأنوفهم التي مرغها

نابليون في الرغام ، سيعيدون المأساة من جديد ، صدّقيني يا

زوجتي . . الناس في الشوارع لا يستشعرون مذاق الفرحة

الحقيقية ، إذ ما معنى أن يرحل طاغية ، ويأتي الطاغية القديم؟؟

المماليك أتباع مراد بك وإبراهيم بك قد أقبلوا من الصعيد ومن ناحية الشرق، ليعودوا إلى أماكنهم ويمارسوا سلطانهم القديم . . والشعب، الشعب صاحب التضحيات الذي قاسى وتعذب وبذل الكثير، يرقب الأحداث في قلقٍ وأسى . . لسوف يرحل الفرنسيون دون أن أشفي غليلي منهم . . . قاطعته زوجه قائلة :

- عجيب أمرك يا حاج مصطفى، ألا تحمد الله على رحيلهم؟! أم تراك تريد أن تشعل نيران الحرب حتى تتأثر لنفسك وللضحايا، إن هزيمتهم هي العقاب الإلهي . . وكفى . وهمست زينب في حزن :

- ستعود المياه إلى مجاريها، لكن «مصطفى الفرماوي» لن يعود . . لسوف تدق طبول الحرية والنصر وهو راقد في قبره لا يشعر بشيء .

رُبّت على كتفها في حنان وقال :

- لا تحزني يا ابنتي . . إنه أدى دوره كأروع ما يكون الأداء، ولا شك أن ما سينعم به الناس من الحرية والكرامة كان من صنع يديه ويدي أمثاله، «والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً» .

وانبرى الحسين قائلاً :

- يجب أن تستمر المعركة ضد الأتراك والمماليك، حتى تخلص بلادنا لأصحابها الحقيقيين، ولقد سمعت السيد عمر مكرم يتحدث بشيء من هذا القبيل، ومن ثم فلا سلام ولا اطمئنان قبل سنوات من الصراع والتضحيات .

هزّ الحاج مصطفى رأسه قائلاً :

- هذا عين الصواب .

لكن صوت علي الجنجيهي يتردد في أروقة المنزل قائلاً :

- يا ساتر . . أين أنت يا حاج مصطفى؟ . .

وتقدرون فتضحك الأقدار وعند جهينة الخبر اليقين

هرول إليه الحاج مصطفى قائلاً :

- ماذا وراءك من أخبار؟

قال الجنجيهي وهو يشدُّ على يد الحاج مصطفى مصافحاً :

- «إنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في

الصدور» صدق الله العظيم . . إن ما حصلت عليه من أخبار

سوف يهزّك هزّاً .

- ماذا؟؟

- خذ عندك . . نقض الأتراك المعاهدة واشتعلت الحرب من

جديد بين الفرنسيين والأتراك في الشرق . . والإنجليز يقبضون

على ضباط فرنسا المسافرين عبر البحر إلى فرنسا . . أنت تعلم

أن الإنجليز رفضوا التوقيع على المعاهدة . . هم يريدون استمرار

الحرب لشغل فرنسا عن معارك أوروبا . . هذا الخبث الإنجليزي

سوف يشعل الحريق مرة ثانية .

هزّ الحاج مصطفى رأسه قائلاً :

- إن أخبارك خطيرة للغاية .

- هي الحقيقة التي لا مفرّ منها . . لقد صدرت الأوامر الفرنسية

الآن بالالتحام بقيادة كليبر . . الشائعات تؤكد انهزام الفرنسيين

في المناوشات الأولى .

شرد الحاج مصطفى بضع لحظات وقال :

- إن صحَّ ما تقول من نقض الاتفاقية، وبدء الحرب، فإني أعتقد أن جولة حاسمة دامية ستدور رحاها على أرض الوطن . . . فلتنطلق الثورة من جديد، هذا أنسب وقت . . . فلتنطلق الثورة . . .

وخرج الحاج مصطفى كالمجنون يصيح في الناس، وينادي في الأسواق، ويحرض على الأنقضااض على الفرنسيين، فتجمهر أهالي بولاق بصورة لا مثيل لها، ويصيح الحاج مصطفى :

- «أقيموا المتاريس . .

جهزوا المدافع . .

أقيموا مصانع البارود» . . .

وجاءت الأنباء تترى، إن الشيخ عمر مكرم والسادات والسيد أحمد المحروقي شيخ التجار والشيخ الجوهري، قد صاحوا صيحة الثورة في الأزهر وشوارع القاهرة، حتى لكأنما كان جميع الناس على موعد . . المحروقي يبذل ماله من أجل دفع ثمن المأكل والمشرب للثوار . . الأثرياء يقدمون المساعدات عن طيب خاطر . . مصنع للسلاح ينشأ في يوم وليلة . . الأتراك والمماليك يرون بأعينهم خوارق مذهلة لم تكن تخطر على بالهم، فينضمون للثوار . . إنهم يبحثون عن الكفة الراجحة كي يميلوا نحوها . . ويتجه «البشتيلي» على رأس الثوار صوب ساحل النيل، حيث

ترابط مجموعة كبيرة من القوات الفرنسية، وينقضون عليهم . . إن مدافع الفرنسيين وقنابلهم لدى الساحل لا تغني فتيلاً . . إن طوفان البشر الثائرين يغرقهم في جحيمه حتى يسقطوا صرعى عن آخرهم، ويحتل الثوار الموقع . . ويتنادى الرجال في أرجاء بولاق العامرة «الله أكبر» . . فيتردد صدى الهتاف القوي في الآفاق .

ويتسلل «أحمد المدبولي» صديق البشتيلي القديم، وتاجر البارود، وعندما يلتقي بالحاج مصطفى يمسك بيده ويهمس :
- أين عقلك يا حاج مصطفى؟ هل علمت ماذا جرى؟ لقد سحق الفرنسيون قوات الأتراك في «عين شمس» . . إن الفرنسيين لم يهزموا بعد، فإذا ما عادوا منتصرين أذاقوا الشوار الهوان، وارتكبوا أبشع ألوان الانتقام . . يجب أن تثوب إلى رشدك .
قال الحاج مصطفى ساخراً :

- أشكرك على نصيحتك الغالية . . إنني أفعل ما أؤمن به، لو اجتمع العالم كله لحربنا فلن ألقى السلاح وفي روعي رمق . . الفرنسيون الآن يا سيدي بين نارين: الأتراك من أمامهم، ونحن من خلفهم . . وهذا يوم الثار، فأين يهربون؟ أنت يا مدبولي لم تشعر بألم السياط وهي تمزق ظهرك . . كنت تنعم بالهدوء في يافا، ونحن نخوض في النار، ونخطو فوق حقول الموت . . عُدْ إلى بيتك يا مدبولي، وإلا عاملتك كما يعامل الخونة . . أتفهمني؟ . . عد إلى بيتك . . .



عشرة آلاف ناثريهاجمون مقر القيادة الفرنسية في الألبانية،
في غيبة كليبر وجنوده الذين يحاربون الأتراك.. القوات الفرنسية
المرابطة في المدينة تتعرض لهجمات الثوار العنيفة.. المتاريس
والحواجز والحصون يكمن فيها الثوار يابون الاستسلام، لكن
الحقيقة التي يجهلها البشتيلي هي أن كليبر ينتصر.. وينتصر..
ويسحق قوات الأتراك في عين شمس.. ويصدر أوامره بملاحقة
الجيش التركي المنهزم، وفي نفس الوقت يصدر أوامره لقواده
خارج القاهرة كي يسارعوا لنجدة الفرنسيين المحاصرين في
المدينة.. الخونة يسقطون واحداً إثر الآخر.. إن محافظ المدينة
«مصطفى آغا» له سجل حافل بالمظالم والخianات، ومن ثم فإن
الجماهير تتدفق نحو بيته، وتصدر حكمها بالإعدام، فيختر
صريعاً، فاغر الفم، جاحظ العينين، أمام الإرادة الشعبية الغالبة
التي لا تقهر.. يوم الحساب..

لكن نجدات الفرنسيين بقيادة الجنرال «لاجرانج» والجنرال
«فريان» تأتي وتصب نيرانها من فوق القلاع والحصون على أحياء
المدينة الباسلة، ومع ذلك فالمقاومة تشتد، وخاصة في باب
اللوق والمدابغ والناصرية والقصر العيني والشيخ ريحان وباب
النصر وباب الحديد والرويعي..

ويطل برتلبي من شرفة منزله مرتجفاً، على الرغم من
الحراسة الفرنسية والأرمنية التي تحيط بيته بالمدافع، ويقول
واجف القلب:

- هذا يوم مشؤوم يا هيلدا.. الفرنسيون لا يستطيعون اقتحام

الحصون، والثوار يناضلون في عناد.. كل هذا راجع لغباء كليبر
الجبان.. ها هو يخوض المعارك الضارية على الرغم منه.. لو
تفوق الثوار يا هيلدا فلسوف تغرق المدينة في بحر من الدماء،
وسنسقط نحن ضحايا لحماقة كليبر وسوء تصرفه.
قالت هيلدا:

- ولماذا لا نهرب يا أبي؟؟

- إلى أين؟؟ الثوار يسدون كل المنافذ.. ومجرد الخروج
مخاطرة كبرى قد تكلفنا حياتنا.. لنصبر حتى يعود كليبر إلى
القاهرة ونرى ماذا سيفعل.. إنها أعنف ثورة رأيتها في حياتي..
لم أكن لأتصور أن تثور القاهرة هذه الثورة العارمة، بعدما لاقت
من هوان وحملات تأديبية تكفي لقتل الروح المعنوية تماماً..
لست أدري من أين انطلقت هذه الإرادة المدمرة.. إن عمر مكرم
والسادات والمحروقي وغيرهم، قد أشعلوا هذا الجحيم ليحرقونا
فيه.. آه لو نجونا هذه المرة، فلسوف يكون انتقامنا مروعاً..

وعاد إلى مقعده الأثير، وتجرع كأساً من الخمر، وقال:

- يقولون أن حي بولاق قد بلغ الغاية في العنف والانتقام، وأن
الحاج مصطفى البشتيلي، ذلك الملعون الذي عفوت عنه منذ
فترة وجيزة، قد أفنى جميع الفرنسيين لدى شاطئ بولاق، ولم
يكتف بذلك بل هاجم مركز التجمع الفرنسي في قنطرة
الليمون.. هذا الرجل الذي أشعل الشرارة الأولى، لو أمكنتني
منه الأقدار فلسوف أعطيه الدرس الأخير الحاسم..

ثم قهقه:

- والمماليك.. لقد جاؤوا ليقدموا لنا فروض الطاعة والولاء،
فإذا بهم يتواطأون وينحازون للثوار.. الناس مع الغالب دائماً..
ثم صرخ وأخذ يدق المنضدة بيده المرتعشة:
- لا.. لن نستسلم، لسوف يعود كليبر.. لم أزل أثق به، إن
فيه بقية من رجولة وحزم..

عاد يقول لهيلدا:

- لا تخافي يا عزيزتي.. إنني أدرك ما تعانينه من رعب،
لكن...

فقاطعتة قائلة:

- صدّقني يا أبي.. أنا لست خائفة.. لا أدري لماذا، بل
معذرة إن صرحت لك بأن صياح الثوار في الشوارع والأحياء
يهزّني هزاً عنيفاً.. إنني أكره ديبوي وكل رجال ديبوي.

فصاح وهو يجرع الكأس الثانية:

- وأنا؟؟ أبوك؟؟ ألا تفكرين في مصيري؟؟

قالت وهي شاردة:

- ما أروع الأيام الخوالي!!

- نحن هنا يا بلهاء في أتون المعركة.. ألا تعلمين ماذا يحدث
لو انتصر الثوار؟؟ سترين أباك مصلوباً في ميدان الأزهر تنهال
عليه الأحجار والبصقات واللعنات.. وأنت تحلمين بالأيام
الخوالي!..

وصمت برهة ثم قال:

- في الثورة الأولى خرجت مع ديبوي.. كنت أشق حشود

الجماهير دون خوف، وعندما سقط ديبوي ولّيت هارباً، إنني
أعترف، لكننا عدنا من جديد لنسحق المقاومة.. كان نابليون
رجلاً رائعاً يتصرف بهدوء وثقة في أحلك الظروف، ويتزعزع النصر
من بين مخالب الهزيمة.. لم أستطع أن أتصور هذا الرجل
مهزوماً..

وعبّ كأساً ثالثة وقال:

- لكن هذه الثورة لها طابع آخر.. تصوّري، لقد ذهب الشيخ
الشرقاوي والشيخ المهدي والشيخ البكري وغيرهم من أعضاء
الديوان، محاولين تهدئة الثوار، ماذا كانت النتيجة؟؟ لقد
ضربوهم ونزعوا عمائمهم، ورموهم بأبشع الاتهامات..

بلع ريقه ثم هتف:

- يجب أن يخمد الفرنسيون هذه الثورة بأي ثمن، لو هُزمتنا
لحلت كارثة كبرى.. الهزيمة معناها أن يؤخذ الفرنسيون كأسرى
حرب، وأن يستولي الأعداء على سلاحهم، وأن تُصاب سمعة
فرنسا بنكسة مريضة، وأن يُمثل بأعوان فرنسا هنا أشنع تمثيل..
إنه عار الأبد والتاريخ.. ولا شك أن كليبر يدرك ذلك..



عاد كليبر في اليوم السابع والعشرين من شهر مارس عام
١٨٠٠، وقد هزم الأتراك في واقعة عين شمس هزيمة نكراء..
وعندما علم برتلمي بمجيئه امتشق سلاحه، وركب جواده وهرول
إليه، فوجده وإلى جواره مجموعة من كبار القواد، وسمعه برتلمي

يقول في هدوء:

- إن انتصارنا على الأتراك قد جعل المعركة الكبرى في صالحنا. . كانت معركة عين شمس الخالدة فرصة ذهبية أثبتنا فيها بطولة خارقة، وكتبنا في التاريخ الحربي والسياسي صفحة رائعة. .

ثم أردف يقول:

- لكن ثورة القاهرة هذه المرة، أيها الأصدقاء، في منتهى العنف والقوة. . إن الالتحام مع الثوار لن يؤدي إلى نتيجة طيبة. . لسوف نخسر الكثير من الرجال والعتاد، ولن نحقق نصراً سريعاً. . لسوف نلجأ إلى الصبر. . إن عامل الزمن مهم في هذه الأيام. . علينا أن نفرض الحصار على القاهرة، وأن نبذر بذور الشقاق بين صفوف الشعب، وبين المماليك والأتراك، ثم نضرب ضربتنا في قوة.

قال برتلمي:

- الزمن؟؟ مستحيل أن يكون في صالحنا.

- كيف؟؟

- ألا يمكن يا سيدي الجنرال أن يتجمع الأتراك من جديد

ويشعلوا الحرب؟

- فلتطمئن يا برتلمي. . لقد سحقناهم سحقاً. . إنهم

ينسحبون دون نظام وقد فقدوا الكثير من الرجال والعتاد. .

والكرامة. . أتفهمني؟ . .

قال برتلمي وهو يشمخ بأنفه:

- ما وثقتُ في هؤلاء الكلاب قط. .

قال كليبر:

- إنني أفهم ما تقول يا برتلمي، إنك تلومني من أجل الاتفاقية. . أعرف ذلك، لكنني أؤكد لك أنني عقدت الاتفاقية من أجل هدف كبير نبيل، وكنت مقتنعاً بها تمام الاقتناع، كما أؤكد لك أنني حاربت هذه المرة من أجل هدف كبير نبيل أيضاً، وأنا مقتنع تمام الاقتناع بما أفعل. . ورُبَّ ضارة نافعة يا برتلمي العزيز. . .

وأراد برتلمي أن يطمئن أكثر فقال:

- وما رأي سيدي الجنرال من الموقف الراهن؟

قال كليبر وعينه تبرقان في ثقة وهدوء:

- النصر لنا يا برتلمي. . ولسوف نعيد النظر في كل شيء. . . لكن الثورة عنيفة، وتحتاج إلى تفكير أكثر مما تحتاج إلى سلاح ورجال. . وعندما يسقط الثوار، بفعل الدهاء والزمن والمكيدة، سيلعب السلاح دوره، لأن القائد العام لا ينسى دماء الشهداء، ولا بد أن يثار من الذين طعنوه من الخلف مهما كان الأمر. . .

وهتف برتلمي في فرح غامر:

- عاش القائد العام.

وردّد الحاضرون بصوتٍ وقور أجش:

- «عاش القائد العام» . . .

عاد «ابراهيم آغا» إلى الصعيد، حيث التقى بمراد بك وشرح له حقيقة الأمر في القاهرة.. وأدرك مراد من خلال حديث ابراهيم أنه يميل إلى الانصياع إلى جانب المصريين والتصدي للحملة الفرنسية، فأشاح مراد بك جانباً وقال:
- لا فائدة.

- ماذا تعني يا سيدي؟
- لا بد من الاتفاق مع الفرنسيين على أساس التعاون معهم مقابل إعطائنا حكم الصعيد.

قال ابراهيم:
- لسوف يلغظ أهل القاهرة بكلام كثير شائن.
- تعني أنهم سوف يتهموننا بالخيانة؟؟
- معذرة يا سيدي.

قال مراد وهو يتشاءب في ملل:
- لقد دأبنا طوال الفترة السابقة على محاربة الفرنسيين، ماذا كانت النتيجة؟ أنت لا تنكر أننا خسرنا معظم المعارك، إنها معركة ميثوس منها، فلماذا لا نطلب الأمان ونحقن الدماء، ونرضى بحكم الصعيد خالصاً لنا، وندفع لهم مبلغاً بسيطاً من المال كل عام؟؟

تمتم ابراهيم:

- تتكلم يا سيدي وكأن الفرنسيين باقون في مصر للأبد.
- هل تتصور أن الأتراك قادرون على دحر فرنسا؟.. إنه احتمال بعيد..

- أنا لا أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية، لقد رأيت الناس في شوارع القاهرة والضواحي والأقاليم مُصْرُون على مواصلة الكفاح، وهذا هو العامل الحاسم في المعركة.
قال مراد بك:

- أوه يا عزيزي.. العامة كم مهمل لا حساب لهم.. لقد جربوا حظهم في ثورة القاهرة، فسحقهم نابليون سحقاً، فإذا ما عاودوا الأمر فإن كليبر قادر على إعادة الكرة.

ثم عاد يقول بعد فترة:
- إنني أزن الأمر بميزان المكسب والخسارة، وأعتقد أن اتفاقنا مع الفرنسيين واجب تمليه الضرورة.. ولهذا فأنا لا أذيع سراً حينما أقول لك أنني أرسلت الرسل إلى كليبر، والأمور تبشر بخير كثير، ولسوف نرحل صوب القاهرة، وستصل طلائعنا في شهر مارس على الأكثر.. إن أغلبية الرجال أمثال البرديسي بك وحسين كاشف وغيرهما يؤمنون بما أؤمن به...



سوى العودة إلى الصعيد، حيث الرجال والجبال والليل والحرب... لكن للأسف، لقد عاد فوجد «مراد بك» النذل يلقي السلاح، ويتزلف للفرنسيين، ويعزم على الرحيل صوب الشمال، فماذا يفعل «ابراهيم آغا»؟؟

لا مناص من أن يرحل مع مراد بك، ويعود إلى القاهرة، وفي القاهرة سوف يفعل ما يحلو له... إن مدينته الواسعة الكبيرة سوف تحمي أسرارها، وتغذي مشاعر الكفاح والنضال في روحه، وبهذا يستطيع أن يؤدي دوره على أكمل وجه حسبما يرى ضميره الذي استيقظ، والذي لن يموت ثانية...



أقام مراد بك ورجاله قرب حلوان، فجاءت أنباء معاودة الصلح التي عقدها كليبر مع الأتراك، والتي رفض الإنجليز التوقيع عليها، فتردد وأخذ يفكر، إن التحاقه بالفرنسيين في هذا الوقت عملية خاسرة، فما قيمة الإتفاق معهم وهم على وشك الجلاء؟؟

وطرب «ابراهيم» لأنباء الإتفاقية الجديدة، لأنها - على الأقل - تؤيد وجهة نظره القديمة في ضرورة الانحياز للشعب، لأنه خالد وبقا، والغزاة هم الزائلون... وأرسل مراد رجاله يتحسسون الأخبار، وفجأة نقض الأتراك الإتفاقية واحتدمت الحرب من جديد، وقاد كليبر جيشه الضخم لملاقاة الأتراك في واقعة «عين شمس» الشهيرة، التي دمر فيها قوات الأتراك،

أوى ابراهيم إلى مخدعه حزينا واجما، لشد ما آلمته كلمات «مراد بك»، ذلك الطاغية الذي يدوس القيم، ويتنكر للوطن الذي آواه، ومد له في حبال الرغد والنعيم، واحتمل عسفه ومضايقاته لسنين طويلة... إنه يدرس المشكلة متجاهلاً ملايين الجماهير التي تسكن وادي النيل، لا يقيم لها أي وزن، لم يزل يعيش بفكر عميق، وعقلية خربة متخلفة، وينسى أن ثوار القاهرة قد كبدوا العدو خسائر في الأرواح والعتاد تفوق ما فعله المماليك عشرات المرات.

ووثبت إلى ذهن ابراهيم صورة هيلدا... ذلك الوجه الجميل الملطخ بالعار والطين... يا له من حلم رهيب، ويا لها من ذكريات مريرة!... مراد بك، وبرتلمي، وهيلدا... كلهم شيء واحد في نظره، لأنهم يرمون بأنفسهم تحت أقدام الغزاة المنتصرين... يا له من عالم زائف مليء بالبهتان والضعف والانحلال!... كانت هيلدا تحدثه عن الحب والمستقبل، وكانت تغدق عليه من برها وحنانها ما جعله يصدق كل كلمة تقولها، وكان - وهو في غربته - يحيا على أمل اللقاء الحلو، والوفاء الذي لا يزول، فإذا به يعود ليرى كل شيء في مدينته الحبيبة قد تغير... حتى ملاكه الطاهر هيلدا... والغريب أنها استقبلته استقبالا رائعا أنساه آلام الليالي الطويلة السوداء، ومسح عن قلبه متاعب المعارك الشديدة... كانت تؤدي دورها في الخداع والكذب ببراعة فائقة، من يدري؟... لعلها كانت تنوي تجنيده ضمن رجال أبيها وجواسيسه... ولم يكن هناك من ملجأ يلجأ إليه

وهزمهم هزيمة مُرة... لشد ما حزن «ابراهيم آغا» عندما انتصر الفرنسيون، وأخذوا يعدّون العدة للبقاء في مصر، أما مراد بك فقد أسرع بإيفاد الرسل إلى كليبر لإتمام الصلح... واندلعت ثورة القاهرة الثانية، وتسلسل عدد كبير من الأتراك والمماليك إلى القاهرة، وكان «ابراهيم آغا» واحد من هؤلاء.

الثورة في بولاق، في الألبانية، في الناصرية، في باب الحديد... في كل مكان... و«ابراهيم آغا» يختلط بالثوار الذين يهاجمون مقر القيادة العامة في الألبانية، لقد أبلى بلاءً حسناً، كان يبحث عن برتلمي، لكنه لم يعثر له على أثر... وبحث عن مالوس هو الآخر، لكن لا فائدة، ومن ثم أخذ يسدّد طلقاته وضرباته نحو أي فرنسي، إنه يرى في كل واحد منهم ديوي أو مالوس أو برتلمي، وجه الغدر والخيانة، هو وجه كل فرنسي أو عميل يؤازرهم...

وتصمد المقاومة الشعبية بدرجة مذهلة، برغم النجذات التي يقودها جنرالات فرنسا، وبرغم مقدّم كليبر منتصراً من معركة «عين شمس»، ويغمغم ابراهيم آغا في فخر:

- ليأت مراد بك ليري «الكّم المهمل» الذي يتحدث عنه، وهو يسحق أعداءه، ويسقيهم كؤوس الهوان.

لكن «ابراهيم آغا» يفاجأ بإخوانه من المماليك والأتراك يتجمعون ويهمسون، ويهتف ابراهيم لهم: «ماذا هناك؟؟» فيخبرونه أن الأوامر قد صدرت بانسحاب المماليك والأتراك من معارك الثوار، تلبية لنداء وجهه الوزير التركي الأسير «مصطفى

باشا»، و«مراد بك»... وقد وقع مصطفى باشا في الأسر أثناء معركة «عين شمس»، فأحسن كليبر معاملته، ثم حاول إستغلاله إبان إحتدام ثورة القاهرة الثانية، فحاول الوزير الأسير أن يقوم بدوره الشائن في خلخلة صفوف الثوار، بعقد إتفاق مع كليبر، ينسحب بمقتضاه الأتراك، وكذلك قام مراد بك بنفس الدور، بعد تأكده من هزيمة الأتراك... وبقي الشعب وحده يناضل في المعركة، رفض التسليم أو المفاوضات، لم يذعن لأوامر أعضاء الديوان أو الوسطاء الذين أوفدهم كليبر... وبقيت الثورة مشتعلة الأوار، وبقي «ابراهيم آغا» في مكانه مع الثائرين، مخالفاً بذلك أوامر مراد بك.

وضرب كليبر حول القاهرة حصاراً رهيباً، فشحت الأقوات، وقلّ الداخلون إلى القاهرة، وأصبح الثوار بين نيران ثلاث: مقاومة الفرنسيين، وغدر الأتراك والمماليك، وضرورة التصرف في حفظ الأمن والحصول على الأقوات... وقام ابراهيم بدور كبير في تهرب الأقوات أثناء الليل من القرى القريبة من القاهرة... وذات مساء كان يخطو من ناحية باب الحديد، فإذا بمجموعة من الجنود تحيط به، وصاح أحدهم بصوت أجش: - من أنت؟؟

ارتبك ابراهيم، لكنه تمالك أعصابه واسترد هدوءه، وقال ضاحكاً:

- ابراهيم آغا... أحد ضباط مراد بك.

وسمع ابراهيم من خلفه صوتاً يقول:

- ها نحن نلتقي مرة ثانية أيها الصديق العزيز، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

واستدار ابراهيم ليجد نفسه أمام «برتلمي» وجهاً لوجه، لقد عرفه على التوّ، بالرغم من أن برتلمي كان ملثماً لا يكاد يظهر من وجهه سوى عينيه الواسعتين، وتمتم ابراهيم آغا:

- طاب مساؤك يا سيد برتلمي... كنت أمضي دون هدف.

وقال برتلمي بعد أن صرف رجاله:

- لشّد ما تشوقت إليك، إنها لفرصة ذهبية أن ألقاك هكذا دون سابق ميعاد..

قال ابراهيم في ثبات:

- ربّ فرصة خير من ألف ميعاد.

قال برتلمي:

- لقد سألت عنك مراد بك، فأخبرني أنك قدمتّ معه.. أنا واثق أن هيلدا ستسعد بلقائك.

همس ابراهيم:

- دع هذا الأمر جانباً.

قال برتلمي مستغرباً:

- ماذا جرى أيها الصديق؟! إن ما بيننا من عقبات قد انتهى أمرها بعد أن تمّ الإتفاق بين كليبر ومراد بك.

قال ابراهيم في حزن:

- هناك عقبات أقسى وأبشع..

ارتجف جسد برتلمي في غيظٍ وقال:

- أعرف أن الكلب الحقيّر مالوس قد أفسد ما بينكما من ودّ

قديم.

- إنها مشيئة الله.

وهدر برتلمي كذئبٍ جريح:

- إن ابنتي أشرف من نابليون نفسه.

ابتسم ابراهيم في مرارة وقال:

- ليس نابليون مقياساً مثالياً للشرف.. معذرة يا سيدي..

كانت هيلدا في قلبي وخيالي أنموذجاً عالياً للطهر والنقاء.

وقال برتلمي وهو يديق الأرض بعصبية:

- ولم تزل يا ابراهيم.. إنها دسيّسة خبيثة من صنع موتور.

- أعتقد أن مالوس كان يكذب؟

- بكل تأكيد.

نظر إليه ابراهيم في توجسٍ قائلاً:

- أتشكّ في كلامي؟

- لا أعرف ماذا أقول.

قال برتلمي وقلبه يخفق:

- إذن.. هيا بنا.

- إلى أين؟

- إلى قصري.

- لكن..

قاطعه برتلمي:

- لن أقبل عذراً.. لقد تركتنا دون وداع.. اعترف مالوس

بكل شيء، لسوف تبتهج هيلدا ابتهاجاً فوق الوصف عندما

تراك، وما أظنك تقبل حرمانها من هذه المتعة الفريدة.. إنها لا

تفتأ تسأل عنك منذ عقد الصلح مع المماليك .

وقع ابراهيم في حيرة شديدة، ماذا يفعل؟؟ لقد أثلج صدره ذلك النفي القاطع لإتهامات مالوس، وشعر برغبة جارفة فعلاً في لقاء هيلدا، لكن دوره في المعركة سيتعطل، والموقف حرج، ولم يجد ابراهيم مانعاً من أن يقطع من وقته بضع ساعات، ثم يعود ثانية إلى موقعه الحصين بين الثوار.



عندما رآته هيلدا تشبثت به في استماته، وأخذت تقول من بين دموعها الغزار:

- لم أفكر قط في خيانتك حتى في أحلك الظروف، وفي أقدر ساعات عمري، إن الخطيئة الحقيقية هي التي ترتكبها وأنت في كامل وعيك وبكامل إرادتك.. لا أعرف كيف أشرح لك الأمر.

صاح أبوها في انفعال:

- كفى يا هيلدا.. ليس هذا وقت الشرح.. يجب أن تقدّمي لضيفنا العزيز مشروباً ساخناً، وإذا أراد فلتقدّمي له كأساً من النبيذ.

جلس ابراهيم في هدوء، وإلى جواره جلست هيلدا وقلبها يعلو ويهبط.. وبرغم الدموع، فقد كانت تشعر بمتعة كبرى لا تضارعها أعظم متعة في الوجود.

ونجحت خطة القائد الكبير «كليبر».. لقد استطاع أن يحاصر المدينة حصاراً قاسياً، كما استطاع أن يحشد الكثير من الجنود والسلاح، وأن يجتذب إلى صفة المماليك والأتراك.. ويمضي ضابطه الجنرال «بليار» إلى الوجه البحري ليرتكب البشائع في «المحلة» وغيرها من مدن الوجه البحري، ويسفك دماء المئات في «طنطا»، ويستولي على التاج الذهبي للسيد البدوي وزنته خمسة آلاف مثقال من الذهب الخالص، ويفرض الغرامات والأتاوات على علماء الجامع الأحمدي.

وفي اليوم الرابع من شهر إبريل عام ١٨٠٠، يبدأ الهجوم على ثوار القاهرة من ناحية باب الحديد، فتدك المدافع المبائي في غير شفقة، ثم تحرق البيوت في غلظة بمن فيها ومن عليها من الرجال والنساء والأطفال، ومع ذلك فإن الفرنسيين يعجزون عن الوصول إلى مأربهم، فيهرول «بليار» قادماً من الوجه البحري ليدعم قوات الإحتلال برجاله وعتاده وقسوته البالغة.

ويجلس مؤرخ العصر الشيخ الجبرتي، ليسجل بعض الوقائع بأسلوبه الواهن المميز، ويكتب على الصحائف:

«... وصل كليبر إلى داره بالأزبكية، وأحاطت العساكر الفرنسية بالمدينة ويولاق من الخارج، ومنعوا الداخل من الدخول، والخارج من الخروج، وذلك بعد ثمانية أيام من ابتداء

المعركة، وقطعوا الحالب، وأحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم، فعند ذلك اشتدت الحرب، وعظم الكرب، وأكثروا من الرمي المتتابع، وأوصلوا وقع القنابر والبنبات، من أعالي التلول والقلعات، خصوصاً البنبات الكبار، على الدوام والإستمرار، آناء الليل وأطراف النهار، في الغدو والبكور والأسحار، وعدمت الأقوات، وغلت أسعار المبيعات، وعزت المأكولات، وفقدت الحبوب والغلات، وارتفع وجود الخبز في الأسواق، وامتنع الطوافون به على الأطباق... واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب، وشدة البلاء والكرب، ووقوع القنابل على الدور والمساكن من القلاع، والهدم والحرق، وصراخ النساء من البيوت، والصغار من الخوف، والجزع والهلع، مع القحط وفقد المآكل والمشارب، وغلق الحوانيت والطوابين والمخازن، ووقوف حال الناس من البيع والشراء... حتى كان الناس لا يهنا لهم نوم ولا راحة، ولا جلوس لحظة واحدة من الزمن، ومقامهم أبداً بالأزقة والأسواق، وكأنما على رؤوس الجميع الطير... وأما النساء والصبيان، فمقامهم بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية... وجرى على الناس ما لا يسطر في كتاب، ولم يكن لأحد في حساب، ولا يمكن الوقوف على كلياته، فضلاً عن جزئياته»...



وكان أمر بولاق يشغل بال الجميع لما ظهر في ثورتها من عناد

وعنف الغين، ولما تكبده الفرنسيون من خسائر جسيمة... وأقبل برتلمي محتقن الوجه ثائراً، وانحنى أمام كليبر، وقال:
- سيدي... إن بولاق قد استعصت على قواتنا... معذرة... لا بد من عمل ضخم يسكت بولاق، لأن سحقها سيكون بداية موفقة للقضاء على باقي الأحياء الثائرة... ورجالي يؤكدون أن لدى البولاقين رصيد ضخم من العتاد والرجال والروح المعنوية العالية.

هز كليبر رأسه في إصرار وقال:

- لسوف أقوم بمهاجمة بولاق بنفسي.

وشرد برتلمي بنظراته إلى بعيد وقال:

- هناك رجل متوحش، كان لعب الدور الأكبر في إشعال الثورة في بولاق خاصة والقاهرة عامة.

قال كليبر:

- تقصد الشيخ السادات؟؟

- كلا...

- الحاج مصطفى البشتيلي... إنه خصم عنيد فظ... لست أدري كيف أفلت من يدي؟... لقد قبضنا عليه في أعقاب الثورة الأولى ثم أفرجنا عنه... ليتني قطعت رقبته.

- أهو عالم من العلماء؟؟

- إنه تاجر... وعالم... وفلاح... جن أحمر.

ثم صاح كليبر طالباً الجنرال بليار وقال:

- جهز جنودك... لسوف نرسل للثوار إنذاراً، فإذا رفضوه

قال عضو الديوان :

- هناك زملاء لي يتفاهمون مع الثوار لوقف إطلاق النار .

قال الحاج مصطفى بإيجاز :

- لقد عاهدنا الله على الاستمرار في الحرب، إما الموت أو

النصر .

صاح أحمد المدبولي تاجر البارود الذي كان صامتاً طوال

الوقت :

- إن الحاج مصطفى البشتيلي سيودي بالناس إلى كارثة

ماحقة، إذ ما جدوى هذا الصراع اليائس . . لسوف تندم حيث لا

ينفع الندم .

صاح البشتيلي، ومن خلفه هدير الجماهير :

- يجب أن تصمت يا مدبولي .

- وكيف أصمت ومصيري مرتبط بمصيركم؟؟ أليس لي الحق

في أن أبدي رأيي في أمرٍ خطيرٍ كهذا؟؟

قال البشتيلي ساخراً :

- تستطيع أن تعود إلى يافا إن شئت .

- وماذا في ذلك؟؟ ألم يكن معي السيد عمر مكرم ونخبة من

الرجال الأفاضل؟؟

هتف البشتيلي في حدة :

- عمر مكرم يحمل السلاح الآن ويقود الجماهير، وأنت تثبط

العزائم يا مدبولي، وعمر مكرم هاجر من أجل أن يفعل شيئاً

لصالح المعركة، وأنت رحلت إلى الشام خوفاً من التضحية

فسوف تهجم بقواتك، وتنفذ كل أوامري بدقة . . سنجعل من

بولاق العصية عبرة لكل المتمردين .

وجاء رجل من أعضاء الديوان يحمل الإنذار، وإلى جواره

وقف تاجر البارود أحمد المدبولي، قال عضو الديوان :

- يا حاج مصطفى . . يا أهل بولاق . . إنها إرادة الله التي تعلقو

كل إرادة . . إن الفرنسيين يقفون في الجانب الأقوى، ومعهم

السلاح والرجال والتفوق الكامل . .

صاح أحد الرجال :

- بل نحن في الجانب الأقوى، لأن الله معنا .

قال عضو الديوان :

- لا تقاطعوني . . ليس فينا من ينكر شرف الجهاد، والتضحية

من أجل الوطن والكرامة . . لكن ما الحيلة وأنتم تشعلون نيران

معركة خاسرة؟؟ إن قبولكم وقف إطلاق النار عمل يقتضيه

العقل، وتفرضه ظروف المدينة التي تعيش تحت وابل القذائف

والجوع والأرق لليلي طويلة .

وصاح أحد العامة :

- سندافع حتى الموت .

- إنه تهوّر وطيش أيها السادة .

وأقبل الحاج مصطفى البشتيلي نحوه وقال :

- ليس هذا وقت الكلام، ولكنه وقت العمل . . إن مصيرنا

مرتبط بمصير القاهرة بأسرها، فلن نوقف القتال، وإخواننا في

جميع الأنحاء يناضلون في استماتة .

والموت .

وساد هرج ومرج ، ولوح مندوب الديوان بيده قائلاً :

- جئت إليكم أيها الإخوة أحمل إنذار كليبر . . إما أن تضعوا السلاح ، وإما أن تستعدوا لحرق بولاق عن آخرها ، وسفك دماء الكثيرين دون فائدة . . فما رأيكم؟؟

وانطلق هدير كالرعد القاصف :

- الحرب . . ولن نسلّم .

- أهذا هو رأيكم؟؟

- أجل . . .

وسادت فترة صمت قال مندوب الديوان بعده :

- نسيت أن أؤكد لكم ، أن الفرنسيين قد هزموا جيش السلطان هزيمة نكراء ، وبهذا فقد فرغوا لكم ، وأصبح ظهركم مكشوفاً .
وارتقى الحاج مصطفى مكاناً عالياً بعض الشيء ، إتخذه كمنبر ، وأخذ يقول :

- إنني مدرك أننا نخوض معركة قاسية مريرة ، ولا يخفى عني قوة العدو العسكرية ، وأعرف أن العدو انتصر على الأتراك ، وأن المماليك والأتراك قد خانوا الأمانة ، ووضعوا أيديهم في أيدي العدو ، ولسوف يسجل التاريخ هذا العار عليهم ، لأنه تصرف ياباه الضمير الحي ، وينكره الدين الحنيف ، وقد عاهدنا الله على أن ندافع عن حريتنا وكرامتنا وحدنا ، ندافع عن أرضنا وعرضنا وديننا ، وسندفع الثمن مهما كان غالياً ، فإذا انتصرنا فهذا عين المراد ، وإذا حدث غير ذلك ، فسنلقى الله شهداء راضين بعد أن

أديننا الواجب ، وأبيننا الذل والهوان . . والله المستعان .

وانسحب مندوب الديوان ومعه أحمد المدبولي ، وسط تكبير الجماهير وهتافاتهم الراحدة ، وتمتم عضو الديوان :

- إنهم على حق .

قال المدبولي :

- ماذا تقول؟؟ إنهم يتصرفون في حماقة وجنون .

- لكنهم اختاروا الطريق الشاق والتضحيات الجسام .

قال المدبولي في خوف :

- دعنا من هذا الأمر . . أريد أن أخرج معك . . لا أستطيع

البقاء في بولاق بعد الآن . . إن رميات الفرنسيين لا تفرق بين

العقلاء والمجانين . . أرجوك ، خذني معك .

نظر إليه عضو الديوان في ازدراء قائلاً :

- لماذا لا تبقى معهم؟؟

- لأنني لا أؤمن بما يفعلون .

- هيا بنا . . لكم تمنيت أن أبقى إلى جوار هؤلاء الشرفاء .

- ولم لا تفعل؟؟

قال الرجل في أسى :

- إن أعضاء الديوان يا مدبولي هم رصيد الأحداث . . نحن

نقف في منتصف الطريق ، ونشب في الوقت المناسب لنمنع تفاقم

الأحداث . . بعد أن هزمت ثورة القاهرة الأولى ، ظهرنا في

الميدان لنهديء من روع ساري عسكر نابليون ، ونطلب منه

الصفح . . إننا نوّدي دورنا الوطني بأسلوب قد يغضب البعض ،

لكننا مؤمنون بما نفعل . . والله الموفق . . .



تدفقت جموع الفرنسيين من ناحية البحر، ومن ناحية بوابة أبو العلا، كانوا يمطرون الحيّ الباسل بأطنان من القنابل والنيران، والثوار يردّون بالمثل، لا يتوقفون عن الحرب سواء في النهار أو الليل، وأصبحت المعركة ممتدة لا تعرف الفرق بين نور وظلام . . وعاد برتلمي يرقب الأحداث في غيظ، ليس في ذهنه سوى الحاج مصطفى البشتيلي، ذلك الثائر العنيد الذي أفلت منه ذات ليلة، بعد أن دفع ذووه مبلغاً تافهاً من المال، وعندما عاد برتلمي إلى بيته بعد يومين من احتدام المعركة، كان مرهقاً مكدوداً، فألقى بغطاء رأسه، وتخفف من معطفه، ثم هتف بهيلدا، فأقبلت مهرولة:

- ما بك يا أبي؟؟ إني أرى أثر الغبار والإرهاق على وجهك.

قال وهو يصّر على أسنانه من الغيظ:

- هؤلاء السفلة في بولاق.

- ماذا جرى؟

- يرفضون الاستسلام، أليس من المضحك أن نهزم عساكر السلطان، ونأسر وزراءه وضباطه في عين شمس، ونجعلهم يولّون الأدبار في يوم وليلة، نبذد شمل جيش ضخم منظم، ثم نأتي الآن ونعجز عن احتلال بولاق، أليس هذا عجيباً؟! مجموعة من العراة الحفاة الجياع يتصدّون لجيش فرنسا،

ويستعصون عليه؟!!

ثم سعل، وعاد يقول:

- كنت يا هيلدا تتحدثين عن الرحمة، أنرحم هؤلاء الوحوش؟؟ لم يكن استسلامهم في الماضي إلا قناعاً زائفاً ماکراً، يختفون وراءه ليجمعوا صفوفهم ويعدّوا أنفسهم، إن البشتيلي ورجاله يحاربون كالوحوش الضارية . . الوحوش لا تستحق الرحمة، بل لا بد من تقليم أظافرهما، وكسر أنيابهما، وسلخ جلودها . . هذا ما أوّمن به، والعفو في مثل هذه الظروف جناية كبرى . . إن نصف الحيّ يحترق، ومع ذلك يرفضون التسليم على الرغم من وعد كليبر بالعفو عنهم . . تصوّري . .

قالت هيلدا في حيرة:

- إن ما أراه اليوم يؤكد لي أن لا حياة للفرنسيين وسط هذا

الشعب.

- كيف؟؟

- لا يمكن أن يعيشوا في هذا الجو المشحون بالكراهية

والثورات والخسائر، ولهذا فلّني أرى أن المستقبل مظلم بالنسبة

لهم.

قهقه برتلمي ساخراً وقال:

- لسوف يثورون مرة . . مرتين . . ثلاث مرات . . ثم يصيبهم

اليأس، ويمتلك الفرنسيون زمام الأمور للأبد . . لقد ارتكب كليبر

خطأ فاحشاً حينما عقد إتفاقية العريش للجلاء . . لقد فهم

المصريون أن الجيش الفرنسي قد تعب وملّ ويثس . . هذا هو

مصدر المتاعب. . وعندما يعلم العامة أن الفرنسيين باقون
فلسوف يستسلمون، وسترين يا عزيزتي أن أباك على حق. . إن
الأتراك يحكمون هذه البلاد لعدة قرون.

- هناك فرق بين الأتراك والفرنسيين يا أبي.

- فرق تافه، لكن الأتراك غزاة محتلون مهما كان الأمر.

- ووجود الأتراك كان دائماً مهدداً، لقد استطاع المماليك أن
يستقلوا بالأمر، حتى أصبحت سلطة الأتراك سلطة إسمية.

وسادت فترة صمت قال برتلمي بعدها:

- عزيزتي. . النصر للأقوياء. . لا تحاولي أن تفسري
الأحداث، أو تتدارسي التاريخ. . الأقوياء هم الذين يصنعون
الأحداث، ويكتبون التاريخ بسيوفهم وبالدم القاني. . هذا ما
أؤمن به. .

ثم غير دفة الحديث فجأة، وقال:

- ألم يعد ابراهيم آغا بعد؟؟

- لم أره منذ أسبوع. . لقد عاد آخر مرة مكروباً مهموماً. . لقد
هاجمه بعض العامة في الطريق، ورموه بالخيانة والغدر، وزعموا
أنه عميل من عملاء برتلمي.

ضحك برتلمي حتى كاد يستلقي على ظهره، ثم قال:

- أيؤلمه هذا الإتهام؟؟ إنه شرف كبير، ثم إنه يفتح أمامه
الطريق إلى مستقبل أفضل مع الفرنسيين. . ثم ألم يعقد «مراد
بك» الصلح مع «كليبر»؟؟ الحقيقة يا فتاتي أن ابراهيم يميل
لهؤلاء الغوغاء، ولعله كان يبذل لهم العون لآخر لحظة، كنت

أدرك ذلك، لكنني تفاضيت عنه، لأنه لن يحوز ثقة الجماهير التي
أصبحت تشك في نوايا المماليك، وتكن لهم أشد الكراهية. . لا
شك أنهم رأوا ابراهيم معي، ولعل بعضهم رآه وهو يدخل
بيتي. . لشد ما أنا مبتهج لهذا الذي حدث. .

ثم عاد يقول:

- ربما يكون ابراهيم قد ذهب إلى حلوان، ولسوف يعود في
أقرب وقت.

قالت هيلدا:

- إن هذا الجو المشحون بالمخاطر يجعلني أشعر بقلق بالغ
نحوه، وخاصة بعد أن حامت حوله الشبهات.

أجابها أبوها:

- لا عليك يا هيلدا. . إن ابراهيم يعرف كيف يحافظ على
نفسه. .

ثم قال:

- ومالوس، ألم يأت؟؟

- لم يحضر إلينا منذ ظهر ابراهيم إلا مرة واحدة.

قهقه برتلمي في خبث وقال:

- لقد أدركت أنك تستقلين دمه، ولهذا دبرت الأمر، وقذفت
به إلى أتون المعركة في بولاق. . أعتقد أنه مكان مناسب
لشخص ثقيل وقح مثله.

لم تعلق هيلدا بشيء، لكنها قالت بعد لحظات:

- إنني أفكر في الاعتراف بين يدي ابراهيم.

- كيف؟؟ إنني أرفض ذلك.

- لا أحب الخداع.

- إنه ضرورة في بعض الأحيان.. يجب أن تصبري بعض الوقت حتى نتدبر الأمر، ثم هل تنوين الاقتران الأبدي به؟؟ إنني أشك في ذلك يا هيلدا، إن حاجزاً ضخماً يقف بينكما.. حاجزاً صنعه الله.

قالت شاردة:

- الله؟؟

- أجل...

- لكن دينه يبيع زواج المسلم من مسيحية.

- وديننا لا يسمح.

- الله واحد.

- والأديان كثيرة يا هيلدا.

- لا يمكن أن تكون شرائع الله متناقضة يا أبي.

هتف قائلاً:

- أنا لا أناقش قضايا فلسفية.. ولكني أعرف شيئاً واحداً..

إن دينك لا يسمح لك بالزواج منه.

- ودينه يسمح يا أبي.. وضميري مستريح.

- أنتِ تضحين بالقيم الدينية التي تؤمنين بها من أجل رجل.

- لسوف أبقى على ديني.

- هذا لا يكفي...

وقطع حديثه فجأة، ثم قال في صبر نافذ:

- دعي هذا الأمر.. إن القاهرة غارقة في النار والدماء، وأنتِ

تفكرين في الاعتراف والزواج.. ثم ألا تعتقدين أن الاعتراف

بالحقيقة القاسية قد يباعد بينه وبينك؟؟

قالت هيلدا في إصرار:

- لسوف أناقش الأمر معه في الوقت المناسب، لن أخفي عنه

شيئاً، وليكن ما يكون...

٢٦٣

تتوارى الشمس خلف الشاطئ الغربي للنيل عند بولاق،

وطلقات المدافع واهنة متقطعة كأنها جريح ينزف ويصعد أنفاسه في

إعياء وأسى.. ويتلفت الحاج مصطفى البشتيلي حواليه، فيجد

الدموع المتجمدة في المآقي، والشحوب والغبار يكسوان الوجوه

المجهدة، والحرائق تنتشر في كل مكان، ومدفعية الفرنسيين لا

تكف عن الضرب.. وقال أحد الرجال مطرق الرأس حزينا:

- أوشكت الذخيرة على النفاد يا حاج مصطفى.

قال الحاج:

- ألم تأت إمدادات من المدينة؟؟ إن الشيخ السادات يعرف

حقيقة وضعنا جيداً.

أجابه الرجل:

- نحن بين فكي كماشة رهيبة، والحصار شديد، وكلير

يشرف بنفسه على معركة بولاق، والفرنسيون يضربون حولنا نطاقاً

صلباً من ناحية البحر، والبيوت تشتعل فيها النيران منذ خمسة أيام

كما ترى . . ماذا نفعل؟؟

وانبعث صوت من خلفهما:

- ليس هناك حل سوى التسليم.

والتفت الحاج مصطفى خلفه، وهتف:

- من؟؟ أحمد المدبولي؟!

- هو أنا . . إن دماء المئات الذين يسقطون كل يوم في رقبتك

أنت . .

وصرخ الحاج مصطفى:

- كفى . . الناس يموتون ويحترقون وأنت تتفرج! . .

- لأنني لا أؤمن بجدوى ما تفعلون يا حاج مصطفى . . هذا

رأيي، وأرجو ألا تسميه خيانة . .

وانهمرت دموع الحاج مصطفى فجأة، فكَزَّ على أسنانه في

عصبية، وجسده كله ينتفض، ثم قال:

- أيها الصديق القديم، أنت تعرفني جيداً . . أنا لا أميل

لسفك الدماء، ولكننا ندافع عن حقنا المشروع في الحياة الحرة،

مهما كان الثمن . . أنت تعلم أننا على حق . . والفرنسيون

يعلمون ذلك.

قال المدبولي:

- إن جيش السلطان نفسه قد هُزم.

قال الحاج:

- إن هزيمة السلطان لا تفقده سوى بعض الجنود والمواقع، أما

هزيمتنا فمعناها ضياع أرضنا وحرّياتنا . . وحياتنا . .

تمتم المدبولي متوتراً:

- حياتنا؟؟ أي حياة تقصد؟ . . إن بيتك تشتعل فيه النيران

الآن، بعد أن تهدّم على كل مَنْ فيه . . ألم تعلم ذلك؟؟

- التفت إليه الحاج مصطفى ذاهلاً وهتف:

- ماذا؟!

- تلك هي الحقيقة المرة.

صرخ في رغب:

- إن فيه زوجتي وابنتي! . .

قال المدبولي:

- مئات غيرهما لا قوا نفس المصير التعس.

أمسك به الحاج مصطفى في جنون وصرخ:

- ماذا تعني؟؟ هل دُفِنا تحت الأنقاض؟!

- لا أعرف على وجه اليقين . . فالنساء والأطفال والشيخوخ

تركوا بيوتهم، محاولين الاختفاء في أماكن مأمونة . . إن الموت

والدمار يحيطان بالناس من كل ناحية . . والفرنسيون يتقدمون . .

ربما تكون أسرتك الصغيرة قد هربت . . مَنْ يدري؟!

وصاح الحاج مصطفى بأعلى صوته:

- أطلقوا الرصاص . . .

وانقذت مجموعة من الطلقات، ثم أعقبها صمت مخيف . .

وتمتم أحمد المدبولي:

- ثم ماذا؟؟ لم يعد هناك ما تدافعون به عن أنفسكم إلا

العصي والطوب . . لكن مدافع الفرنسيين وقنابلهم قاسية لا

ترحم .. استمع يا حاج مصطفى .. إن الأطفال الجياع الخائفين
يصرخون ويستغيثون .. وأنين الجرحى والشكالي يملأ
الشوارع .. حسناً .. لنفترض أنك على حق .. ألا تقتضي
الحكمة أن تحقق الدماء، وتدخرها لمعركة أخرى قد تكون بعد
شهر أو شهرين أو عام؟ ..

وعاد الحاج مصطفى بذاكرته إلى بيته .. آه .. زوجه هناك
قابعة في حجرتها، تسمع الدوي الذي يصم الأذان، فيرتجف
قلبها، وتسيل دموعها غزيراً .. وزينب المسكينة، تتأرجح نظراتها
القلقة نحو السماء، هاتفة بقلبها الجريح .. والقذائف الملتهبة
تضيء الليل البهيم .. يا للمساكين!! هل فاجأتهم قذيفة مجنونة
فدمرت البيت وأشعلت فيه النيران، فلفظوا أنفاسهم تحت
الأنقاض، أم أنهم لاذوا بالفرار من الجحيم؟ ..

وفكر الحاج مصطفى أن يهرع إلى بيته ليطمئن على ذويه ..
لكنه العار يا حاج مصطفى .. إن الآلاف يقفون صامدين في
المعركة تاركين وراءهم أسرهم لا يعرفون عنهم شيئاً .. ثم مال
على المدبولي قائلاً:

- «للبيت رب يحميه يا مدبولي».

- هذا حق ..

- ورأسي يدور يا مدبولي .. أكاد لا أرى شيئاً .. ساقاي لا
تستطيعان حملي .. لقد بذلت أقصى ما أستطيع بذله من جهد،
لم تبق إلا حياتي التي استعصت على الموت .. لم أغادر مكاني
في المعركة، ولم أكف عن العمل وإصدار التوجيهات، والاتصال

بكل الجبهات .. القذائف كانت تنهمر من فوق رأسي، وتسقط
من حولي، والدماء تسيل في الشوارع بركاً كبيرة .. لكننا
الموت قد خاصمني يا مدبولي .. ليتني استرحت .. أنظر يا
مدبولي .. الرجال يقبعون وفي أيديهم السلاح دون ذخيرة ..
إنهم لا يتحركون .. ينظرون إلى أمام في حقد هائل .. هؤلاء
الرجال لا يعرفون الخوف .. لكن أين الذخيرة؟ .. انتهت
المعركة يا مدبولي قبل أن نستسلم .. العدو لم يزل واقفاً
ينتظر .. حتى الرجال العزل يدخلون في قلبه الرعب .. ماذا لو
كنا نملك السلاح الذي يملكه؟ .. ربما استطعنا أن ندفعه إلى
قلب البحر، وربما تابعناه حتى أعتاب فرنسا .. لست أهذي يا
مدبولي .. إن قوة الإيمان تحتاج معها إلى قوة الحديد .. الحديد
يا مدبولي ..

ثم شهق الحاج مصطفى باكياً، وقال:

- لا مناص من التسليم حقناً للدماء كما تقول .. وبرغم
الهزيمة التي حاقت بنا، إلا أنني أؤمن إيماناً قوياً لا يتزعزع أننا
قد فعلنا شيئاً عظيماً .. يمكن أن تسميه بداية رائعة .. لهذا فأنا
أرى أعلام النصر من بعيد تخفق فوق رؤوسنا في سماء
القاهرة .. وأرى الفرنسيين ينسحبون يجللهم العار والذل .. أكاد
أرى ذلك يقيناً.

قال المدبولي:

- لتدع المستقبل فهو بيد الله، لكننا ماذا نفعل الآن؟؟
والتفت الحاج مصطفى إلى رجاله قائلاً:

- ماذا ترون أيها الرجال الأبطال؟؟

قال واحد منهم:

- لم يعد في الأمر خيار.. إن النيران والدخان ورائحة الدم الغالي تزكم الأنوف.. يكفي ما قدّمناه من تضحيات..

قال الحاج مصطفى:

- أهذا هو رأيكم؟؟

طأطأوا رؤوسهم في أسى.. ثم قال:

- هذا أمر الله..

وبدا الارتياح على وجه المدبولي، وقال:

- أستطيع أن أحمل رسالتكم إلى الفرنسيين.

هزّ الحاج مصطفى رأسه في سخرية وقال:

- هذا فضل لن ننساه لك يا مدبولي... لكن انتظر.. يجب

أن يرحل قادة المقاومة قبل أن يمسك بهم الفرنسيون.

قال المدبولي:

- لا بأس.. لكن الإفلات من الحصار أمر صعب للغاية..

وأنت يا حاج مصطفى.. إن الفرنسيين يعرفون دورك جيداً.. إن

مشكلتك تستعصي على الحل، لكن لديّ فكرة..

قال الحاج مصطفى:

- ماذا؟؟

- تستطيع أن تختبئ في بيتي.

سدّد إليه الحاج مصطفى نظرات شك وقال:

- في بيتك أنت؟!!

- ولم لا؟؟ ألسن صديق العمر؟..

- إنها ماثرة لا أنساها لك، وفضل كبير تغرقني به.. لكن، ألا

يعرضك هذا للخطر؟؟

قال المدبولي في انفعال:

- إنني أعني ما أقول... ●

وخلا الميدان من الرجال في اليوم التالي.. أقفرت الطرق

والميادين، وعلى ثرى بولاق الشهيدة يرقد القتلى والجرحى،

ويمتزج التراب بالدم الزكي، والنيران لم تزل تشتعل في البيوت،

والأنقاض والأخشاب تسدّ الشوارع.. وأخذ المنادي ينادي في

الشوارع:

- «من أرشد عن الحاج مصطفى البشتيلي فله مكافأة كبيرة..

من أخفى البشتيلي فمصيره الإعدام..

من لديه أية معلومات عنه فليتقدم بها»..

وانقذت عساكر الفرنسيين، وكذلك «برتلمي» ورجاله، في

مختلف أنحاء بولاق، ينبهون الوكائل، ويستولون على الحبوب

والأخشاب والمتاع والبضائع، ويقتلون الكثير من الثوار، ويدققون

في البحث عن السلاح.. وإلى جوار برتلمي مضى المدبولي

شاحب الوجه مرتجفاً...

قال برتلمي للمدبولي:

- إنه صديقك القديم.. أعرف ذلك، ومن ثم فأنت أدرى

الناس بالأماكن التي يلجأ إليها.

قال المدبولي :

- إن الشيخ ابراهيم سلامة، أعز أصدقائه، قد قضى نحبه وتهدم بيته... والرجل الأعمى علي الجنجيهي هو الآخر قد فقد، وبيته تحول إلى أنقاض... ربما يكون البشتيلي قد لجأ إلى قريته «بشتيل» في الجيزة.

قال برتلبي :

- أعتقد ذلك؟؟ لكن كيف يفلت من هذا الحصار الصلد؟! إن رجلاً معروفاً كالبشتيلي، لا يستطيع أن يمشي في الشوارع دون أن يلفت الأنظار إليه...

هز المدبولي رأسه في خوف وقال :

- الله وحده يعلم...

وعاد المدبولي إلى بيته وهو عاجز تماماً عن السيطرة على أعصابه... ونظر إليه البشتيلي بعينين محقتين، وقال :

- لقد سمعتُ المنادي ينادي... أعرف أنك قدمت لي معروفاً لا يُنسى، لكنني لا يمكن أن أعرض حياتك للموت، وخاصة أنهم ينظرون إليك كصديق، ولهذا فإن أبسط أخطائك ستكون كبيرة في نظرهم...

وصمت برهة ثم قال :

- ماذا قال لك برتلبي؟؟

- أنت تعرف من أنت، وهم يعرفون.

وارتسم الجد على وجه الحاج مصطفى وقال :

- لقد عزمتُ على الرحيل يا مدبولي... ولن يعرف أحد أنني كنتُ في منزلك.

حاول المدبولي أن يتكلم، لكن الحاج مصطفى لوح بيده قائلاً :

- إنني أعرف ما أفعل، وأقدر صنيعك أعظم التقدير.

قال المدبولي :

- ألا تنتظر حتى المساء؟؟

شرد ببصره قائلاً :

- نهار بولاق اليوم كليلها... إن ما يعذبني هو أنني أجهل مصير

زوجتي وابنتي وولدي...

- لسوف أتدبر الأمر بعد رحيلك يا أخي...



خرج الحاج مصطفى ملثماً بحث الخطة نحو المجهول،

متخذاً الحواري والطرق الضيقة مساراً له... الجنود الفرنسيون

يجوبون الشوارع بعيون ثعالب، ورجال برتلبي يتحسسون الطرق

ويدورون بنظراتهم كالذئاب الجائعة... «لوقعت في أيديهم يا

حاج مصطفى، فسيشربون من دمك، ويقتاتون من لحمك... لكن

الرب واحد... والموت واحد»...

شعر بيد ثقيلة تهوي على كتفه... ونظر خلفه في رعب :

- من؟؟

رجل من الأروام كان يسكن بولاق من زمن قديم، ثم التحق

بالعسس تحت رئاسة برتلمي . . دارت الأرض بالحاج مصطفى ،
لكنه استجمع قواه وانقض عليه بكلتا يديه ، بعد أن صاح الرجل
توجساً ، وسرعان ما سقط الأرمني على الأرض . . ورفع الحاج
عينه إلى ما حوله . . لا يمكن أن يكون ما يحدث حقيقة . . لا
شك أنها مجرد رؤى رهيبة . . إن بضعة من الرجال المسلحين
يتقاطرون نحوه ، وفي أيديهم البنادق والسيوف والحقن الأسود . .
وصاح أحدهم :

- لقد وقعت في أيدينا . . .

وسيق البشتيلي في جمع حاشد من الرجال المدججين
بالسلاح . . وأهالي بولاق يرمقون الموكب الدامي من خلف
الأنقاض ، والجدران النصف مهدمة ، وما تبقى من النوافذ
والأبواب . . . البشتيلي يمضي رافع الرأس ، وقد شعر بنهايته
الأكيدة . . وملايين الصور تمر على ذهنه الملهب . . زوجه . .
إبنته . . ولده . . أصدقاؤه . . أحداث كثيرة . . القلعة بسورها
الضخم وبوابتها السوداء . . ليالي النضال الرهيبة . . امتداد ضخمة
لعمر طويل مليء بالحركة والحيوية والفكر . . حياة حافلة بكل ما
تحمله كلمة «حياة» من معنى . . «مدد يا حسين . . يا بنت النبي
نظرة . . وسيد الشهداء حمزة ، ورجل أتى إلى إمام ظالم فنهاء
فقتله» . . ذكريات . . وأصوات ندية تترنم بآيات القرآن
الكريم . . أنين . . وبكاء . . قدرة وعجز . . ليل ونهار . . ضجيج
يملا رأسه . . لكنه يعرف الطريق جيداً . . «حي . . مدد يا رسول
الله» . . وأفاق من أحلامه وذكرياته على صوت يعرفه جيداً :

- من يظن أن كلباً نافهاً ضئيلاً مثلك يفعل كل هذا؟؟
قال الحاج مصطفى باسماء :

- تستطيع أن تقول أي كلام ، لكنك لا تستطيع الحكم على
الرجال لأنك لست برجل . .
احتقن وجه برتلمي وصرخ :
- ماذا؟؟

- لا تتعجل يا برتلمي . . إنني أعرف مصيري جيداً . . لكن
اعلم أن البشتيلي لم يكن سوى واحد من عامة الناس ، وقتل
البشتيلي لن يخمد الثورة التي تشتعل في القلوب ضدكم . .
والمعركة مستمرة يا برتلمي حتى النصر . . والله أكبر . .

فهقه برتلمي في شماته وقال :

- أنظر إلى النيران من حولك .

- اللعنة على مشعلها .

- لن تحيق اللعنة إلا بك . .

وقال برتلمي فجأة ليحطم كبرياء الرجل العنيد :

- لقد بحثنا عن جثتك تحت أنقاض بيتك ، فلم نجد إلا
إمرأتك وابنتك . . وقد فاحت رائحتهما الممتنة . . .

ضغط الحاج مصطفى على أسنانه ، وشعر بما يشبه الدوار ،
وخيل إليه أن أكداساً من الصخور تتساقط على رأسه . لم يكن
الامر خيالاً كما توهم البشتيلي ، لأن برتلمي أشار إلى رجاله ،
فانهالوا على رأس البشتيلي بعصيهم وبالقضبان الحديدية التي
في أيديهم حتى سقط بعد أن تحطمت جمجمته تماماً . .

وراح البشتيلي في غيبوبة الأبدية...
وتمتم برتلمي بعد أن انتهى كل شيء:
- لم يكن لدينا وقت للتحقيق والمحاكمة.. لقد انتهى
البشتيلي وانتهت بموته ثورة بولاق.. إن مما يسعدني أن الرجال
الذين اتبعوه يرون بأعينهم مصيره التعس، ولعل بولاق قد تلقت
درساً قاسياً من مصرعه، ومما حاق بها من خسائر فادحة...
وهتف من خلفه صوت ذليل:
- نغم ما فعلت.. هذا عين الصواب..
وقبل أن يرحل برتلمي صاح في رجاله:
- أشعلوا النيران في جثته، ولا تتركوها حتى تستحيل إلى
رماد.. إن برتلمي يعرف كيف ينتقم، وكيف يؤدب المارقين...